بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

العدد السبعون ● السنة الثامنة عشرة ● صيف سنة ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم. ص.ب: (٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥)
هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)
موقعنا على الانترنت
www.ahlulbaytportal.com
البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com
البريد الإلكتروني للمجمع: info@ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين
مجلة إسلامية جامعة

- تعنى بالدراسات والنتاجات الفكرية، خصوصاً التي تصبُ في خانة الدّفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
  - أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.
  - أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
  - أن لا تكون عملاً مكرّراً، بل لا بدّ أنْ تحتوي على شيءٍ من التّجديد والحداثة. والأولويّة دائماً للدّراسات الفكريّة المستحدثة.
  - أن لا تنقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصّفحة الواحدة تتضمّن (٢٥٠) كلمة.
  - أنْ تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحةٍ واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي ا ل مع أو ا ل لة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنّية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى ا ل لة، نُشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

*** على أعتاب الدعاء والضيافة**
التحرير ٤

□ من أريج القيادة الحكيمة

*** الدعاء مفتاح القرب إلى الله، من كلمات الإمام الخامنئي** دام ظله
إعداد: علي أحمد الحسن ١٤

□ الدعاء في رحاب مدرسة أهل البيت ^

*** الدعاء في الأديان السماوية**
آية الله جوادي آملي ٣٤

*** علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، على ضوء مكارم الأخلاق**
الشّيخ معين دقيق ٤٤

*** الجمالية في الصحيفة السجادية، وأصولها في القرآن والحديث والنهج**
الشّيخ الدكتور نبيل الحلباوي ٦٣

*** أثر عبادة الدعاء في تطوير الذكاء العاطفي**
الأستاذ علي عبد المجيد عباس ٨٠

*** منهج الدعاء الوحدوي**
الشّيخ محمد مهدي التسخيري ٩٣

*** الدعاء في الشرائع السماوية**
الدكتور لبيب بيضون ١١١

□ دراسات قرآنية

* العلاقات السياسية والاجتماعية في سورة الحجرات
..... الأستاذة: سميرة علي محمد ١٢٠

* سنة البلاء في رسالة الثقلين
..... الأستاذة: منى عبد الأمير محمد ١٣٧

* السبل العملية لتعميق موقعية القدوة لدى الشباب
..... الدكتورة غادة أحمد عيسى ١٦١

□ وجهة نظر

* الحكام العرب بين الإسلام واليهودية، جدار غزة نموذجاً
..... الشيْخ علي ناصر ١٧٥

□ المحور السياسي

* الأحداث في سوريا إلى أين؟!
..... الأستاذ أحمد فارع الحاشدي ٢٠٥

* الجزيرة والجزرة
..... نسرين عز الدين ٢١٢

□ دراسات منهجية

* المدارس الفقهية والتكامل الحضاري، تمظهر النص والواقع
..... الدكتور نضير الخزرجي ٢١٧

□ شعر

* باسم الإله مخافتي ورجائي
..... الشاعرة آيات الفرمزي ٢٣١

□ منوعات

..... إعداد المحرر الثقافي ٢٣٣

المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية ـ إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
الشيخ علي محسن

العدد السبعون
السنة الثامنة عشر
صيف سنة
١٤٣٢هـ / ٢٠١١ م

المطبعة: دار التعارف .
بيروت

على أعتاب الدعاء والضيافة

قال الله الحكيم في محكم الكتاب العزيز: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ }[الانشقاق: ٦]...

و(الكدح) كما يذكره علماء التفسير[١] وأرباب معاجم اللّغة[٢] هو السعي والعناء الذي يخلّف أثراً على الجسم والروح، والكدح أيضاً: جهد النفس في العمل والكدّ فيه حتى يؤثّر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

والآية الكريمة في معناها الإجماليّ تشير إلى واحد من الأصول الأساسيّة في الحياة البشريّة، فالحياة دوماً ممزوجة بالتعب والعناء، هي كذلك حتى لو كان الهدف منها هو مجرّد الحيازة على الملذّات وإشباع الشهوات والوصول إلى متاع الدنيا..

وهي كذلك أيضاً دارٌ للكدح والمشاغل والمتاعب والصعاب حتى بالنسبة إلى من يعتقد بأنّها هي الغاية والنهاية، أو يرى أن ليس ثمّة ما وراءها، أو يزعم أنّه مخلّد فيها.

فالحياة الدنيا مجبولة على المشقّة والتعب والنصب والألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه والغنى المادّيّين، وحتى بالنسبة لصاحب المنصب والجاه

والمال والأملاك.

فكيف ـ إذاً ـ لو كان الهدف من الدنيا شيئاً آخر لا علاقة له بالمادّة وقيودها واعتباراتها التافهة، وهو عبارة عن الوصول إلى رضوان الله عزّ وجلّ ونيل حسن مآب الآخرة وثوابها؟!

وكيف ـ إذاً ـ إذا كان وراء هذه الدنيا ما وراءها من جنّةٍ ونار وحساب وعقاب ومنازل مهولة ودرجات شاسعة؟!

وكيف ـ إذاً ـ إذا كان في حلالها الحساب، وفي حرامها العقاب، كما ورد في كثير من الأخبار[٣]؟!

وكيف ـ إذاً ـ إذا كان العمر فيها في إدبارٍ، والموت في إقبال؟!

وكيف إذا كان وراءها كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها؟!

والتعبير في الآية الشريفة بـ (كادح) للإشارة إلى أنّ طريق الحياة شاقّ وصعب، وأنّ خوضه يستلزم العناء والألم والكثير الكثير من المشاكل في كافّة خطوات المسير، لا يُستثنى من ذلك الروح ولا البدن، بل كلاهما، وبكلّ ما يحملانه من جوارح وجوانح، لا يخلوان من التأثّر بهذه الطبيعة الحاكمة على الحياة الدنيا. فما تتحدّث عنه الآية يشمل مشاكل الجسد وأمراضه والآفات أو العاهات التي يمكن أن يُبتلى بها، ويشمل ـ أيضاً ـ المتاعب والمشاكل النفسيّة والروحيّة التي تصيب الإنسان بالحزن والهمّ والكآبة و..

وفي هذا المعنى يحدّثنا الإمام علي بن الحسين زين العابدين ‘ ، فيقول فيما يُروى عنه:

«من طلب الغنى والأموال والسعة في الدنيا فإنّما يطلب ذلك للراحة، والراحة لم تُخلق في الدنيا، ولا لأهل الدنيا، إنّما خُلقت الراحة في الجنّة، ولأهل الجنّة، والتعب والنصب خُلقا في الدنيا، ولأهل الدنيا، وما أُعطي أحد منها حفنة إلّا أُعطي من الحرص مثليها، ومن أصاب من الدنيا أكثر، كان فيها أشدّ

فقراً؛ لأنّه يفتقر إلى النّاس في حفظ أمواله، ويفتقر إلى كلّ آلة من آلات الدنيا، فليس في غنى الدنيا راحة، ولكنّ الشيطان يوسوس إلى ابن آدم أنّ له في جمع ذلك راحة، وإنّما يسوقه إلى التعب في الدنيا والحساب عليه في الآخرة...»[٤].

وما ذكر (لقاء الله) في الآية المتقدّمة إلّا لتبيان أنّ حالة التعب والعناء والكدح حالة مستمرّة إلى اليوم الموعود، ولا يتوقّف إلّا بانتهاء عجلة حياة الدنيا..

ولا فرق في توجيه معنى هذا (اللقاء)، سواء كان المقصود منه لقاء يوم القيامة والوصول إلى ساحة حاكميّة الله المطلقة، أم كان بمعنى: لقاء جزاء الله من عقاب أو ثواب، أم بمعنى: لقاء الذات الإلهيّة المقدّسة عن طريق الشهود الباطني، فالمعنى الإجماليّ واحد لا يتغيّر.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، والراحة الحقّة.. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافي جنان الخلد.

وكان نداء الآية مخاطباً لعموم (الإنسان)، ومتناولة للدائرة الإنسانيّة الوسيعة، ليشير إلينا بأنّ الله عزّ وجلّ قد وضع القدرة والقوّة اللّازمة لهذه الحركة الإلهيّة المستمرّة في وجود وتكوين هذا المخلوق، والذي جُعل من أشرف المخلوقات قاطبة، وليس هذا ممّا يختصّ بفئة من البشر دون أُخرى، أو بطائفة دون طائفة، أو بزمان دون زمان.

واستعمال كلمة (ربّ) في هذا الخطاب للإشارة إلى أنّ ثمّة ارتباطاً ما بين سعي الإنسان وعمله وكدحه ونشاطه من جهة، وبين ذلك البرنامج التربويّ الذي أعدّه الخالق لمخلوقه في عمليّة توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة أُخرى.

نعم، فمشوار حركة الوجود قد بدأ من العدم، والأقدام سائرة في خطواتها صوب لقاء الله تعالى، شاء ذلك الموجود أم أبى، أحبّ ذلك أم لم يحبّه.

وفي هذه المسيرة الحافلة بالهموم والغموم والمتاعب والشقاء يأتي المدد الإلهيّ ليعين الإنسان على اجتياز العقبات الكأداء التي يمكن أن تواجهه.

فقد ورد عن النبيّ الأعظم ' أنّه قال: «**إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لها**»[٥]..

النفحات الربّانيّة

وهذه النفحات الربّانيّة هي بمثابة محطّات يمكن للإنسان أن يتزوّد منها ويُحسن استغلالها ليتخطّى بها ما يمكن أن يواجهه من الشدائد والبلاءات.

ويمكن تقسيم هذه النفحات إلى أقسام ثلاثة:

أ) نفحات زمانيّة، لها علاقة بالوقت والزمان، كشهر رمضان، وليلة الجمعة ويومها..

ب) ونفحات مكانيّة، لها علاقة بأمكنة ومناطق معيّنة، كالمسجد الحرام، وثغور الإسلام، والروضة النبويّة ' ومقامات الأئمّة المعصومين عليهم السلام..

ج) ونفحات لا هي زمانيّة ولا مكانيّة، بمعنى: أنّها لا ترتبط بالزمان ولا المكان، وإن كانت حادثة بالضرورة في زمان ومكان. ومثال هذا القسم من النفحات: دعاء النبيّ الأعظم ' أو خلفائه المعصومين عليهم السلام، دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عند اتّصافهم بمواصفات معيّنة أو عند قيامهم ببعض الأعمال، كما ورد ـ مثلاً ـ: «**رحم الله امرءاً واسى أخاه بنفسه**»[٦]، أو «**رحم الله امرءاً أعان ولده على برّه**»[٧]، أو «**رحم الله امرءاً رأى حقّاً فأعان عليه، أو رأى جوراً فردّه**»[٨]، أو «**رحم الله من عمل عملاً فأتقنه**»[٩]، أو «**رحم الله من أعان شيخاً كبيراً مثقلاً**»[١٠]، أو «**رحم الله من قال خيراً فغنم، أو سكت على سوء فسلم**»[١١]، «**رحم الله شيعتنا، شيعتنا والله هم المؤمنون، فقد والله شركونا في**

المصيبة بطول الحزن والحسرة»[١٢]..

إلى غير ذلك من المحطّات والنفحات التي يمكن لأيّ إنسان أن يعرّض نفسه لها، دون تقيّد بزمان أو مكان..

ضيافة استثنائيّة في شهر استثنائيّ

وفي هذا السياق، نتعرّض ـ بإيجاز ـ للحديث عن واحدة من أهمّ النفحات الزمانيّة التي نعيشها في هذه الأيّام، وهي شهر رمضان المبارك، شهر الصيام والخير والبركات..

هذا الشهر الكريم الذي حلّ ضيفاً علينا، وحللنا ضيوفاً عليه، شهر المغفرة والخير الوفير والرحمة المصبوبة، شهر الضيافة الإلهيّة، شهر مائدة الرحمن..

تلك المائدة التي دعا الباري سبحانه وتعالى إليها عباده جميعاً، لم يستثنِ منهم أحداً، لا كبيراً ولا صغيراً، لا رجلاً ولا امرأةً، لا شيخاً ولا طفلاً، فالكلّ في هذا الشهر الكريم ضيوف على الله عزّ وجلّ، يتنعّمون بالجلوس إلى مائدته..

وفي الضيافة العاديّة، للضيف على مضيفه حقّ الضيافة، والمضيف إذا كان مضيافاً وكريماً فإنّه يقدّم لضيوفه من أحسن وأجود ما يملك، ولا يبخل عليه بأفضل ما عنده في داره، بل إنّه لا يتوانى عن أن يهب لضيفه ما قد يَحرم منه حتى نفسه أو أهل بيته.. وهذا دون شكٍّ من مكارم الأخلاق ومحاسن القيم..

والضيف أحد اثنين:

١) فضيف يأتيك بغير دعوةٍ ولا ميعاد، ويطرق بابك على حين غفلة..

٢) وآخر يأتي بناءاً على طلب منك، وبعد دعوةٍ توجّهها إليه..

والمضيف إذا كان كريماً ومضيافاً فإنّه ـ أيضاً ـ لا يفرّق بين الحالتين، فالضيف ضيف ومرحّب به على كلّ حال، وتجب له حقوق الضيافة كاملةً لا ينقص منها شيء..

غير أنّه في الحالة الثانية، في حالة الضيف الذي تدعوه إلى دارك، لا شكّ في أنّه يترتّب على صاحب الدار عبء زائد ومسؤوليّات إضافيّة، فهذا الضيف ليس متطفّلاً، أو غير مرغوب فيه، وإنّما هو ضيف قمتَ أنت بدعوته، ورغبت أنت في قدومه إليك، فتكرّم بتلبية دعوتك، وأتاك احتراماً لرغبتك، وإعظاماً لشأنك وقدرك، فهو متفضّل بمجرّد مجيئه إلى دارك، وهو بمجرّد تلبية الدعوة صار ذا فضلٍ عليك، إلى جانب كونه ضيفاً له حقّ الضيافة كاملاً غير منقوص، فيكون له حقوق زائدة، ويترتّب على المضيف تجاهه مسؤوليّات إضافيّة.

ومن ناحية الضيف أيضاً، فعلى الضيف أن يراعي آداب الضيافة، فلا يؤذي مضيفه في نفسه ولا في أهله ولا في ماله، ولا يُثقل عليه، ولا يبادر إلى الطلب منه، بل يرضى بالعطاء الذي يبذله له المضيف وصاحب الدار..

هذا في الضيافة العاديّة.

وأمّا في حالتنا.. وبالنسبة إلى شهر رمضان..

فالمضيف هو ربّ العزّة والجلالة، الكريم الذي لا تفنى خزائنه، والجواد الذي لا تنقطع هباته، ولا حدّ لجوده، ولا نهاية لكرمه.. والمضيف هو من تُنسب الأخلاق الفاضلة إليه، كما ورد عن النبيّ الأعظم ' : «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[١٣]، والمضيف هو الرحمن الرحيم الرؤوف الودود اللّطيف العزيز الحكيم المتّصف بكامل الصفات..

المضيف هو ذاك الذي يتحبّب إلينا كلّ يومٍ بالنعم، ونتبغّض إليه بالذنوب..

المضيف هو الذي خيره إلينا نازل كلّ يوم، وشرّنا إليه صاعد كلّ يوم أيضاً..

ونحن ضيوف على مائدته بدعوةٍ منه، فهو دعانا إلى التقرّب منه، والتحبّب إليه، وهو رغّبنا في صيام هذا الشهر، وهو أحبّ أن يرى جوعنا وعطشنا فيه، وهو أحبّ أن يسمع أصواتنا ونحن نناجيه أو نقرأ القرآن.. فنحن ضيوف

مدعوّون إذاً، ولسنا ضيوفاً ثقالاً..

ولذلك جاءت عطاياه تبارك وتعالى في هذا الشهر الكريم كريمةً للغاية، وكبيرةً للغاية، فالصائمون هم ركّاب سفينة النجاة فازوا فيها وربحوا وعبروا بواسطتها المهالك إلى ساحل بحر جود العزيز الكريم، والنوم في هذا الشهر عبادة، والأنفاس تسبيح، وأبواب الجنان مفتّحة، وأبواب النيران موصدة، والشياطين مغلولة، والجميع ينالون غفران الله في هذا الشهر، باستثناء من كان شقيّاً..

نعم.. فوحده الشقيّ وذو النفس المظلمة هو من يتصاغر بالذنوب أمام هذه العطاءات كلّها، ووحده الشقيّ هو من يتزحزح بسوء فهمه واختياره عن مائدة الرحمن ليعاود مقارفة الذنوب والآثام، وبالتالي: وحده الشقيّ هو من يُحرم المغفرة..

فإنّ أيدي الشياطين إذا كانت مغلولة في هذا الشهر، فتحرّك الواحد منّا نحو الذنب والمعصية ـ لا سمح الله ـ ما هو إلّا بوحيٍ من نفسٍ أمّارة بالسوء، جبّارة غاشمة لا تقنع ولا تشبع ولا تريح صاحبها وإن أراحته الشياطين من وسوساتها، حتى كأنّ هذه النفس تقوم بدور الشيطان في حالة غيابه، بل كأنّها في الحقيقة هي التي تبادر إلى القيام بهذا الدور تبرّعاً وتطوّعاً من عندها، ليعيش صاحبها، العاجز عن لجمها، والذي سمح لها بالتمادي، والذي قصّر في تربيتها وتهذيبها، ليعيش في حالة من الضعف والذلّ والشقاء بشكلٍ دائم، غاب عنه الشيطان أم حضر.. نستعيذ بالله تعالى أن نكون من الأشقياء..

وتختلف هذه الضيافة ـ وهي بكلّ المقاييس ضيافة استثنائيّة ـ عن الضيافة العاديّة..

ففي الضيافة العاديّة ـ كما قلنا ـ من جملة الآداب التي يجب على الضيف أن يراعيها: أن لا يبادر إلى الطلب من مضيفه، وإنّما ينتظره هو لكي يبادره بالبذل

والعطاء..

وأمّا في هذه الضيافة الربّانيّة، فالمضيف هو من حثّ ضيفه على أن يتقرّب إليه بالدعاء، وطلب الحوائج، والمناجاة بما يحبّ، والمضيف هو الذي رغب إلى ضيفه بالسؤال، لا بل بالإلحاح في السؤال؛ فإلى جانب ما يناله الضيف في هذا الشهر الكريم من صنوف العطايا والمواهب الإلهيّة، فالمجال أمامه مفتوح أيضاً لكي يعرض طلباته وتمنّياته ورغباته في محضر المضيف، وهي كلّها مجابة...

ولا يتّسع المجال ها هنا للتفصيل في موضوع الدعاء، وآدابه، وشروطه، وموانع استجابته.. وإنّما نؤكّد على ضرورة العودة إلى هذا التراث الكبير من الأدعية الذي تركه لنا الرسول الأكرم ' وذرّيّته المعصومون عليهم السلام، فإنّ في هذه الأدعية من القيم والمفاهيم والتعاليم كنوزاً قيّمة قد تعجز العقول عن العثور عليها، أو تعجز عن الاستفادة منها إن عثرت عليها، ربما لأنّها مفاهيم راقية لا يمكن للإنسان أن يُدركها حقّ إدراكها إلّا إذا كان في حالة التضرّع والخشوع، وهي الحالة التي تنفتح فيها آفاق الإنسان على ربّه، ويستحضر في وعيه خالقه ومكوّنه، ويعود فيها إلى رشده وصوابه.. وعندئذٍ ـ فقط ـ يكون مؤهّلاً لإدراك هذه المضامين الشريفة، وهو من العلم الربّانيّ الذي يرقى بالإنسان إلى أعلى مدارج الفضل والكمال..

وفي الختام نستحضر واحداً من هذه الأدعية العظيمة، الدعاء الذي قاله سيّد الشهداء أبو عبد الله الحسين عليه السلام في آخر ساعة من ساعات حياته يوم عاشوراء، وهي ساعة الاضطرار الشديد، يقول عليه السلام:

«**اللّهمّ متعالي المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلائق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابق النعمة، حسن البلاء . قريب إذا دُعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، ومدرك ما طلبت، وشكور إذا شكرت، وذكور إذا ذكرت.**

أدعوك محتاجاً، وارغب إليك فقيراً، وأفزع إليك خائفاً، وأبكي إليك مكروباً، وأستعين بك ضعيفاً، وأتوكّل عليك كافياً. احكم بيننا وبين قومنا بالحقّ، فإنّهم غرّونا وخدعونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد بن عبد الله، الذي اصطفيته بالرسالة وائتمنته على وحيك، فاجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً، برحمتك يا أرحم الراحمين»[١٤]..

* * *

الهوامش:

(١) انظر ـ مثلاً ـ: الطبرسيّ، ثقة الإسلام، تفسير جوامع الجامع ٣: ٧٥٣، الطبعة الأُولى، سنة ١٤٢١ هـ، ط مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة؛ والإمام الثعلبيّ، تفسير الثعلبيّ ١٠: ١٥٩، تحقيق الإمام أبي محمّد بن عاشور، الطبعة الأُولى، سنة ١٤٢٢ هـ، ط دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان؛ والرازي، الإمام فخر الدين، التفسير الكبير ٣١: ١٠٥، الطبعة الثالثة، ذيل تفسير الآية المشار إليها.

(٢) راجع على سبيل المثال: ابن منظور، لسان العرب ٢: ٥٦٩، مادّة (كدح)، ط نشر أدب الحوزة، قم، إيران، سنة ١٤٠٥ هـ.

(٣) انظر ـ مثلاً ـ: نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام ١: ١٣٠، تحقيق وشرح الإمام الشيخ محمّد عبده، الطبعة الأُولى، سنة ١٤١٢ هـ، ط دار الذخائر، قم، إيران.

(٤) المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٧٠: ٩٢ ـ ٩٣، تحقيق السيّد إبراهيم الميانجي، ومحمّد الباقر البهبودي، الطبعة الثالثة المصحّحة، سنة ١٤٠٣ هـ، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

(٥) انظر: الأحسائي، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي ١: ٢٩٦، تحقيق الحاج آقا مجتبى العراقي، الطبعة الأُولى، سنة ١٤٠٣ هـ، مطبعة سيّد الشهداء، قم؛ المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٧٤: ١٦٦، مصدر سابق.

(٦) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة ١٥: ٩٦، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بقم المقدّسة، الطبعة الثانية، سنة ١٤١٤هـ.

(٧) الكليني، الشيخ محمّد بن يعقوب، الكافي ٦: ٥٠، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، الطبعة الثالثة، سنة ١٣٦٧ هـ ش، ط دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٨) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام ٢: ١٨٥، مصدر متقدّم.

(٩) القرطبي، تفسير القرطبيّ ١٣: ٢٤٤، ط دار إحياء التراث العربيّ، سنة ١٤٠٥ هـ، بيروت، لبنان.

(١٠) القاضي النعمان المغربيّ، دعائم الإسلام ٢: ٣١١، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، الطبعة الثانية، ط دار المعارف بمصر، القاهرة.

(١١) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة ١٦: ١٢٣، مصدر متقدّم.

(١٢) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال: ص ٢١٧، تحقيق وتقديم السيّد محمّد مهدي السيّد حسن الخرسان، الطبعة الثانية، سنة ١٣٦٨ هـ ش، ط منشورات الشريف الرضي، قم.

(١٣) انظر: الرازي، تفسير الرازي ٧: ٧٢، مصدر متقدّم.

(١٤) المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٩٨: ٣٤٨، مصدر متقدّم.

من
أريج القيادة الحكيمة

الدعاء مفتاح القرب إلى الله

من كلمات الإمام الخامنئي دام ظله

إعداد: علي أحمد الحسن

تمهيد

قال الحكيم في كتابه المجيد: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }[البقرة: ١٨٦]. وقال تعالى في موضع آخر: { قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ }[الفرقان: ٧٧].

قدّم الإسلام لحياة البشر أفضل البرامج التربويّة والاجتماعيّة وأكملها على الإطلاق، كما أنّه رسم للإنسان من الأنظمة والتعاليم ما من شأنه أن يقود علاقاته المتنوّعة إلى كمالها المنشود..

والإنسان كائن متعدّد العلاقات؛ إذ تتشعّب علاقاته بما حوله وتتّسع صِلاته وارتباطاته بسائر الموجودات وتتنوّع لتتوزّع على اتّجاهات أربعة:

١ـ علاقته بالله تعالى.

٢ـ علاقته بنفسه.

٣ـ علاقته بالناس.

٤ـ علاقته بالطبيعة وسائر الأشياء ومخلوقات الكون.

وقد كان للإسلام أطروحته العمليّة والنظريّة المناسبة التي تراعي حاجات الإنسان الواقعيّة وطبيعته الفطريّة في كلّ واحدٍ من هذه الاتّجاهات الأربعة، فالهدف المنشود إسلاميّاً ما هو إلّا تأطير كلّ واحدةٍ من هذه العلاقات المشار إليها بهالةٍ من النظم والاستقرار والواقعيّة تضمن للإنسان تكوين علاقاتٍ ناجحة على كلّ صعيد، بما يعود عليه بالسعادة الحقيقيّة، والتي يمكن اختصارها بكلمتين اثنتين: نيل رضوان الله، وأداء حقّ العبوديّة.

غير أنّ الحقيقة الثابتة التي لا نرتاب فيها، هي أنّ منظومة المعارف والقيم والتعاليم الإسلاميّة إنّما أقامت صرحها على عنصر الارتباط والصلة بالله تعالى، أي: على الأوّل من الاتّجاهات الأربعة المذكورة، ولكن لا بوصفه اتّجاهاً واحداً في عرض الاتّجاهات الثلاثة الأُخرى، بحيث تنحسر دائرته وتضيق عن شمول تلك الاتّجاهات، بل بوصفه اتّجاهاً ذا صبغة عامّة تجعل الاتّجاهات الأُخرى تنضوي تحته، وتسير في فلكه، وتتحوّل إلى مظاهر وتجلّيّات له..

فمن هذه الزاوية: تغدو علاقة الإنسان مع بني جنسه إحدى المحطّات في مسيرة العلاقة التي يريد الإسلام من الإنسان أن ينشئها مع خالقه ومكوّنه..

وكذلك علاقته مع سائر المخلوقات من موجودات هذا الكون، فهي علاقة يجب على الإنسان أن يطبّق فيها الوصفة الإسلاميّة لأنّه إن لم يفعل ذلك، ساءت علاقته بربّه، وانفصمت عروة الصلة التي تجمعه به، فعلى الإنسان أن يتعامل مع موجودات هذا الكون جميعاً على أساس أنّها ـ جميعاً ـ مخلوقات الله، التي تشاركه في المخلوقيّة والعبوديّة، وفي الانتساب ـ بنفس الدرجة ـ إلى خالق واحد، وفي كونها محكومةً ومقهورةً لنفس النظام الكونيّ الذي سنّه هذا الخالق الواحد جلّ

شأنه.

وبنفس المكيال أيضاً تقاس علاقة الإنسان بنفسه، وكيفيّة نظرته إليها، فعلى الإنسان أن يضع نفسه الموضع الذي تستحقّه بحسب المعايير والموازين الإلهيّة، وعلى الإنسان أن يغوص بعيداً جدّاً في أعماق نفسه وأغوارها في سبيل اكتشاف المزيد من أبعاد ذينك الفقر والضعف الذاتيّين اللّذين يشكّلان حقيقة هويّته ومن يكون..

وبقدر ما تسعه القدرة أن يطّلع عليه من هذه الأبعاد بقدر ما يدرك من تجلّيات عظمة خالقه ومكوّنه، فهو لا يقترب من معرفة حقيقة العبوديّة في نفسه أنملةً إلّا وهو يقترب مثلها أو ما يضاهيها من معرفة حقيقة الربوبيّة في خالقه..

ولعلّ هذا المعنى الذي أشرنا إليه هو أحد الكنوز النادرة والرموز البعيدة التي تضمّنها قول خير خلق الله ' ـ فيما رُوي عنه ـ: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1]، أو ما ورد عن لسان حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «**العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة**»[2].

فالله سبحانه هو الهدف المنشود في جميع هذه العلاقات، والعودة إلى الله والتظلّل بفيء الله والتقرّب إليه عزّ وجلّ هو المبتغى والمنتهى في كافّة الاتّجاهات بلا استثناء، والعلاقات التي يقيمها الإنسان مع الآخرين، إنّما يقيمها في الحقيقة مع الله، والمعاملة لا يجريها مع الغير في واقع الأمر، وإنّما يجريها مع الله سبحانه؛ لأنّ الموجودات قاطبةً هم عيال الله ومخلوقاته.. وكلّنا لله وكلّنا إليه راجعون..

ومن هنا، تتجلّى عظمة الدعاء وأهمّيّته ومدى الحاجة إليه في حياة الإنسان، وفي مسارات علاقاته المتنوّعة؛ فإنّ الدعاء هو ذلك الحبل الذي مدّه الله تعالى للإنسان لكي يتشبّث به ويُمسك بطرفه، لكي تنتشله العناية السماويّة فتُكتب له النجاة في مواجهة مزالق هذه الدنيا وشراكها وأوحالها وهمومها ومشاكلها وعقباتها وصعوباتها وتحدّياتها..

والدعاء هو وسيلة الإنسان، الفقير ذاتاً، والضعيف خلقةً، والمحتاج فطرةً، للاتّصال بالغيب، والاستمداد من مصدر القوّة والغنى..

فما أعظمه من فرصة، كالفقير مادّيّاً في هذه الدنيا الذي يأتيه عرض من غنيّ، بأن يضمّ ثروته وما يملك، على حقارتها ووضاعتها، إلى ثروة ذلك الغنيّ وممتلكاته الكثيرة، أفلا تكون هذه بالنسبة إلى ذلك الفقير فرصة العمر التي لا تُعوَّض؟! فكذلك الدعاء، عرض إلهيّ على الإنسان، مفاده: أنّ الله تعالى قَبِل من الإنسان أن يضمّ (ثروته!!) إلى ثروة الله تعالى التي لا نهاية ولا نفاد لها، وقَبِل أن يحوّل خزائن رحمته إلى بحرٍ يغرف منه الإنسان بغير حساب، متى شاء، وأنّى شاء..

ليصير الإنسان بذلك ـ والقياس مع الفارق ـ كساقيةٍ صغيرةٍ ضحلة الماء، ولكنّها حين اتّصلت بالبحر ازداد ماؤها وكثرت بركتها وعجّت فيها الحياة..

أو كصفرٍ لا قيمة له في موازين الحساب، ولكنّه عندما جاوره الواحد وانضمّ إليه صار عدداً يُحسب له ألف حساب!!

فهي إذاً فرصة العمر لكلّ واحدٍ منّا، لكي يحوّل ضعفه إلى قوّة، وفقره إلى غنىً، وحاجته إلى استغناء، عن طريق الدعاء الذي يُتاح لنا فيه أن ننادي ربّنا بما نشاء، كيف نشاء، متى نشاء، وأنّى نشاء..

فالدعاء ليس من العبادات ذوات الأجزاء والأركان والشروط المرسومة والمحدّدة مسبقاً من قبل الشرع الأقدس، وإنّما هو عبادة لا تحكمها إلّا الأطر العامّة للعبادات، وفيما سوى ذلك، فقد تُرك فيها المجال مفتوحاً للعبد ليرسمها على وفق ما يرغبه ويشتهيه، فله أن يناجي ربّه بكلّ ما يخطر بباله، وله أن يبوح لخالقه بما يعتمل في نفسه، وله أن يبثّ شكوى نفسه حين تضغطه هموم الدنيا ومشاغلها ولا يجد في زحمتها الخانقة من يسمع صوته، ويهتمّ لشأنه، ويصغي إلى طلباته، ويحقّق له رغباته..

وكم هي عظيمة حاجة كلٍّ منّا إلى أن يجد متّسعاً له يريح فيه نفسه من أثقال أسرارها الخانقة، وينفض فيه عن نفسه بعض غبار همومها القاتلة.. فكيف إذا كان الذي يسمع النجوى، ويصغى إلى الشكوى، هو من يقول فيه إمامنا زين العابدين عليه السلام ـ كما ورد في الصحيفة السجّاديّة ـ: «**يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، لكلّ مسألةٍ منك سمع حاضر وجواب عتيد**»[٣]..

هذا على صعيد الآثار والفوائد النفسيّة للدعاء..

وعلى الصعيد المضمونيّ أيضاً، فقد ترك النبيّ ' وعترته الطاهرة عليهم السلام للمسلمين إرثاً كبيراً من الأدعية العابقة بعطور الإسلام وقيمه وتعاليمه، وإلى جانب ما تزخر به من المعارف والعقائد والعلوم، فهي أدعية تمتدّ بأنواعها وأساليبها المختلفة لتناسب جميع شؤون الإنسان وأبعاده، فهي تستنزل دموع الحياء منّا في لحظات الإنابة إلى الله الغفور الرحيم، وتجسّد تضرّعنا إليه، وترفع أيدينا الملتمسة إلى مالك الوجود كلّه، وتعفّر جباهنا بالتراب استكانةً له، وتبصّرنا بما نحن عليه من العجز والضعف والفقر والذلّة تجاهه جلّت عظمته، وتكشف لنا جوانب من قدرته المطلقة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة، وهي تتناول الشكر، وإظهار الحبّ والمودّة لله تعالى، والاعتراف له بالذلّ والعبوديّة، وإجلال الله وتعظيمه، وذكر أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وطلب المغفرة، والتوفيق في العمل، وقضاء حوائج الدنيا والآخرة، والسعة في الرزق الحلال، والعون في الشدائد، وتفريج الهموم، وإزاحة الكروب، وقضاء الدين، وردّ الغريب، وفكّ الأسير، وشفاء المريض، وإغناء الفقير، وإصلاح الفساد، وقبول الأعمال، وزيادة العلم، وستر العيب، و...

ومع كلّ ما عرفناه ونعرفه من الأهمّيّة الاستثنائيّة للدعاء على المستويين: الشخصيّ والاجتماعيّ، نبقى اليوم بحاجة إلى من يكشف لنا المزيد المزيد من

أبعاده وجوانبه القيّمة..

وفي وقتنا الراهن، فإنّنا نرى في مقام وليّ أمر المسلمين آية الله العظمى الإمام السيّد علي الخامنئي دام ظله، والذي هو مقام النيابة الحقّة والشرعيّة عن النبيّ الأعظم ' والأئمّة المعصومين عليهم السلام، نرى في هذا المقام خير منبع ومرجع لنا للتعرّف على الإسلام المحمّديّ الأصيل، ولا سيّما بالنظر إلى ما تجسّده شخصيّة الإمام الخامنئي دام ظله من مزيج رائع، يتكوّن من العناصر التالية:

الموقعيّة الفريدة والاستثنائيّة، والدرجة العالية في الفقاهة، والمثال الناصع للمرجعيّة الرشيدة والمتحرّكة، والنموذج الفذّ في قيادة الأمّة الإسلاميّة، بالإضافة إلى تاريخ طويل حافل بالجهاد والانتصارات ومواجهة الابتلاءات والصعاب والتحدّيات. فهذا كلّه يُعطي لكلماته حول موضوع الدعاء أهمّيّتها المميّزة..

وفي هذه المقالة التي بين أيدينا، نسعى لأن نستعرض جانباً من كلماته حول الدعاء، اخترناها من جملة من محاضراته القيّمة التي كان سماحته يلقيها في مناسبات متعدّدة.

معنى الدعاء

الدعاء هو الارتباط بالله ومناداته، هو أن يكلّم الإنسان ربّه ويناجيه، فعندما تقول: «يا الله»، فهذا دعاء، ويعقبه من الباري تعالى قول «لبّيك».. وهو أمر قيّم جدّاً، وإنّني أعتقد أنّ شعوب العالم اليوم بحاجة مضاعفة إلى الدعاء.

لقد كان الدعاء في بعض الأزمنة السابقة مجرّد وسيلة لملء الفراغ وإضاعة الوقت، ففي عصر الشاه البائد كانت الإذاعات تبثّ الأدعية أيّام شهر رمضان، ولكنّها كانت كهيكلٍ خاوٍ بلا روح ولا معنى، كانت هذه الأدعية لا شيء في الحقيقة، لم يكن فيها سوى صوت جميل قد يحرّك الإنسان قليلاً، ولا شيء فوق

ذلك، وهذا ـ مجرّد الصوت ـ ليس دعاءاً.. فإنّ الدعاء إذا كان عبارة عن الارتباط بالله، فلا بدّ أن يتوفّر له المحيط المعنويّ المناسب، محيط فيه الصالحون الذين يأنسون بمخاطبة الله ومناداته ـ كعصرنا الحاضر في الجمهوريّة الإسلاميّة ـ، وعندئذٍ فقط يُصبح للأدعية في الإذاعة فائدتها وتأثيرها؛ لأنّ القلوب حينئذٍ تكون مستعدّة، والأرواح مأنوسة بالله عزّ وجلّ، وعندئذٍ يكون للدعاء قيمته الكبيرة، وإليه حاجة ماسّة.

المجتمعات الإنسانيّة وحاجتها إلى الدعاء

عليكم أن تدعو الناس إلى الله وإلى الذكر، ولا يلزم أن يكون الذكر باللّسان على وجه التحديد، ادعوا الناس إلى الذكر القلبيّ، أي: إلى التعلّق بالله والتوجّه إليه، وحثّوهم على الدعاء والتضرّع والمناجاة.

إنّ التضرّع والدعاء والمناجاة والرجاء هي من خصائص أشجع الناس وأعلمهم بالسياسة، وأفضلهم ثقافةً وعقلاً وعلماً على مرّ التاريخ، وهم النبيّ الأعظم ' وأمير المؤمنين والحسين بن عليّ وعليّ بن الحسين صلوات الله عليهم أجمعين..

وعليكم أيضاً أن تدعو الناس إلى القيم والأخلاق الفاضلة، كالإيثار والرحمة والمحبّة والصبر والاستقامة في المهمّات والحلم وكظم الغيظ والأمانة وترك الخيانة والكيد بالآخرين، فالناس دائماً بحاجة إلى هذه القيم، لا يستغنون عنها في وقتٍ من الأوقات، وإذا افتقد المجتمع القيم الأخلاقيّة فسيتحوّل إلى مجتمع غير صالح، ومثل هذا المجتمع لا يُطاق أبداً، وإن استطاع أن يصل إلى أعلى مدارج الرقيّ والتمدّن، وهذا ما نراه اليوم في بعض المجتمعات الغربيّة، فهي وصلت إلى مستوىً عالٍ من حيث العلم والثروة والمدنيّة، إلّا أنّ الحياة فيها جحيم لا يُطاق.

في أمريكا ـ مثلاً ـ هناك بعض المناطق التي يتعسّر العيش فيها، الإنسان في تلك المناطق لا أمان له مطلقاً، لا يأمن على مالٍ، ولا على عرضٍ، ولا على نفس.. الشباب هناك لا يأمنون على حياتهم، فهم دائماً عرضة لمختلف أنواع الضغوطات النفسيّة والعصبيّة التي تؤثّر، وبشدّة، على أرواحهم ونفسيّاتهم.. هذا ما هو موجود بالفعل في بريطانيا وأمريكا وغيرها من الدول.. هم يمتلكون كلّ شيء، لكنّهم يفتقدون إلى الحياة، وإلى السعادة.

يعود السبب في ذلك إلى أنّ الأخلاق في تلك المجتمعات لم تواكب المدنيّة في حركتها التطوّريّة المطّردة. ففي المجتمعات الغربيّة، المعيار للتفاخر والتباهي هو السعي للحصول على المال وتكديس الثروات، أمّا في المجتمعات التي تحكمها المعنويّات، فلا يوجد مجال للتفاخر على هذا الصعيد؛ لأنّ الوحوش والحيوانات هي الأُخرى يفترس أحدها الآخر، من أجل أن تشبع بطنها وتضمن بقاءها على قيد الحياة..

وإنّما يحقّ للإنسان أن يفتخر بالسعي للحصول على فضائل الأخلاق، بتقديمه يد العون والمساعدة للآخرين، بأن يفدي الآخرين بنفسه، ويضحّي بنفسه من أجلهم، وإنّ كثيراً من هؤلاء الغربيّين لا يرون في كلّ هذه القيم ما يدعو إلى الفخر والاعتزاز، بل إذا رأوا من يفخر بهذه الأمور سخروا منه واعتبروه إنساناً ساذجاً!!

ومن أجل ذلك، نؤكّد بإلحاح على الجوانب المعنويّة، على الدعاء والتضرّع، وبخاصّة في شهر رمضان، شهر الدعاء، وشهر القرآن، وشهر الارتباط بالله، كما ينبغي التأكيد أيضاً على الجوانب الأخلاقيّة والتزكية والتهذيب، وغير ذلك من الجهات والجوانب التي لا يمكن تحديدها بزمانٍ أو مكان.

الابتعاد عن الدعاء من عوامل الضلالة

هناك عاملان هما الأساس للضلالة والانحراف العامّ، أحدهما: الابتعاد عن ذكر الله، والذي يتجلّى في الصلاة والعبادة، والذي يعني الغفلة عن الله والمعنويّات وفصل الحياة عن المعايير المعنويّة، وإهمال التوجّه إلى الله تعالى والذكر والدعاء والتوسّل وطلب التوفيق منه والتوكّل عليه وفصل الحسابات الإلهيّة عن مسارات الحياة.

والعامل الآخر: هو اتّباع الشهوات والملذّات، وبكلمة: هو السعي وراء الدنيا والاشتغال بجمع الثروة والمال والوقوع فريسةً للشهوات الدنيويّة، واعتبارها أساساً ومبدأً ونسيان الأهداف الحقيقيّة.

وهنا أتوجّه بالتوصية إلى الشباب وطلّاب الجامعات، بضرورة إجادة التفكير والاهتمام برقيّ معارفهم، والسعي للتأثير روحيّاً وفكريّاً في الوسط الذي يعيشون فيه، والاتّصاف بالفاعليّة، لا الانفعاليّة، فبإمكان الشابّ من خلال ما يتحلّى به من شخصيّة معنويّة أن يكون له تأثير على محيطه، كالصفّ الدراسيّ والأستاذ والبيئة الجامعيّة و... ومن الطبيعيّ أنّ عملاً كهذا لا ينسجم وصيغ الألاعيب السياسيّة، وإنّما يتسنّى نيله فقط عبر الصفاء والنقاء المعنويّين، ولا يُكتسب إلّا بتوثيق العلاقة مع الله تعالى.

أدعوكم يا أعزّائي إلى أن تأخذوا علاقتكم مع الله مأخذ الجدّ، فأنتم في عمر الشباب، ربيع العمر، أدعوكم للاهتمام بهذا الجانب والتوجّه إلى الله تعالى بالطلب والدعاء والمناجاة، والصلاة بخشوع وحضور قلب، وهذه الأمور في غاية الأهمّيّة بالنسبة لكم، فإيّاكم أن تعطوها دوراً هامشيّاً.

شبهة وجوابها

وهنا تواجهنا أسئلة عديدة، منها: أنّه إذا كان للدعاء مثل هذا الدور الكبير والإعجازيّ، فما الذي يعنيه وجود هذه الأسباب المادّيّة والوسائل والأدوات

والعلم والصناعة؟

والجواب: أنّ الدعاء ليس من قبيل الأدوات والأسباب المادّيّة، ولا من جنسها، ولا يعني أنّ الإنسان إذا رغب في السفر ـ مثلاً ـ فعليه أن يذهب إمّا بالقطار أو بالطائرة أو بالدعاء! ولا يعني: أنّه إذا أراد أن يحصل على شيء، فإمّا أن يحصل عليه إزاء مبلغ من المال أو بالدعاء! لا هذا ولا ذاك..

الدعاء معناه أن يطلب الإنسان من ربّه أن يوفّر له هذه الأسباب المادّيّة، وتحقّق هذه الأسباب مرهون بالدعاء، فالمقصود من الدعاء هو طلب تحقيق هذه الأسباب، بالإضافة إلى الارتباط الروحيّ والانشداد القلبيّ الذي يحصل للعبد حال الدعاء.

فمثلاً: قد يكون هناك شخص مدين لك بمبلغٍ من المال، لكنّه يأبى أن يسدّد لك هذا الدَين، وبين ليلةٍ وضحاها، يُلقى في روع هذا الشخص أن يأتيك ويعيد لك أموالك، إذاً، هناك سبب أدّى بهذا الإنسان إلى أن يغيّر موقفه، وما المانع من أن يكون السبب في ذلك هو الدعاء، أي: أنّ الدعاء هو الذي دفعه إلى أن يعيد لك أموالك، وكلّ الأسباب والعلل الموجودة في هذا العالم هي من هذا النوع.

وعلى هذا الأساس، ينبغي أن لا يكون الدعاء ذريعةً ومدعاةً للكسل والفشل، أو أن يُهمل الإنسان العلم والأسباب المادّيّة وقانون العلّيّة، فالدعاء ليس إلى جانب هذه الأمور وفي عرضها، بل هو متقدّم عليها وفي طولها، وفي الغالب: تكون مهمّة الدعاء هي توفير هذه الأمور وتأمينها، وتهيئة الأسباب والمستلزمات التي لا بدّ من وجودها في الحالات العاديّة، فعندما يطلب أحدكم من الله تعالى أن يُحقّق له الأمر الفلانيّ والذي هو بحاجة إليه ـ مثلاً ـ، فلا بدّ وأن يكون قد استنفد كلّ قواه لتحقيق هذا الأمر، إلى جانب الدعاء، وإذا أحسّ بالكسل، فعليه أن يدعو الله تعالى أن يطرد عنه هذا الكسل، ولكي يطرد عنه

الكسل لا بدّ له من إرادة وعزم وإصرار على تركه.

ولا يتصوّر أحدكم أنّ الله تبارك وتعالى سوف يقضي حاجاتنا بمجرّد أن نجلس في بيوتنا، وندعوه من دون أن نحرّك ساكناً، أو نقوم بشيء، أو نصمّم على القيام بشيء، فهذا لا يمكن أن يكون أبداً، فالدعاء يجب أن يكون دائماً إلى جانب العمل ومع العمل.

وللمسؤولين أيضاً: عليكم بالدعاء

لا تعتبروا أنفسكم في غنىً عن الدعاء والنافلة والذكر والتوجّه والتوسّل والبكاء والإنابة إلى الله تعالى. ولا تقولوا: إنّنا ما دمنا مشغولين بخدمة الناس فلا حاجة لنا بالدعاء، وإنّما يحتاج إلى الدعاء الذين لا عمل لهم. كلّا يا سادة!

هذا هو أصل القضيّة، فالدعاء هو الذي يربّي الإنسان ويصنعه، ومن دونه نبقى ضعاف النفوس، فعندما تصطفّ الوساوس أمامنا، ونحن على هذه الحالة، فإنّنا سننقاد إليها حتماً، قال تعالى: { قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ } [الفرقان: ٧٧].. فادعوا وتوجّهوا إلى الله واجعلوا لكم في اليوم ساعةً بينكم وبين الله، ذروا فيها الأعمال المختلفة، وكونوا في أنسٍ مع الله وأوليائه، مع وليّ العصر أرواحنا فداه، وآنسوا أنفسكم بالقرآن وتدبّروه. وبهذا فقط نستطيع أن نتحمّل المسؤوليّة الثقيلة والأمانة الإلهيّة التي لم يُعطها الله لأحدٍ خلال القرون الطويلة منذ صدر الإسلام وإلى وقتنا الحاضر، وقد وضعها الله في أعناقنا، وهكذا نتمكّن من حمل هذه المسؤوليّة وإيصالها إلى هدفها، وإلّا، أصابنا خزي الدنيا والآخرة.. إنّني أحوج منكم إلى هذه النصائح، فكلّنا محتاجون، ويجب علينا أن يوصي بعضنا بعضاً.

أبعاد الدعاء

للدعاء أبعاد ثلاثة، ولكلٍّ منها أهمّيّته الخاصّة:

أوّلاً: الدعاء لعرض الطلب والرغبة على الله تعالى:

كأن يغفر الذنوب، ويمدّ في العمر، وطلب السلامة، وشفاء المريض، وسلامة المسافر، وحلّ المشاكل، وطلب المال، وقضاء حوائج الدنيا، وغير ذلك ممّا يُطلب في الدعاء عادةً.

والباري تعالى وعد بالإجابة إن كان الدعاء والطلب حقيقيّاً، لا مجرّد لقلقة لسان، ولا يتعارض مع مصلحة أُخرى، كأن يكون في طلب شيء فيه نفع لك، ولكنّه ذو ضرر على غيرك، فيدعو هو وتدعو أنت أيضاً، فيمكن أن يُستجاب دعاؤه دون دعائك، وهم يمثّلون لذلك بمثال معروف، مثال صانع الفخّار والفلّاح، فالأوّل منهما يدعو الله بأن لا تهطل الأمطار خوفاً على سلامة فخّاره الذي وضعه في الشمس، والثاني يدعو الله في الوقت نفسه بهطول الأمطار لإنقاذ زرعه من الجفاف، فالدعاءان هنا متناقضان، ولا يمكن أن يُستجابا معاً، وعدم الاستجابة هنا لأحد الدعاءين لا يعني أنّ الله تعالى اعتنى بدعاء أحدهما ولم يعتنِ بدعاء الآخر، كلّا، بل لكلّ دعاءٍ مقتضٍ للإجابة، كما ورد: «**ودعوة من ناجاك مستجابة.... وعداتك لعبادك منجزة**»(٤).

والدعاء هو أحد أسباب الخلقة، وهو علّة في سلسلة العلل والعوامل، وليس ـ كما ربّما يُتوهّم ـ نقضاً لسلسلة العلّة والمعلول، ولا خرقاً لقانون العلّيّة في الخلق، بل الدعاء في نفسه علّة من العلل، فمن أوجد قانون جاذبيّة الأرض، وقانون الذرّة، وسائر القوانين المرتبطة بسيرورة الطبيعة والحياة المادّيّة، هو بعينه جعل قانوناً طبيعيّاً آخر مفاده: { ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ }[غافر: ٦٠]، ليصير هذا القانون أيضاً داخلاً في سلسلة العلل والعوامل والأسباب، طبعاً، بشرطه وشروطه، وفي مقدّمة هذه الشروط: أن يكون الدعاء واقعيّاً وحقيقيّاً ونابعاً من

القلب.

ثانياً: المعرفة:

تشكّل الأدعية المأثورة عن الأئمّة عليهم السلام بحراً من المعارف الإسلاميّة، وإنّي أظنّ أنّه لو جُمعت كلّ الروايات المتضمّنة لبيان المعارف فإنّها تكون أقلّ من المعارف الواردة في الأدعية.

فالمعارف الإسلاميّة في أدعية الصحيفة السجّاديّة، ودعاء أبي حمزة الثمالي، والمناجاة الشعبانيّة، ودعاء كميل، و.. كثيرة جدّاً، بل إنّ كلّ دعاءٍ من أدعية الصحيفة السجّاديّة هو كتاب للمعارف الإلهيّة في مختلف الموضوعات، وفهم هذه الأدعية يجعل الإنسان على معرفة بالإسلام الحقيقيّ، ويُبعده عن الشبهات والخرافات، فأهل الخرافات هم ـ في الغالب ـ أناس بعيدون عن الأدعية ولا طريق لهم إلى المعارف الحقيقيّة، وأمّا التأمّل والتدبّر في الأدعية من شأنه أن يرشدنا إلى كلا الجانبين: ما يجب الاعتقاد والإيمان به، وما يجب رفضه وردّه، على حدٍّ سواء.

ثالثاً: العلاقة والارتباط بالله:

ومن هذه الزاوية، يتحوّل الدعاء إلى هدف، ولا يكون مجرّد وسيلة؛ إذ بهذه النظرة يكون الدعاء هو العلاقة نفسها بين الإنسان وبين الله عزّ وجلّ، ويكون الدعاء هو الذي يؤمّن ذلك الإحساس الثمين الذي نحتاج إليه.

إنّ جميع الأشياء في هذه الدنيا مرتبطة بالذات الربوبيّة المقدّسة، والإنسان كذلك، باعتباره أشرف المخلوقات فوجوده مرتبط بالذات الإلهيّة، وهذا الإحساس والشعور يمنح الإنسان حالة معنويّة راقية من العروج والسلوك. وهذا في الحقيقة أعظم فوائد الدعاء وأجلّها على الإطلاق، وهو ما يستفاد من

الأدعية المأثورة عن النبيّ الأكرم ' والأئمّة المعصومين عليهم السلام وكيف أنّهم عليهم السلام كانوا ينسون أنفسهم في مناجاة ربّهم.

وقد لحقت بالبشريّة اليوم خسائر عظمى جرّاء انعدام هذا الإحساس عند البشر، وإن كنّا نرى بأنّ هذه الخسائر في مجتمعنا هي أقلّ منها في المجتمعات الأُخرى؛ لأنّ الناس هنا يعدّون أنفسهم على ارتباط وصلةٍ بالله عزّ وجلّ، ويعترفون بأنّهم عبيد له، وكلّما زاد هذا الإحساس عندنا، كلّما حالفنا التوفيق والنجاح أكثر.

لا تتصوّروا أنّ النجاح هو في صنع القنبلة الذرّيّة.. إنّ هذا لوحده ليس نجاحاً، بل التقدّم العلميّ سيف ذو حدّين، فقد يكون نجاحاً، ولكنّه أيضاً قد يكون خسراناً، وبرأيي فإنّ العلم اليوم أصبح وسيلة خسرانٍ وهلاكٍ بالنسبة إلى المجتمعات الغربيّة.

ماذا يريد الإنسان من الحياة ليكون سعيداً فيها ومرتاح البال؟ هو بحاجة إلى الأمن والمحبّة والراحة، وهنا نتساءل: هل هذه الأمور موجودة في العالم اليوم؟ وهل هناك أمن وراحة ومحبّة في عالم العلم المعاصر؟ هل استطاع رؤساؤهم ووزراؤهم وأصحاب الشركات والبنوك منهم أن يحوزوا على هذه الأمور، أم تراهم يحترقون بنيران الحرص والطمع والتجبّر والاعتداء المسعور؟! لو كانت السعادة في العلم والتطوّر فقط لما سمعنا أنّ امرءاً وزوجته في تلك الدولة ـ مثلاً ـ يهجران المدينة ليعيشا وسط الغابات، وهما يشعران بالسعادة لابتعادهما عن تلك الأجواء التي شهداها في المدينة والتي حوّلت المجتمع إلى جهنّم تعجّ بالمصائب والآلام.

أمّا من يمتلك شعور الارتباط بالله فهو سعيد قطعاً؛ لأنّ منشأ مصائب الإنسان، هو إمّا الإحساس بالذلّ واليأس والوحدة والضعف، وإمّا الطغيان والاعتداء على الآخرين. وإنّ شقاء أكثر الشعوب والأمم والمجتمعات والأفراد

وتعاستها ناشئة من العجز والضعف والإحساس بعدم وجود الناصر والمعين، ما يجعلها تعيش حالة الوحدة أو الغربة الموحشة.

فارتباط الإنسان بالله معناه الارتباط بمركز القدرة والعلم، فهو ليس، ولا يمكن أن يكون وحيداً ما دام الله تعالى معه، وما دام هو مرتبطاً به عزّ وجلّ، كما ورد في دعاء الفرج المرويّ عن النبيّ الأعظم ' : «**يا سند من لا سند له، يا ذخر من لا ذخر له، يا عزّ من لا عزّ له، يا كنز من لا كنز له، يا حرز من لا حرز له، يا عون من لا عون له، يا ركن من لا ركن له، يا غياث من لا غياث له**»[0].

فلو كنتم في قلب المعركة، والعدوّ يحاصركم من كلّ جانب، ولكنّكم كنتم تؤمنون بوجود وسيلة عندكم يمكنكم الاتّصال والارتباط بها في لحظة واحدة، فتنجيكم، وتحميكم من العدوّ، فهل كنتم في هذه الحالة لتشعروا بالخوف والضغط والحصار؟!

نعم، هكذا يكون إحساس من يعتقد ويرتبط بالله سبحانه، وقد جرّبنا ذلك في سجون الطاغوت، في وقتٍ كان معنا سجناء آخرون ينتمون إلى الشيوعيّة، أو لا يؤمنون بشيء، فهؤلاء أُصيبوا باليأس والهلع، وأصبحت الحياة مظلمةً في أعينهم، فلم يروا إلّا مرارتها، ما أدّى إلى تعرّضهم لأنواع الأمراض والمشاكل النفسيّة، ولكم كنتُ أتألّم لحال هؤلاء المساكين. وأمّا المؤمنون من السجناء، فلم يكونوا على هذه الحالة البائسة.. إنّنا عندما تضيق صدورنا أو نشعر بالخوف، نتكلّم مع الله ونتوجّه إليه بالدعاء، فيزول عنّا هذا الضيق، ولا يبقى مكان للخوف في قلوبنا، لكن من لا يملك الإيمان فهو شقيّ وتعيس.

وكما أنّ الارتباط بالله يحول دون هيمنة الشعور بالضعف والعجز والغربة، فإنّ ارتباط الإنسان بالله يمنع الإنسان أيضاً من الطغيان والاستكبار؛ فإنّ من يرتبط بالله عزّ وجلّ، وإن كان قويّاً، ويشعر بالقوّة والعزّة، إلّا أنّه يعلم أيضاً أنّ هذه القوّة التي يشعر بها ليست من ذاته، بل من الله سبحانه.

إنّ استكبار الإنسان وطغيانه في الأرض واستغناءه عن الله سببه الرئيسيّ هو عدم ارتباطه بالله، وتخيّله أنّ القوّة الظاهريّة منه، والثروة الظاهريّة ملكه، وتخيّله أنّ قوّته وثروته لا يمكن أن تزولا في لحظةٍ واحدة.

وعلى ضوء ما تقدّم: فإن دعا الإنسان ربّه وشعر بالارتباط به، فإنّه لا يُصاب بالضعف والانكسار، كما أنّه أيضاً لا يُصاب بالطغيان والاستكبار، فببركة الدعاء إذاً يمكننا بناء مجتمع مؤمن متكامل مرتبط بالله.

لذلك أوصيكم أن لا تغفلوا عن أدعية هذا الشهر، شهر رمضان، اقرأوا دعاء أبي حمزة الثمالي، ودعاء الافتتاح، وأدعية الأيّام، التي لها مضامين عالية، وبقيّة الأدعية في ليالي القدر، وادعوا الله أيضاً بغير هذه الأدعية المأثورة، وفي كلّ مكان، في الطريق، وفي العمل، وأينما كنتم، واطلبوا من الله تعالى أن يهبكم أكثر من كلّ شيءٍ آخر التوفيق والعون والهداية وأن ينوّر قلوبكم.

من فوائد الدعاء

إلى جانب ما قدّمناه، يترتّب على الدعاء فوائد جمّة، نشير إلى بعضها فيما يلي:

١) إحياء ذكر الله في القلوب وإزالة الغفلة، والتي هي أساس الانحراف والفساد اللّذين يعتريان حياة الإنسان، وتعويد الإنسان على الذكر وترسيخه في قلبه. وإنّ أكبر الخسائر التي يُمنى بها الإنسان نتيجةً لترك الدعاء هي زوال ذكر الله من القلب، ليتآكل هذا القلب بنيران النسيان والغفلة.

٢) تقوية الإيمان وتثبيته وترسيخ دعائمه في قلب الإنسان؛ فإنّ الإيمان مهدّد دائماً بخطر الزوال والتلاشي، ولا سيّما عند اصطدام الإنسان في هذه الدنيا بأحداث العالم ومشاكله ومشاغله ومغرياته وملذّاته و..

لقد تعرّفنا في السابق على بعض الأشخاص المؤمنين، لكنّ هؤلاء فقدوا إيمانهم عندما امتُحنوا بالجاه والأموال والسلطة والشهوات الجسديّة والقلبيّة،

لذلك يُوصف مثل هذا الإيمان الذي كان عند هؤلاء بأنّه (إيمان متزلزل)، وليس (إيماناً راسخاً).

ومن خصوصيّات الدعاء أنّه يفيد في ترسيخ الإيمان وإقراره في قلب الإنسان، ومن خلال المواظبة والاستمرار على الدعاء، والتوجّه إلى الله تعالى، يزول الخطر الذي يتهدّد هذا الإيمان بالزوال.

٣) نفث روح الإخلاص في قلب الإنسان، فإنّ الحديث مع الله تعالى والتقرّب منه بالدعاء والمناجاة يعمّق في الإنسان روح الإخلاص، الذي يعني: العمل لله بنيّة خالصة.

وفي الوقت الذي نعلم بأنّ جميع الأعمال المشروعة والمباحة التي نقوم بها في حياتنا اليوميّة يجوز ويُستحبّ لنا أن ننويها لله تعالى، فإنّنا نجد أنّ بعض المؤمنين لا يتمكّنون حتى من تأدية أهمّ الأعمال العباديّة ـ كالصلاة ـ قربةً إلى الله تعالى!! وما ذلك إلّا بفعل الثقل الكبير الملقى على أرواحهم وقلوبهم بسبب ترك الدعاء والحديث مع الله عزّ وجلّ.

٤) ترسيخ وتنمية الفضائل الأخلاقيّة في نفس الإنسان، فالإنسان من خلال ارتباطه بالله تعالى ومناجاته، يقوّي مكارم الأخلاق في نفسه، أي: أنّ الدعاء هو من الأمور التكوينيّة والطبيعيّة التي تمنح الإنسان شعوراً بالاستئناس في محضر الباري تعالى.

فالدعاء يُعدّ سلّم عروج الإنسان نحو خالقه، وبالتالي: سلّم عروجه نحو الكمالات والفضائل. وفي الجهة المقابلة، فإنّ الدعاء يزيل الرذائل والعيوب الأخلاقيّة من نفس الإنسان ويُبعدها عن وجوده وكيانه، فهو يُبعد الإنسان عن البخل والتكبّر والأنانيّة والعداء لعباد الله وضعف النفس والجبن والجزع.

٥) إحياء وإيجاد المحبّة لله تعالى، فالدعاء والأنس والنجوى مع الله يخلق عشق الله وحبّه في قلب الإنسان.

٦) بثّ روح الأمل في وجود الإنسان، فالدعاء يهب الإنسان القدرة والقوّة على مواجهة كلّ التحدّيات التي قد تواجهه في الحياة، فإنّ كلّ إنسان لا بدّ أن يصطدم مع مشاكل الحياة وتحدّياتها، والدعاء هو ما يعطي الإنسان القوّة والإمكانيّة ويجعله قادراً على مواجهتها، ولهذا عُبّر عن الدعاء في الأحاديث بأنّه (سلاح)، فقد رُوي عن الرسول الأكرم ' أنّه قال: «**ألا أدلّكم على سلاح يُنجيكم من أعدائكم، ويدرّ أرزاقكم؟! قالوا: بلى يا رسول الله، فقال ' : تدعون في اللّيل والنهار؛ فإنّ سلاح المؤمن الدعاء**»[٦].

إنّ الاستعانة بالله هي سلاح قاطع في يد الإنسان المؤمن؛ ولهذا فإنّ النبيّ الأعظم ' مع ما كان يمارسه من أعمال في ساحة الحرب، كتجهيز الجيش، ورصّ الصفوف، وتوفير الإمكانات المطلوبة للجند، وتأمين العتاد اللّازم، و.. فإنّه أيضاً كان يسجد في وسط الميدان ويتوجّه إلى ربّه رافعاً يديه بالدعاء متضرّعاً إلى الله تعالى ومتوسّلاً إليه أن يمدّ المسلمين بالعون والغلبة والنصر من عنده. فالدعاء إذاً يبعث على القوّة في قلب الإنسان.

٧) قضاء الحوائج. وهذا أحد مكتسبات الدعاء وغنائمه. فالله تعالى هو أمرنا بأن ندعوه ونسأله قضاء حوائجنا، عندما قال في كتابه المنزل: {وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْـلِهِۦٓ} [النساء: ٣٢]، وعندما يكون هو تعالى من أمرنا بذلك، فهذا يعني أنّه عازم على أن يُعطينا ما نريد، ولذلك ورد في الخبر عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ما كان الله ليفتح على عبدٍ باب الشكر ويُغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبدٍ الدعاء ويُغلق عنه باب الإجابة..**»[٧].

وبهذا المعنى أيضاً ما ورد عن إمامنا سيّد العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام في الدعاء الذي ينقله عنه أبو حمزة الثماليّ ـ وهو الدعاء المعروف بـ (دعاء أبي حمزة الثمالي)، وكان عليه السلام يدعو به وقت السحر ـ: «**وليس من صفاتك يا سيّدي أن تأمر بالسؤال وتمنع العطيّة، وأنت المنّان بالعطيّات على أهل مملكتك، والعائد**

عليهم بتحنّن رأفتك»[٨].

الرسول الأكرم ' والدعاء

كان ' القدوة والأسوة في العبادة، لدرجة أنّ قدميه كانتا تتورّمان من طول الوقوف في محراب العبادة. وكان يقضي القسم الأكبر من اللّيل في العبادة والتضرّع والبكاء والاستغفار والدعاء ومناجاة الله تعالى. وكان يصوم شهري رجب وشعبان، فضلاً عن شهر رمضان، في ذلك الحرّ القائظ، إضافة إلى كثير من أيّام السنة، وعندما كان أصحابه يقولون له: يا رسول الله، لماذا كلّ هذا الدعاء والاستغفار والعبادة، وقد غفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فإنّه ' كان يجيبهم: أفلا أكون عبداً شكوراً[٩]؟!

وفي الختام توصية

أوصيكم وأوصي نفسي وجميع المؤمنين والمؤمنات أن يوجّهوا سيرهم في حياتهم هذه إلى الله، وأن لا يكلّوا عن رفع أيديهم بالدعاء، والاستعانة بالله سبحانه وتعالى، وأن يسعوا إلى تطهير نفوسهم وتجنّب الرذائل.. أحيوا قلوب الناس بذكر الله، وأحيوا ذكر الله في المجتمع، واجعلوا شهر رمضان شهر دعاء وتضرّع للباري تعالى. ولتبقَ روح الدعاء والتضرّع والالتجاء إلى الله تعالى مرتكزنا الأساس، وسندنا الأوّل والأخير، ولنحافظ على النعم التي أفاضها الله تعالى علينا بالدعاء والتضرّع والنوافل والابتهال إليه تعالى في آناء الله وأطراف النهار. أستغفر الله لي ولكم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) انظر: الأحسائيّ، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي ٤: ١٠٢، تحقيق الحاج آقا مجتبى العراقيّ، ط ١، سنة ١٩٨٤م، مطبعة سيّد الشهداء، قم المقدّسة.

(٢) راجع: مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ص ٧، ط١، سنة ١٩٨٠م، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

(٣) الإمام زين العابدين عليه السلام، الصحيفة السجّاديّة: ص ٢٠٠، تحقيق: السيّد محمّد باقر الموحّد الأبطحيّ الأصفهانيّ، ط ١، سنة ١٤١١هـ، مؤسّسة الإمام المهدي ـ مؤسّسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، إيران.

(٤) الصحيفة السجّاديّة: ص ٥٩١، مصدر سابق.

(٥) راجع: المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٩٢: ٢٨٢، تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجي، محمّد باقر البهبوديّ، الطبعة الثالثة المصحّحة، ١٤٠٣ هـ، ط دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان.

(٦) الأحسائيّ، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي ١: ٣٥٠، مصدر سابق.

(٧) انظر: نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام ٤: ١٠٢، تحقيق وشرح الإمام الشيخ محمد عبده، الطبعة الأُولى، ١٤١٢ هـ، ط دار الذخائر، قم، إيران.

(٨) الصحيفة السجّاديّة: ص ٢١٦، مصدر سابق.

(٩) الأحسائيّ، ابن أبي جمهور، عوالي اللآلي ١: ٣٢٦، مصدر سابق.

الدعاء في الأديان السماويّة

❐ آية الله الشيخ جوادي آملي (*)

تمهيد

يحتاج هذا البحث إلى تمهيد بعض المقدّمات النافعة، من تفسير الدعاء، وبيان ما هو مفهومه، وأنّ الدين السماويّ ما هو؟ وهل يُعقل التكثّر والتعدّد في الدين السماويّ أم لا[1]؟ وإذا كان يمكن فيه التكثّر فبماذا يكون تكثّره وما هي المعايير لتعدّده؟

ثمّ هناك مباحث أُخَر لا بدّ من استيفائها لتتميم البحث، من قبيل: تصوير كيفيّة الدعاء مع القبول بمبدأ القضاء والقدر..

إلى غير ذلك من المباحث المهمّة التي قد لا يتّسع المجال لتفصيلها.

(*) من أكابر علماء الإسلام المعاصرين، ومن كبار أساتذة الحوزة العلميّة بقم المقدّسة، لـه مؤلّفـات عديدة في الفقه والتفسير والفلسفة والعرفان والكلام.

الدعاء في العرف واللّغة

(الدعاء)، كما يستفاد من استعمالات أهل اللّغة ويدلّ عليه التبادر عند العرف أيضاً عبارة عن طلب الداني وسؤاله لحاجته من العالي، فإذا كان الداني محتاجاً وكان العالي غنيّاً قادراً على قضاء حوائج الداني، فللداني حينئذٍ أن يدعو العالي وأن يطلب منه قضاء حاجته. هذا هو الدعاء بمعناه اللّغويّ ومدلوله العرفيّ.

وأمّا الدعاء بالمعنى الاصطلاحيّ، فهو المفسّر في غير واحدةٍ من الآيات والروايات، كما سيُتلى عليكم إن شاء الله تعالى.

المقصود من الدين

وأمّا الدين فهو مجموع العقائد والأخلاق والفقه والحقوق. وهذه المنظومة الكبيرة التي تُسمّى بـ (الدين) يمكن اختصارها بأنّها قانون من وضع إلهيّ، وفي عقيدتنا الحقّة أنّه لا مقنّن سوى الله سبحانه وتعالى، ولا مؤسّس للقانون إلّا هو عزّ وجلّ، كما قال عزّ من قائل: {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}[الأنعام: ٥٧].

والدين بهذا المعنى هو الانقياد لله سبحانه وتعالى والتسليم له، ويُعبَّر عنه بـ (الإسلام)، الانقياد له في العقائد والأخلاق والحقوق والأحكام وما إلى ذلك، وهو بهذا المعنى واحد وثابت عند الله؛ وذلك لقوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ}[آل عمران: ١٩]، حيث دلّت الآية الشريفة على حصر الدين في (الإسلام) معبّرةً عنه بأنّه (عند الله)، وقال في سورة النحل: {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ}[النحل: ٩٦]، فإذا كان الإسلام (عند الله) فهوة باقٍ كما تدلّ عليه الآية، فيكون الإسلام واحداً بلا كثرة، وباقياً بلا زوال: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا}[فاطر: ٤٣].

هذا هو الدين، وهذا هو الإسلام، وهو واحد لا تثنية له، فضلاً عن الجمع،

وعلى هذا الأساس، فلا يمكن التعبير عنه بـ (الأديان السماويّة)؛ لأنّ الواحد لا يتثنّى ولا يتكرّر، وإنّما التكرّر والتعدّد في الشرائع والمناهج، كما قال سبحانه وتعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}[المائدة: ٤٨]، فالشرائع والمناهج متعدّدة، وأمّا الدين فواحد.

وحينئذٍ فلا بدّ من توزيع البحث عن الدعاء على مقامين:

المقام الأوّل: الدعاء في الإسلام.

والمقام الثاني: الدعاء في المناهج والشرائع.

المقام الأوّل: الدعاء في الإسلام

وإذا كان الإسلام ديناً واحداً جاء به الأنبياء جميعهم مصدّقاً بعضهم لبعض، فلا يقع هناك اختلاف في الدين الإلهيّ ولا تخلّف..

وإذا ثبت أنّ الدعاء في الإسلام حقّ وواقع ـ كما هو أمر مفروغ عنه في الشريعة الإسلاميّة ـ يكون الدعاء في جميع الأديان السماويّة ـ إن صحّ التعبير بالجمع ـ حقّاً أيضاً وثابتاً وواقعاً؛ إذ هذا هو معنى عدم الاختلاف وعدم التخلّف.

والفلسفة التي بها كان الدعاء حقّاً وواقعاً في الدين الإلهيّ أنّ كلّ ما سوى الله فهو ممكن ومحتاج وفقير إليه سبحانه وتعالى..

وأمّا قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ}[فاطر: ١٥]، فهو وإن كان وارداً في حقّ الإنسان فقط، إلّا أنّه لا مانع أيضاً من تعميم هذه الفكرة على جميع المخلوقين، فجميع ما سوى الله فهو فقير إليه عزّ وجلّ، جماداً كان أو نباتاً، حيواناً كان أو إنساناً، جنّاً كان أو ملاكاً، فلكاً كان أو ملكاً، ولو قيل: يا أيّها المخلوقون أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ، لكان صحيحاً أيضاً؛ إذ إنّ فقر الإنسان إلى الله إنّما نشأ من كونه مخلوقاً له

سبحانه..

وعلى ضوء هذا التعليل العامّ يثبت أنّ كلّ مخلوق له تعالى فهو فقير ومحتاج إليه، كما يشهد لذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الرحمن: {يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}[الرحمن: ٢٩]، فجميع من في السماوات وجميع من في الأرض يسأل الله تعالى؛ لأنّ جميع ذلك ممكن مخلوق فقير، كُتب عليه الفقر، محتاج إليه سبحانه وتعالى، والله تعالى هو الغنيّ، ولا غنيّ سواه، فلا مجيب سواه.

وبهذا نعرف: أنّ الدعاء عامّ لمن في السماوات والأرض، بجميع من فيهما، وجميع ما فيهما، وجميع ما بينهما، وما إلى ذلك..

وفي شأن الإنسان خاصّةً، يُقال أيضاً: إنّ الإنسان مفتقر إليه سبحانه وتعالى، والله هو الغنيّ، وكلّ مفتقر فحقّه ومن طبيعته أن يسأل الغنيّ وأن يتوجّه إليه بالسؤال ليقضي له حاجته، فالإنسان يدعو ويسأل الله ربّه قضاء حاجته، حاله في ذلك حال جميع ما سواه من المخلوقات، وذلك قوله عزّ وجلّ: {يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}، وهو سبحانه مجيب الكلّ، كما قال: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩]، والمقصود من قوله: (كلّ يوم)، أي: كلّ ظهور.

ومن هنا يتلخّص: أنّ الإسلام هو الدين الإلهيّ الوحيد، وهذا الدين الوحيد هو الدين الذي أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء، بدءاً بنبيّ الله آدم عليه السلام وانتهاءاً بالنبيّ الخاتم ' ..

وإذا كان الدعاء ناشئاً من واقع الفقر الذاتيّ الذي يعيشه الإنسان ومعه جميع المخلوقين إلى الله تعالى، فلا يتمّ إسلام إلّا مع الدعاء، ليكون الدعاء ـ بناءً على هذا التفسير ـ هو مخّ العبادة وجوهرها وقوامها..

ويمكننا القول أيضاً: بأنّ الدعاء، سواء جعلناه عبادة أم قلنا بأنّه ليس عبادة وإنّما هو أمر كالعبادة، فهو أمر ملحوظ ومأخوذ وموجود في متن الإسلام وفي روحه وصميمه؛ ولذا كان كلّ نبيّ مصدّقاً لمن قبله؛ لأنّ الدين واحد، والنبيّ

السابق، والنبيّ اللّاحق، كلّ واحدٍ منهما، قد أتى بدينٍ لا اختلاف فيه ولا تخلّف، ولذا يصرّح القرآن الكريم مراراً بأنّ اللّاحق مصدّق للسابق.

هذا هو الدعاء في الإسلام...

المقام الثاني: الدعاء في الشريعة والمنهاج:

قال الله عزّ وجلّ في محكم كتابه المجيد: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} [المائدة: ٤٨]..

وحيث إنّ الإنسان تتجدّد له في كلّ عصر ومصر حاجات خاصّة تختلف عن حاجته أو حاجاته العامّة التي تكون مشتركة بين العصور والأمصار، ويطرأ له باختلاف الأزمنة والأمكنة أسئلة ومتطلّبات خاصّة مغايرة للأسئلة والمتطلّبات العامّة، فيكون لكلّ عصرٍ حاجة وسؤال، ولكلّ مصر حاجة وسؤال، ولكلّ نسلٍ حاجة وسؤال، ولأجل هذا تختلف الأدعية وتختلف معها الأجوبة.

١) فالذي كان لآدمعليه السلام حيث قد ابتُلي بما حصل معه في الجنّة، {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى} [طه: ١٢٠]، وابتُلي هو وزوجه حوّاء ' حتى أُخرجا من الجنّة، {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]، حيث إنّ آدمعليه السلام قد دعا الله سبحانه وتعالى ليعفو عنه. هذا دعاء آدمعليه السلام.

٢) وأمّا دعاء نوحعليه السلام فهو كما قال تعالى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} [القمر: ١٠]، هذا دعاؤهعليه السلام لنفسه. وأمّا دعاؤه على قومه، فقد حكاه القرآن الكريم بقوله: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦]. ولا فرق في الدعاء بين أن يكون دعاءاً للنفس، أو على الغير، فإنّ النوعين على حدٍّ سواء، لا مجيب له إلّا الله تعالى.

٣) وعلى هذه الطريقة أيضاً استمرّ الأنبياء الذين جاؤوا من بعد نوح، حيث

كان كلّ منهم يسأل الله تعالى ويتوجّه إليه بالتضرّع والدعاء.

٤) إلى أن انتهى الأمر إلى إبراهيمعليه السلام الذي كان يدعو الله سبحانه وتعالى في إراءة الحقّ وإزاحة الباطل، سواء كان راجعاً إلى معرفة المبدأ أو راجعاً إلى معرفة المعاد وإحياء الموتى، كما قال: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى}[البقرة: ٢٦٠]، وأدعية إبراهيمعليه السلام معهودة ومعروفة ولا تحتاج إلى إشارة وبيان.

وإنّما نشير هنا إلى مطلب سامٍ عالٍ وهو أنّ إبراهيم عليه أفضل صلوات المصلّين لم يسأل الله سبحانه وتعالى أن يُقدره على إحياء الموتى؛ لأنّهعليه السلام قد احتجّ بذلك من قبل، حيث قال: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}[البقرة: ٢٥٨]، فهذا الدعاء منهعليه السلام لم يكن لأجل طلب العلم بأنّ الله قادر على إحياء الموتى، ولا لبيان أنّه تعالى كيف يُحيي الموتى، بل لبيان أنّه سأل الله سبحانه وتعالى بما مضمونه: يا ربّ! علّمني كيفيّة إحياء الموتى حتى أكون مَظهراً لاسمك (المحيي) فأتمكّن من إحياء الموتى بإذنك، وأصير بإذنك محيياً للموتى. وهذا من المطالب العالية التي تُدرس في محلّها من العلوم الإلهيّة.

٥) إلى أن انتهى الأمر إلى إسحاق ويعقوب ويوسفعليهم السلام، حيث كان لكلٍّ منهم أيضاً دعاؤه الخاصّ.. ودعاء يوسفعليه السلام كذلك معهود ومعروف، {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}[يوسف: ٣٣].

٦) ومن بعد يوسفعليه السلام انتهى الأمر إلى داود وسليمان ، ومزامير داود التي هي مشحونة بالدعاء، وقد قال تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}[النساء: ١٦٣]، وكذلك كان زبور داود مشحوناً بالعظة والسؤال والحكمة والدعاء. وهكذا الحال في سليمانعليه السلام.

٧) وانتهى الأمر بعد ذلك إلى موسىعليه السلام، وكان دعاؤهعليه السلام في الأربعين معروفاً، حيث إنّ موسىعليه السلام قد سأل ربّه موعداً يلاقيه، {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}[الأعراف: ١٤٢]،

وهكذا كان موسى عليه السلام مناجياً وداعياً ومتكلّماً، كما أنّه كان مخاطَباً ومستمعاً، وهذا ما قد نُسمّيه بـ «الأربعين الكليميّ»، وهو دعاء معهود ومعروف أيضاً، وقد كان موسى عليه السلام مشحوناً بكلّ وجوده ومملوءاً بالدعاء والنجوى والنداء، حتى انتهى إلى قوله: {قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ}[الأعراف: ١٤٣]. وقد توزّعت أدعية موسى عليه السلام على درجات ومراتب متفاوتة، فمن مراتبها: دعاؤه بهداية قومه، ومن مراتبها: دعاؤه بطلب الرؤية، وبينهما درجات. وكذا دعاؤه مع هارون عليه السلام الذي قال فيه سبحانه وتعالى: {قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا}[يونس: ٨٩].

وكان موسى عليه السلام قد دعا ربّه بأمورٍ كثيرة، من طلب شرح الصدر، حيث قال: {قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي}[طه: ٢٥]، وتيسير الأمور {وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي}[طه: ٢٦]، وحلّ عقدة اللّسان {وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي}[طه: ٢٧]، وإشراك أخيه هارون في أمره، حيث قال: {وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي}[طه: ٣٢]، وقد صرّح الله سبحانه بإجابة تلك الأسئلة والأدعية، حيث قال سبحانه: {قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ}[طه: ٣٦]، فكلّ من موسى وهارون ' كان له دعاؤه الخاصّ.

٨) ثمّ انتهى الأمر إلى عيسى وأمّه عليهما آلاف التحيّة والثناء، فمن دعاء عيسى المسيح عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم بقوله تعالى: {قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ}[المائدة: ١١٤]، وقد كان عليه السلام دائم الدعاء والمناجاة والنداء والسؤال في غير هذا الموضع أيضاً.

فالدعاء من آدم إلى عيسى، ومن عيسى إلى آدم، عليهم آلاف التحيّة والثناء، مسلّم، مشهور، وممّا لا ريب فيه، حيث صرّح الله سبحانه وتعالى بعد ذكر عدّةٍ من الأنبياء عليهم السلام: {وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا}[الأنبياء: ٩٠].

فلا اختصاص للدعاء بآدم، ولا بنوح، ولا بإبراهيم، ولا بموسى، ولا

بعيسى؛ فإنّ {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} شامل لجميع الأنبياء بلا استثناء. والدعاء الترغيبيّ أمر، والدعاء الترهيبيّ أمر آخر. والدعاء خوفاً من النار أمر، والدعاء شوقاً إلى الجنّة أمر، والدعاء فوق ذينك، وهو الدعاء طلباً للّقاء، أمر آخر.

٩) وأمّا دعاء سيّد الأنبياء والمرسلين عليه أفضل صلوات المصلّين، فهو مذكور في غير واحدةٍ من الآيات، فقد أمره الله تعالى بطلب أمورٍ عديدة، منها: طلب مزيد العلم، كما قال: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[طه: ١١٤]، {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}[الإسراء: ٨٠]، {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ}[آل عمران: ٢٦].

هذه بعض الأدعية المذكورة في القرآن الكريم لسيّد الأنبياء وخاتمهم وأشرف الخلق أجمعين محمّد بن عبد الله ' .

وقد عرفنا ممّا ذكرناه: ما هو الإسلام؟ وما هي حقيقة الدين الإسلاميّ؟ وما هو معنى الشريعة والمنهاج؟ وما هي حقيقة الدعاء؟ كما اتّضح أيضاً أنّ الدعاء من الأمور الثابتة والراسخة في الإسلام، وفي الشريعة والمنهاج.

ويبقى هنا مطلبان مهمّان:

المطلب الأوّل: أنّ الدعاء والسؤال هل هو منافٍ للقضاء والقدر أم لا؟

والمطلب الثاني: أنّ الدعاء على أقسام.

أمّا المطلب الأوّل:

فلا تنافي بين الدعاء وبين القضاء والقدر؛ لأنّ الدعاء والسؤال والطلب والاستدعاء من أنحاء القضاء، يعني: أنّ الله سبحانه وتعالى قد قضى أنّ العبد لو سأل ودعا لأجابه، ولو لم يسأله ولم يدعه لم يُجبه، حيث قال: {ادْعُونِي

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]، والله تعالى وإن كان يفعل ما يريد، لكنّه تعالى لا يفعل إلّا بحكمة، كما صرّح بذلك سيّدنا عليّ بن الحسين السجّادعليه السلام في بعض أدعية الصحيفة السجّاديّة، حيث قال: «**يا من لا تبدّل حكمته الوسائل**»، فالله سبحانه وتعالى حكيم، لا يفعل إلّا بحكمته، ولا يترك إلّا بحكمته، وهو الحكيم بقولٍ مطلق، فإذا كان تبارك وتعالى قد أمرنا بالسؤال، فإنّه لا يجيبنا بما هو مقتضى حكمته، ولا يبدّل حكمته أيّة وسيلة من الوسائل.

فللقضاء والقدر وسائل كثيرة، ومن تلك الوسائل: الدعاء والتوجّه بالسؤال إلى الله عزّ وجلّ، وإذا كان كذلك، لم يكن هناك أدنى منافاة بين الدعاء وبين القضاء والقدر.

وأمّا المطلب الثاني:

فللسؤال والدعاء أنواع وأقسام وأنحاء؛ إذ السؤال إمّا بالقول أو بالحال أو بالاستعداد.

فالسؤال بالقول يمكن أن يُجاب ويمكن أن لا يُجاب؛ لأنّه إذا كان السؤال قولاً فقط، بلا حالةٍ وحالٍ لدى السائل، فلا يكون له استعداد لقبول الجواب.

وأمّا إذا كان السؤال بلسان الحال، فهو بدوره يمكن أن يصير مقروناً بالإجابة.

وأمّا المرحلة الثالثة، فهي السؤال بلسان الاستعداد، والدعاء بلسان الاستعداد، وهذا النحو من الدعاء مجاب قطعاً؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى إذا أعطى الاستعداد فإنّه يُجيب هذا الاستعداد قطعاً، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[إبراهيم: ٣٤]، يعني: إذا كان السؤال بلسان الاستعداد، وبلسان الحكمة والاقتضاء، فإنّ الله سبحانه يراعي الحكمة ويراعي الاقتضاء ويُجيب ذلك السؤال.

فتحصّل: أنّ السؤال إمّا بلسان القول أو بلسان الحال أو بلسان الاستعداد، والمهمّ هو الثالث. أي: الدعاء بلسان الاستعداد. فالسؤال أمر عباديّ ملحوظ في الإسلام، ملحوظ في الشريعة والمنهاج، وملحوظ بلسان القول والحال والاستعداد، ولكلّ واحد من هذه حكم قد أُشير إليه.

وفي الختام، نسأل الله سبحانه وتعالى، وندعوه، ونتوسّل إليه، أن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يخذل الكفّار والمنافقين، وأن لا يُسلّط على المسلمين من لا يرحمهم، وأن يجعل المسلمين في درعه الحصينة التي يجعل فيها من يريد. اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد.

* * *

الهوامش:

(١) نلفت النظر هنا إِلَى أنَّ هذا المقال كان عبارة عن كلمة مسجّلة أرسلها سماحته إِلَى مؤتمر بعنوان: (الدعاء في الأديان السماوية)؛ فلأجل ذلك أبدى سماحته في بداية كلمته موقفه من تعدُّد الأديان السماوية؛ ليدلل من خلال ذلك على المسامحة الموجودة في عنوان المؤتمر. (التحرير).

علاقة الإنسان بأخيه الإنسان
على ضوء دعاء مكارم الأخلاق

□ **الشّيْخ معين دقيق العاملي**

تمهيد

بعد مرتبة النّأي، ومروراً بعذاب الهجر، ووصولاً إلى ساحة الإنابة، يُسمح للعبد أنْ يقف أمام باب الرّحمة؛ ليقرعه بيد الرجاء، ويردّد مع أمير البيان قائلاً: «**إِلَهِي قَرَعْتُ بَابَ رَحْمَتِكَ بِيَدِ رَجَائِي، وَهَرَبْتُ إِلَيْكَ لَاجِئاً مِنْ فَرْطِ أَهْوَائِي، وَعَلَّقْتُ بِأَطْرَافِ حِبَالِكَ أَنَامِلَ وَلَائِي**»[1].

بعد هذه الصولة والجولة مع أعداء العبودية:

إنّي بليت بأربع ما سُلطت إلَّا لأجل شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلُّهم أعدائي
إبليس يسلك في طريق مهالكي والنفس تأمرني بكلّ بلائي
وأرى الهوى تدعو إليه خواطري في ظلمة الشبهات والآراء
وزخارف الدنيا تقول أما ترى حسني وفخرَ ملابسي وبهائي[2]

حينئذٍ يُفتح الباب، فيتقدّم العبد بشوق اللّقاء، وتنهيدة الاستجداء... في هذه الخلوة يأتي ذلك المفهوم المسمّى بـ (الدعاء)؛ لتخرج الكلمات من قلبٍ

مطمئنٌ بالاستجابة، ولو بعد حين، وعلى قاعدة «**لَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي**».

ولأهمّيّة هذا المفهوم أكّد عليه القرآن الكريم، واعتنت به سنّة سيّد المرسلين، وأوصى به الأئمة الميامين صلوات الله عليهم أجمعين، ودأب عليه الأولياء والصالحون.

عناية الإمام السجاد عليه السلام بالدعاء

وقد برزت هذه العناية والاهتمام بأبهى صورها في حياة الإمام السجاد عليه السلام، الإمام الرابع من أئمّة أهل البيت ^ . ويعود السبب في ذلك إلى أمرين رئيسين، أحدهما: يرجع إلى عاملٍ ذاتي، والآخر يرجع إلى عامل خارجيٍّ ينشأ من الظروف الحاكمة في عصره.

أمّا الأوّل، فإنّه يكمن في أهميّة الدعاء في حدّ ذاته، ومع قطع النظر عن الظروف الخارجة عن حقيقته؛ فإنّه لولا هذه الأهمية الذاتية للدعاء لما كانت تلك الظروف قادرة لوحدها على أن تجعل الدعاء وسيلة ناجعة لتحقيق الأهداف المتناسبة مع تلك الظروف.

ويكفينا للتدليل على تلك الأهمية استعراض بعض النصوص:

ـ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. فهذه الآية تدلُّ بوضوح لا غبار عليه أهمية الدعاء في حياة الإنسان، فإنّ اهتمام الباري بعباده رهنٌ بدعائهم، وتضرعهم، ومناجاته. وليس ذلك إلّا لأنّ عبودية العبد لا تظهر إلّا بتوجهه إلَى ربّه، وندائه إياه، والطلب منه.

ـ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. الآية تدعو إلى الدعاء وتعد بالإجابة

وتزيد على ذلك حيث تسمي الدعاء عبادة بقولها: عَنْ عِبادَتِي أي عن دعائي، بل تجعل مطلق العبادة دعاء حيث إنها تشتمل الوعيد على ترك الدعاء بالنار والوعيد بالنار إنما هو على ترك العبادة رأساً لا على ترك بعض أقسامه دون بعض، فأصل العبادة دعاء، فافهم ذلك[٣].

ـ وفي الخبر عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهعليه السلام، قَالَ: «**قَالَ لِي يَا مُيَسِّرُ ادْعُ وَلَا تَقُلْ إِنَّ الْأَمْرَ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ إِنَّ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْزِلَةً لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ وَلَوْ أَنَّ عَبْداً سَدَّ فَاهُ وَلَمْ يَسْأَلْ لَمْ يُعْطَ شَيْئاً فَسَلْ تُعْطَ يَا مُيَسِّرُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَابٍ يُقْرَعُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ**»[٤].

وأمّا الأمر الثاني، فهو يكمن في الظروف التي كانت سائدة في زمن الإمام السجادعليه السلام، ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى نقطتين:

الأوّلى: إنّ الإمامعليه السلام ـ وكما هو معلوم ـ عاش في أحلك الظروف بعد واقعة الطفّ واستشهاد أبيهعليه السلام والثلّة المؤمنة من أهل بيته وأصحابه، وكانت الرقابة على ما تبقّى من العترة الطاهرة من قبل بني أُميّة وأوليائهم على المدينة على أشدّها.

الثانية: إنّ بني أُميّة ـ وبعد سيطرتهم على مقدرات البلاد والعباد ـ جدّوا في إشاعة الفساد، وتمييع المجتمع، وترويج الترف واللهو[٥]، والمراجعة السريعة لكتب السيرة والتاريخ تورث الجزم السريع بهذا الأمر.

والنقطة الثانية منهما ـ كما هو واضح ـ بحاجةٍ إلى مواجهةٍ للواقع الفاسد، وممارسةٍ لدور التوعية والوعظ والإرشاد من قِبَلِ حجّة الله في أرضه، المتمثّلة آنذاك بالإمام السجادعليه السلام، ولكنّ هذا الدور لمّا كان بحاجةٍ إلى حريّةٍ واسعة لصاحبه في تطبيق قِيَمه وأدواته ووسائله التوعوية والإرشادية، فيتصادم مع الأمر الأوّل؛ نتيجةٍ لكون الرقابة والتشديد لا يسمحان بحركةٍ واسعةٍ في

ممارسة دور التوعية والإرشاد.

ولكنّ الإمامعليه السلام لم يعدم الوسيلة الناجعة لإيصال رسالته إلى الأمّة مع المحافظة على حياته ومسؤوليته، وحياة الثلّة الصالحة من الملتفين حوله، وهذه الوسيلة كانت عبر تطويع دور الدعاء، من خلال إخراجه من مجرّد طقوس وعبادة يقوم بها الداعي بطريقةٍ فردية، إلى كونه مدرسة سيّارة، محمّلة بالمفاهيم العقدية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية في أبهى صورها، وأجمل مظاهرها التي تأخذ بمجامع النفوس، وتلهب القلوب العطشى شوقاً إلى تحقيقها.

وعليه، فالتزام الإمامعليه السلام بهذه العبادة (الدعاء)، وبهذا الشكل من السعة والإصرار والإعلان، لم يكن عفويّاً، ولا عن غير قصد وهدف، ولا لمجرّد حاجةٍ شخصيّة، وموقفٍ خاصّ، بل كان حركةً تصحيحية، وتدبيراً اجتماعياً ودينياً مسؤولاً.

إشكاليّة البحث وأهمّيّة الموضوع

لمّا كانت أدعية الإمام السجادعليه السلام قد جاءت لأهداف دينيةٍ وتربويةٍ وأخلاقية واجتماعية، فمن المهمّ جداً أنْ يتمّ تدارس هذه الأدعية والبحث في مضامينها وأهدافها، لاستلهام المعارف الحقّة والقيم الصحيحة منها، مضافاً إلى المواظبة على قراءتها والتعبّد بها، هذا على وجه العموم.

ومن جهةٍ خاصةٍ نجد أنّ الأهداف التربوية والأخلاقية والاجتماعية تبرز في بعض الأدعية أكثر من غيرها، والذي يدلّل على ذلك أحد أمرين: العنوان والمضمون.

وهذان الأمران قد اجتمعا بوضوحٍ في الدعاء الذي نتناوله على طاولة البحث والتحقيق؛ إذ لا يخفى ما لعنوان: (مكارم الأخلاق) من المداليل في

الأبعاد التربوية والأخلاقية والاجتماعية.

وأمّا المضمون فهذا ما سوف نثبته من خلال تناولنا لفقرات هذا الدعاء بالتفصيل، بل المراجعة السريعة لمقاطع هذا الدعاء تشهد بالبعد الاجتماعي والتربوي والأخلاقي البارز فيه.

هذا، والسؤال الأساس الذي نسعى إلى كون هذا البحث جواباً عنه عبارة عن:

ما هي الأبعاد التربوية والأخلاقية والاجتماعية ـ التي تصبّ في خانة علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ـ المستفادة من فقرات دعاء مكارم الأخلاق؟

جولة تصنيفية مختصرة في مقاطع الدعاء

الدعاء الذي نحن بصدد تناوله بحثاً وتنقيباً اشتهر بين الناس باسم دعاء (مكارم الأخلاق)، وهذه التسمية جاءت مِمّا جاء في عنوان رواية هذا الدعاء، وهو: «**وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَرْضِيِّ الْأَفْعَال**».

هذا، ويمكن تلخيص فقرات هذا الدعاء المبارك في ضمن العناوين التالية:

١) طلب الإيمان واليقين، وأحسن النيات والأعمال.

٢) طلب تصحيح ما هو موجود من الإيمان واليقين والنية والعمل.

٣) طلب توجيه الطاقة، والتفرّغ للأهداف السامية التي لأجلها خُلِق الإنسان، التي منها العبادة الخالصة عن العجب، وخدمة الناس بالخير، والتخلّق بمعالي الأخلاق.

٤) طلب التواضع.

٥) طلب العمر المملوء بالهداية، وطاعة الخالق تبارك وتعالى.

٦) طلب إصلاح النفس، ورفع الصفات السيِّئة التي تشدّ الإنسان نحو

الحضيض.

٧) طلب إصلاح ما بينه وبين الناس بإبدال البغض إلى المحبة، والحسد إلى المودة، والتهمة إلى الثقة، والعداوة إلى الولاية، والعقوق إلى المبرّة، والخذلان إلى النصرة... الخ.

٨) وفي مقابل ما تقدّم يطلب النصرة على الظالم، والحجّة على الخصم... إلخ، والتوفيق لطاعة المسدد، ومتابعة المرشد.

٩) طلب التسديد لمبادلة صاحب سوء الخلق بالخلق الجميل، من قبيل مواجهة من يغشه بالنصح، ومجازاة من يهجره بالبرّ... الخ.

١٠) طلب التزيّن والتحلّي بصفات الصالحين والمتقين في ضمن صفاتٍ إنسانية واجتماعية واضحة.

١١) طلب الرزق والقوة في وقت الحاجة.

١٢) طلب الاعتماد على الله تعالى في الأوقات الحساسة.

١٣) التمني على الله بأنْ يبدل وسوسة الشيطان في ارتكاب الأخلاق القبيحة والصفات السيئة، بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة.

١٤) التأكيد على أنْ لا يكون مظلوماً مع قدرة الباري على نصرته، وعدم السيرة في طريق الضلالة مع وجود هداية الله تعالى... الخ.

١٥) التذلل إلى الله والمسكنة في محضره، والأمل به والاتكال عليه، بعباراتٍ متنوعة تدلّ على ذلك.

١٦) طلب الهداية إلى التقوى في الأقوال والأفعال، بحيث يصبح سائراً على الطريقة المثلى، وتكون حياته ومماته على الملّة التي ارتضاها الله لعباده.

١٧) طلب بحبوحة العيش في اقتصاد، والتسديد في المعاش، وأنْ يكون من أعلام الرشاد، ليترتب على ذلك الفوز بالمعاد.

١٨) يضع نفسه في خدمة الباري يتصرّف بها، بأنْ يخلّصها من الشوائب، ويُبقي فيها ما يصلحها.

١٩) الاعترف بأنّ الملجأ في كلّ الأمور هو الله سبحانه وتعالى.

٢٠) طلب التمسّك بلطف الله ونعمه وكرمه وصنيعه وذراه ورضاه، لدرء الشرور والتغذية والإصلاح، و... .

٢١) طلب الاكتفاء في النعم، وعدم الفتنة بالتوسعة، وسهولة العيش في هداية وولاية.

٢٢) طلب أن ينعم في حياةٍ خاليةٍ من السرف، ومحصّنة من التلف، وإحلال البركة في الرزق.

٢٣) طلب أنْ يكفيه مؤنة الاكتساب؛ لكي لا يشتغل بالطلب عن عبادة الله تعالى.

٢٤) التمسّك بقدرة الله وعزّته للتوفيق لما يطلب ويريد، وأنْ يُجيره مِمّا يخاف ويرهب.

٢٥) أنْ يصون وجهه عن كلفة السؤال باليسار...

٢٦) أنْ يرزقه الصحة لأجل التمكن من العبادة، والفراغ عن أمور الدنيا ليكون في سلك الزهادة، والعلم المثمر، والورع في إجمال.

٢٧) أنْ تختم حياته مع عفو الله عنه، وتتحقق آماله وأمنياته في رضا من الله تعالى.

٢٨) أنْ يكون من المتنبهين في أوقات الغفلة، ومن المطيعين في أيام المهلة، وأنْ يتوصّل بالطرق السهلة إلى محبة الله تعالى.

٢٩) الاختتام بالصلاة على محمدٍ وآل محمد، الذي كان ملازماً لغالب فقرات الدعاء، وأن تكون الدنيا على الحسنة، والآخرة على الوقاية من

عذاب النار.

دعاء (مكارم الأخلاق) مظهرٌ للتزاوج بين علاقتين

الملفت للنظر في هذا الدعاء الشريف أنّه زاوج من خلال فقراته المتعددة بين أمرين، بحيث يُفهم ـ بشكلٍ واضح ـ أنّ تكامل الإنسان في المراتب المعنوية، وعروجه في مسالك العبودية، لا يتمّ إلّا من خلال تكامله في كلا الأمرين معاً، فلو انفرد الإنسان بأحدهما فلا يصل إلى مرتبة العبودية الكاملة لله تعالى، التي هي الغرض الأساس من خلقته على ما يُستفاد من قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، واشتماله عليهما معاً له مراتب بحسبها تتكامل عبوديته أيضاً، بمعنى أنّ العبودية الحقّة لله تعالى كما هي من المفاهيم التشكيكية التي تختلف مرتبة وقرباً وبعداً، كذلك التحلّي بهذين الأمرين من المفاهيم التشكيكية.

وهذان الأمران هما:

- ✓ **الإيمان بالله وتهذيب النفس، وما يلحق ذلك من الصفات الجوانحية.**
- ✓ **الخدمة لعيال الله، وتنمية الإنسان لعلاقته مع أخيه الإنسان.**

وقبل استعراض التزاوج بين هذين الأمرين في دعاء (مكارم الأخلاق) أُريد أنْ أدلّل على أنّ هذا التزاوج بين الأمرين لم يكن مجرّد لمحةٍ عابرةٍ في هذا الدعاء، بل هو من المفاهيم القيمية المركّز عليها في النصوص الدينية كتاباً وسنّةً، وتسليط الضوء عليها لا يحتاج إلى مزيد جهدٍ علميٍ وفكري، ولكنّها على الرغم من ذلك خفيت على الكثيرين، بل من خلال عدم الالتفات إليها فهم الكثير من الناس الدينَ بطريقةٍ خاطئة، وعكسوا فهمهم للدين للآخر غير المتدين بأنّ الدين يدعو إلى الإرهاب، والقسوة، وتكفير كلّ ما يُسمّى غيراً، ولا يشاركهم

مجموعة القيم التي يؤمنون بها. وهذه ظاهرةٌ ابتليت بها الأُمة في العقود الأخيرة من القرن المنصرم وما زال الأمر إلى وقتنا الحاضر. فنتج عن هذا الفهم الخاطئ للدين فرقٌ تكفيرية، مارست القسوة والإرهاب، ولم يسلم عن قسوتهم وإرهابهم حتى إخوانهم في الدين والمذهب الواحد.

ويكفينا لفهم هذا التزاوج بين الأمرين النظر السريع إلى ذلك الكمّ الهائل من الأحاديث التي علّقت الإيمان بالله واليوم الآخر على قيام المكلّف بفعلٍ من الأفعال. ولو تأمّلنا هذه الأفعال التي عُلِّق عليها الإيمان بالمبدأ والمعاد لوجدنا معظمها لولا الكُلّ ممّا يرتبط بأمرٍ اجتماعيٍّ إنسانيّ.

وهذه ظاهرة ـ باعتقادي ـ تحتاج إلى قراءةٍ متأنّيةٍ ودراسةٍ معمّقة، يمكن أن تكون سبباً للكشف عن نظريّةٍ إسلاميّةٍ تكون سبّاقة في بابها لكلّ النظم والقوانين الوضعيّة التي تدعو إلى جعل القيمة للإنسان على أساس ما يملك من إنسانيّة وعاطفةٍ جيّاشةٍ تجاه خلق الله تبارك وتعالى.

وإليك بعض النصوص التي تُشير إلى هذه الحقيقة:

ـ روى الحسين بن سعيد الأهوازي، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن النَّبيِّ صلى الله عليه وآله: «**مَنْ كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخر، فلا يجلس في مجلسٍ يُسَبُّ فيه إمامٌ، أو يُغتاب فيه مسلم؛ إنَّ الله عز وجل يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [الأنعام: ٦٨]»[٦]. ومحلّ الشاهد فيه تعليق الإيمان بالمبدأ والمعاد على ترك المشاركة في اغتياب المسلم.

ـ روى محمّد بن جرير الطبري بإسناده إلى ابن مسعود، قال: «جاء رجلٌ إلى فاطمة عليها السلام، فقال: يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله! هل ترك رسول الله عندك شيئاً تطرفينيه[٧]؟ فقالت: يا جارية! هاتِ تلك الحريرة. فطلبتها فلم تجدها، فقالت:

ويحك! اطلبيها، فإنّها تعدل عندي حسناً وحسيناً. فطلبتها، فإذا هي قد قمّمتها في قمامتها، فإذا فيها: قال محمّد النبيّ صلى الله عليه وآله: **ليس من المؤمنين مَنْ لم يأمن جاره بوائقه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت. إنّ الله يحبّ الخيّر الحليم المتعفّف، ويبغض الفاحش الضنين السائل الملحف.إنّ الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنّة، وإنّ الفحش من البذاء، والبذّاء في النار**»[٨].

ـ وفي الصحيح عن شعيب العقرقوفي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد**»[٩].

ـ وفي الخبر عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يستعملنّ أجيراً حتّى يعلمه ما أَجْره...**»[١٠].

ـ روى زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ممّا علّم رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام أنْ قال لها: «**مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[١١].

ـ رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال لأصحابه: «**ما آمن بالله واليوم الآخر مَنْ بات شبعاناً وجاره جائعٌ...**»[١٢].

وكما لاحظنا في هذه النصوص وفي غيرها قد ارتبط الإيمان بالله واليوم الآخر بأُمور:

منها: ترك المشاركة في اغتياب المسلم ونهش عرضه.

ومنها: كفّ الأذى عن الناس، وحفظ اللّسان معهم، والجار يمثّل المصداق الأَلصق لهذه المعاملة، وللمبالغة كانت الحريرة التي تحوي مثل هذه التعاليم تعدل عند بنت المصطفى عليها السلام حسناً وحسيناً ‘ .

ومنها: أنْ يفي الإنسان بالتزاماته ووعوده تجاه بني جنسه أفراداً وجماعات.

ومنها: المحافظة على اليد العاملة؛ بعدم إِضاعة حقوقها، ولو كانت إضاعة هذا الحق بأمرٍ يعدّه العرف تجاوزاً بسيطاً ربما لا يلتفت إليه، كأنْ لا يقاطع على أجرة العمل قبل الشروع فيه.

ومنها: إكرام الضيف لأجل توطيد العلاقة الطيّبة بين أفراد المجتمع الإنساني، كما تدلّ على ذلك إطلاق كلمة الضيف وعدم تقييدها بالمسلم أو المؤمن.

ومنها: الشعور بمرارة عيش الآخرين، ومشاركتهم في مصائبهم، والتخفيف عنهم، ذلك الذي يمثّل الإطعام واحداً من صوره البارزة.

وكلّ هذه الأمور التي ذُكِرت ـ والتي كما لاحظنا ترجع إلى البعد الاجتماعي والعاطفي في ارتباط الإنسان بأخيه الإنسان ـ تعادل الإيمان بالمبدأ والمعاد؛ ممّا يدلّل على أهمّيّة العلاقة الاجتماعيّة التي يُعبّر عنها بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وأنّها لا تقلّ عن العلاقة بين الإنسان وخالقه.

والذي نرمي إليه بصراحةٍ من خلال استعراضنا لهذه الأحاديث الشريفة أنّ الدين والتديّن ليس هو محض طقوس خاصّةٍ بين العبد وربّه، وليس هو مجرّد كثرة صلاةٍ وصيامٍ وإسدالٍ للّحى وتشميرٍ للثياب وما شاكل ذلك من المظاهر، إلّا بقدر ما ينعكس ذلك على خلق الله الذين ورد في الحديث أنّهم عياله، وأنّ أحبّ الناس إلى الله أشفقهم على عياله، وأنفعه لهم[١٣].

ورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خصلتان ليس فوقهما من البرّ شَيْءٌ: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله. وخصلتان ليس فوقهما من الشرّ شَيْءٌ: الشرك بالله، والضرّ لعباد الله**»[١٤].

إذا اتضح ما قصدته من التزاوج بين العلاقتين: علاقة الإنسان بربّه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، فلنرجع إلى دعاء (مكارم الأخلاق) لاستخراج ذلك من فقراته المباركة، وأكتفي في هذا المجال بذكر الشواهد التالية:

الشاهد الأوّل: يستهلّ الإمام عليه السلام هذا الدعاء الشريف بطلب أُمور ترتبط بأفعال الجوانح، وتصبّ في خانة الإيمان بالله تعالى، والعروج في مراتب معرفته، فيقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَبَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي**

أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلى أَحْسَنِ النِّيَّاتِ... اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتِي، وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي».

ومن المعلوم أنّ هذه الأُمور المرتبطة بأفعال الجوانح التي طلبها الإمام عليه السلام ـ من قبيل الإيمان بالله، وبلوغ الكمال فيه، وحصول اليقين فيما يرتبط بالأُمور العقدية، والوصول إلى مرحلة خلوص النِّية ـ كل هذا يعتبر ركيزةً لأعمال الجوارح، والذي يطلق عليه في النصوص الدينية بالعمل الصالح.

ولأجل ذلك نرى أنّ الإمام عليه السلام انطلق من هذه المطالب إلى قوله: «**وَاسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ، وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكِبْرِ، وَعَبِّدْنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيْرَ وَلَا تَمْحَقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ**».

فالإنسان لا يطلب من الله تعالى أنْ يجعله مفرّغاً نفسه للأهداف التي خلقه لها إلّا إذا تكامل في درجات الإيمان واليقين.

فمن دون أن يؤمن العبد بخالقٍ حكيمٍ هادفٍ، ويصل هذا الإيمان إلى يقين يمتزج بلحم العبد ودمه، لا يتمنّى على ربّه أنْ يفرّغه في أوقاته لخدمة الأهداف السامية التي خلقه لأجله.

وبما أنّ تحقيق هذه الأهداف والتفرّغ لها بحاجةٍ إلى وسائل وعوامل مساعدة، يأتي على رأسها العامل الاقتصادي، نسمع الإمام عليه السلام يترنّم بقوله: «**وَأَغْنِنِي وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ**»؛ إذ لا يخفى أنّ الإنسان إذا ابتلي بديمومة البحث عن رزقه، ولم يُلطَف به من قِبل خالقه، سوف لن يتمكّن من التّفرّغ لتحقيق أهداف الخلقة، فطلب الغنى والسعة في الرزق في هذاالمقطع من الدعاء، لم يكن من مصاديق الأهداف، بل هو من العوامل المساعدة.

أو فقل: إنّ الفقر لمّا كان من موانع التفرّغ لتحقيق الأهداف السامية، طلب

الإمام عليه السلام رفعَ هذا المانع من الطريق.

وأمّا ما يأتي في سياق «**فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ**» فهو قوله: «**وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيْرَ**». فالإمام عليه السلام يطلب من ربّه أنْ يفرّغه لخدمة الناس، وتحقيق الخير والسعادة لهم.

والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام استعمل مفردة (النّاس) الشاملة لكُلّ إنسانٍ خلقه الله تعالى، مهما كانت عقيدته، وتوجهاته، وانتماءاته، ولم يستعمل مفردة (المسلم) أو (المؤمن)، وليس ذلك إلّا للتدليل على أنّ إنسانية الإنسان، وإيمانه بربّه تعالى، وبلوغه مرتبة اليقين لا تكون تامّة إلّا إذا خرجت من القلب أشعة خير للخلق كلّ الخلق.

وما في هذا الشاهد هو ما رامته الآية المباركة في سورة البقرة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾، فنلاحظ أنّه جمع بين الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين وبين إتيان المال ذوي القربى واليتامى والمساكين والصلاة والزكاة والوفاء بالعهد.. ليتشكّل بذلك البرّ الكامل.

الشاهد الثاني: في مقطعٍ آخرٍ من هذا الدعاء الشريف يستهلّه الإمام عليه السلام بمطالب ترتبط بتهذيب النفس، ثمّ يثنّي ذلك ببذل العمر في سبيل طاعة الله، لينطلق من خلال ذلك إلى ذكر مجموعةٍ من السجايا العملية، فيختمها بسجايا إنسانية، لو تحلّى بها كُلّ فردٍ من أفراد المجتمع لعمّ الصلاح في ربوعه، وانتشر العيش الرغيد في أرجائه، وأصبحنا مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا

﴿كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ففي الفقرة الأُولى يقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَتِّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لَا أَشُكُّ فِيهَا**».

فصلاح المجتمع يبدأ من الذات، من تهذيب هذه النفس التي نحملها بين جنبينا، وتهذيبها يبدأ بالهداية، وهذه الهداية تحصل بتلقي القلب لنور الإيمان، وإذا شعّ نور الإيمان على قلب سارعت إلى العمل أركانه.

ولا بدّ لهذه الهداية من ديمومةٍ واستمرار وعدم استبدال بضدها، وإلّا فإنّ الهداية الآنية لن توصل النفس إلى شطّ أمانها، ولن تأخذ بيد المجتمع إلى برّ سلامه؛ فإنّ انغراس بذرة الإيمان (الهداية) في وعاء الرحمن (القلب) قد لا يكفي لصيرورتها ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقد قال الشاعر:

مَا سُمِّيَ القَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ... فَاحْذَرْ عَلَى القَلْبِ مِنْ قَلْب وَتَحْوِيل[١٥]

وقد ورد في الخبر عن النبيّ ' قوله: «**مثل القلب كريشةٍ بأرض فلاة، تقلّبها الرياح ظهراً لبطن**»[١٦].

ومن هذا المنطلق لم يطلب الإمام السجاد عليه السلام مجرّد الهداية، بل قال: «**وَمَتِّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ**».

ولكي يستمرّ هذا الشعاع الإيماني يحتاج العبد إلى ركنين:

أحدهما: طريق الحق، وهو الطريق الثابت المسمّى بـ: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾؛ لأنّ الهداية إلى نور الإيمان لا تكون مستمرة إذا لم يجد العبد طريقاً واضحاً يسير فيه؛ لكي يتّصل بعد ذلك بعالم الآخرة عبر هذا الطريق، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

ثانيهما: اليقين ونيّة الرشد؛ وذلك لأنّ السائر على الطريق لكي لا يكبو في

الأثناء يحتاج إلى أن يخلع ثوب الشكّ، ويتلبّس بلباس اليقين.

وهذان الركنان هما المشار إليهما في قوله: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمَتِّعْنِي بِهُدًى صَالِحٍ لَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ، وَطَرِيقَةِ حَقٍّ لَا أَزِيغُ عَنْهَا، وَنِيَّةِ رُشْدٍ لَا أَشُكُّ فِيهَا**».

وبعد الاستقامة والصلابة في السعي في طريق الحق يحصل العبد السالك على حصانةٍ تامّة، وينطلق من النفس المرتبطة بالخالق بعد إصلاحها ليلتفت إلى الخلق. وهنا يأتي دور الفقرة الثانية التي يقول فيها عليه السلام: «**وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَآنِ الْمَحَبَّةَ، وَ مِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ، وَمِنْ ظِنَّةِ أَهْلِ الصَّلَاحِ الثِّقَةَ، وَمِنْ عَدَاوَةِ الْأَدْنَيْنَ الْوَلَايَةَ، وَمِنْ عُقُوقِ ذَوِي الْأَرْحَامِ الْمَبَرَّةَ، وَمِنْ خِذْلَانِ الْأَقْرَبِينَ النُّصْرَةَ، وَ مِنْ حُبِّ الْمُدَارِينَ تَصْحِيحَ الْمِقَةِ، وَمِنْ رَدِّ الْمُلَابِسِينَ كَرَمَ الْعِشْرَةِ، وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةَ الْأَمَنَةِ**».

ومرجع ما طلبه عليه السلام في هذا المقطع إلى تصحيح ما بينه وبين الناس، فلو أنّ كلّ فردٍ منّا سعى لتنمية العلاقة بينه وبين الناس وتقويتها على الركائز الآتية لصلح المجتمع، وعاش الناس في أمن وطمأنينة، يستطيعون حينئذ أن يتفرّغوا لتحقيق أهداف الخلقة التي تقتضيها حكمة الباري عزّ وجل وعدم العبثية، وهذه الركائز يمكن تلخيصها في ضمن ما يلي:

ـ المحبّة بدل البغض؛ فإنّ المبغوض والمكروه من قبل الغير لو دعا الله بقلبٍ خالص بأنْ يُبدِل بغضهم محبّة، وهو بدوره بادر إلى محبّة مَنْ يبغضه؛ لأنّ الداعي من دون عملٍ لا يصل إلى مبتغاه، فإنّه سرعان ما يخجل صاحب الشنآن من نفسه ويبادل الآخر محبّته.

ـ المودّة مكان الحسد؛ الحسد تلك الصّفة النارية التي تأكل نفس صاحبها بعد أن تأكل إيمانه. فإذا سعى المحسود أنْ يخرج هذه الرذيلة من نفس صاحبها فإنّ ذلك سوف يؤدي إلى خلاص الحاسد من جهةٍ، وإلى نجاة المحسود لأنّ

الحاسد أصبح من مريديه الذين يودّونه.

ـ أنْ يُصبح الإنسان موثوقاً عند أهل الصلاح، ولا يخفى ما لهذه الركيزة من أثر فعّال على إيجاد روح الطمأنية والأمن في المجتمع.

ـ أنْ يستبدل عداوة المقربين بولايتهم، وعقوق الأرحام بمبرتهم، وخذلان الأقربين بنصرتهم؛ ليصبح الجميع من خلال ذلك من أهل الفضل، كما في الخبر المروي عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، قَالَ: «**سَمِعْتُهُ يَقُولُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَمَعَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ؟ قَالَ: فَيَقُومُ عُنُقٌ مِنَ النَّاسِ فَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ وَمَا كَانَ فَضْلُكُمْ فَيَقُولُونَ كُنَّا نَصِلُ مَنْ قَطَعَنَا وَنُعْطِي مَنْ حَرَمَنَا وَنَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَنَا قَالَ فَيُقَالُ لَهُمْ صَدَقْتُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**»[17].

ـ ويأتي تتويجاً لهذه القواعد المتقدّمة قوله: «**وَمِنْ مَرَارَةِ خَوْفِ الظَّالِمِينَ حَلَاوَةَ الْأَمَنَةِ**»؛ فإنّ الغاية من بعثة الأنبياء، والتي هي سيادة العدالة والقسط في المجتمع، على ما يُستفاد من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، هذه الغاية لا تتحقّق إلّا في ظلّ أجواء الأمن والطمأنية. فإذا تبدّلت النفوس من حالة الخوف والذعر من جوّ الاستبداد والظلم، إلى حالة الأمن والاطمئنان، فحينئذٍ ستتحقّق إرادة الله تعالى بسيادة القسط والعدل في المجتمع البشري.

الشاهد الثالث: يتابع الإمام عليه السلام في هذا الشاهد رسم معالم العلاقة الإنسانية بأبهى صورها، من خلال مناجاة الله تبارك وتعالى والحديث معه؛ ليتكامل ما يريده من التزاوج بين إصلاح الذات وإصلاح المجتمع، فيقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَسَدِّدْنِي لِأَنْ أُعَارِضَ مَنْ غَشَّنِي بِالنُّصْحِ، وَأَجْزِيَ مَنْ هَجَرَنِي بِالْبِرِّ، وَأُثِيبَ مَنْ حَرَمَنِي بِالْبَذْلِ، وَأُكَافِئَ مَنْ قَطَعَنِي بِالصِّلَةِ، وَأُخَالِفَ مَنِ اغْتَابَنِي إِلَى حُسْنِ الذِّكْرِ، وَأَنْ أَشْكُرَ الْحَسَنَةَ، وَأُغْضِيَ عَنِ السَّيِّئَةِ**».

ما أجمل هذا الكلام! وما أروعه! انظر كيف يُريد الإمام عليه السلام من ربِّه تبارك وتعالى أن يُعينه ويسدّده في أن يُعارض السيّئة بالحسنة!

أيّ كمال إنسانيٍّ هذا!

الإسلام الذي يدعو له هذا الإمام الهمام عليه السلام يريد من الأخلاق الإسلاميّة أنْ تسير على خطّ التوازن، وخاصّة فيمن له حقٌّ في تعامله مع الناس، فلا يعني كونك صاحب حقٍّ أن تستفيد من حقّك كيفما تشاء، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال أيضاً: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وفي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قَالَ رَسُولُ الله ' فِي خُطْبَةٍ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدنْيَا وَالْآخِرَةِ الْعَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَالْإِحْسَانُ إلى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَك**»(١٨).

وورد في الخبر عن عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَعْيَنَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «**ثَلَاثٌ مِنْ مَكَارِمِ الدنْيَا وَالْآخِرَةِ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتَحْلُمُ إِذَا جُهِلَ عَلَيْك**»(١٩).

العلاقة الإنسانية لا تكون بأبهى صورها التكاملية إذا كانت تتبلور في إعطاء من أعطاك، وفي وصل من وصلك، وعموماً في مجازاة الحسنة بالحسنة، بل هذه أشبه ما تكون بالعلاقة التجارية، وأنّ الإنسان لا يُعطي إلَّا بمقدار ما يربح، أو بالدقة بأقلّ مِمّا يربح.

وإنّما تتمثّل عمق الأخلاق الإسلامية بأنْ تُعطي في ظرف المقدرة، وفي شرائط تقتضي أنْ تكون أنت مَنْ له حقّ الأخذ، أن تُعطي وتمنح عندما يحرمك الغير ويمنع عنك الخير.

ولا ينبغي أنْ نغفل في المقام عن أنّ هذه التعاليم قد ربطها الباري عزّ وجلّ وأولياؤه بالثواب وعالم الآخرة، كما هو واضح في الآيات والروايات المتقدمة؛

ليتضح لنا من خلال ذلك أنَّ الإسلام يريدنا أنْ نُصلح الدنيا لكونها مزرعةً للآخرة، والمرء لا يقطف ثماراً زكية إلَّا من بذرةٍ زكية.

وفي الختام، ينبغي أنْ ننطلق من أدعية الإمام السجاد زين العابدين عليه أفضل الصلاة والسلام لنربّي أنفسنا على ضوء هذا الخُلُق الإنساني المستفاد من هذه الأدعية المتعددة، ودعاء مكارم الأخلاق بالخصوص...

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...

* * *

الهوامش:

(١) مقطعٌ من دعاء الصباح المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) نقلها العجلوني عن بعضهم في كشف الخفاء ١: ٤٠، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٨.

(٣) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ٢: ٣٤، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم، الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ.

(٤) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٤٦٦، كتاب الدعاء، باب: فضل الدعاء، الحديث: (٤)، تصحيح وتعليق: على أكبر غفاري، الطَّبعة الرَّابعة ١٣٦٥ش، دار الكتب الإسلاميَّة طهران.

(٥) انظر: الجلالي، السَّيِّد محمد رضا، جهاد الإمام السجاد عليه السلام: ١٥٩، نشر: مؤسسة دار الحديث الثقافية، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

(٦) الأهوازي، الحسين بن سعيد، كتاب المؤمن: ٧٠، باب: ما حرّم الله على المؤمن، الحديث: (١٩٢)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام، الطَّبعة الأُولى ١٤٠٤، قم.

(٧) أي: تتحفيني به.

(٨) الطّبري الصَّغير، مُحَمَّد بن جرير بن رستم، دلائل الإمامة: ٦٦، تحقيق: قسم الدّراسات الإسلاميّة في مؤسسة البعثة، الطَّبعة الأُولى ١٤١٣، قم.

(٩) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٣٦٤، كتاب الإيمان والكفر، باب: خلف الوعد، الحديث: الثّاني، تصحيح وتعليق: على أكبر غفاري، الطَّبعة الرَّابعة ١٣٦٥ش، دار الكتب الإسلاميَّة

طهران.

(١٠) المصدر نفسه ٥: ٢٨٩، كتاب المعيشة، باب: كراهة استعمال الأجير قبل مقاطعته على أجرته، الحديث: (٤).

(١١) المصدر نفسه ٦: ٢٨٥، كتاب الأطعمة، باب: حقّ الضَّيف وإكرامه، الحديث الثَّاني.

(١٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٧٤: ١٩١، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(١٣) راجع: الحرّ العاملي،محمّد بن الحسن، وسائل الشّيعة ١٦: ٣٤١، كتاب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، الباب: (٢٢)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطَّبعة الأُولى ١٤١٢، قم. ابن أبي الحديد المعتزلي الشّافعي، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٣٤٠، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مصوّرة عن الطَّبعة الثَّانية ١٣٨٥لدار إحياء الكتب العربيّة، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النَّجفي ١٤٠٤. الحافظ أبو يعلى الموصلي، مسند أبي يعلى ٦: ٦٥، تحقيق: حسين سليم أسد، الطّبعة الثَّانية ١٤١٢، نشر: دار المأمون للتُّراث.

(١٤) تحف العقول لابن شعبة: ٣٥، تصحيح وتعليق: على أكبر الغفاري، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٤، مؤسسة النَّشر الإسلامي التَّابعة لجماعة المدرسين قم.

(١٥) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن ١: ١٨٧، تحقيق وتصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٥م، بيروت.

(١٦) انظر: البغوي، حسين بن مسعود، معالم التنزيل في تفسير القرآن ١: ٤١٤، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، نشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، بيروت. المتقي الهندي، علاء الدين علي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١: ١٥٩، تحقيق: الشَّيْخ بكري حياني، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٧) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٢: ١٠٨، كتاب الإيمان والكفر، باب: العفو، الحديث: (٤)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.

(١٨) الحرّ العاملي،محمّد بن الحسن، وسائل الشّيعة ١٢: ١٧٤، أبواب أحكام العشرة في السفر والحضر، الباب: (١١٣)، الحديث: (١)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، الطَّبعة الأُولى ١٤١٢، قم.

(١٩) المصدر نفسه: الحديث: (٣).

الجماليّة في الصحيفة السجّاديّة

وأصولها في القرآن والحديث والنهج

□ الشّيْخ الدكتور: نبيل الحلباوي(*)

الجماليّة وصف من أوصاف القيم الأسلوبيّة تتحقّق في الفنون، ولا سيّما الأدب بما هو الفنّ الجميل، وقد قصرها بعضهم على المفرد والتركيب والصورة الأدبيّة، ولكنّها تتعدّى ذلك إلى خصائص الموضوعات والمعاني، فتشمل الأسلوب بمعناه؛ إذ يعبّر عن صاحبه، وبتعبير أحدهم (الأسلوب هو الرجل).

ولا يتطاول هذه المقال إلى أكثر من أن يكون مدخلاً إلى دراسة هذه الظاهرة في أجمع كتاب للدعاء أبدعه نجم متألّق من آل محمّد الطيبين وعترته الطاهرين عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم، فكان مدرسةً للإسلام المحمّدي في أُفقه النبوي وامتداده الإماميّ، وبما يستلهمه ويستجيب له من الجمال القرآني.

وسيقتصر بالتالي على رسم الخطوط عريضة لهذه الجماليّة في الصحيفة السجّاديّة تتناول أسسها الإنسانيّة ومصادرها المرجعيّة ومعالمها الفنّيّة مؤيّدةً بالشواهد بما عهد لأبحاث أكثر تفصيلاً وتحليلاً وعمقاً لإحاطةٍ تلمّ بهذه الظاهرة من سائر وجوهها وجوانبها.

(*) دكتوراه أدب عربي، باحث إسلامي/ سوريا.

وعسى أن تكون هذه المساهمة المتواضعة على قصر باعها وضيق اتّساعها تعبيراً عن حبٍّ لجمال معنوي وحسٍّ تعبيري امتاز بهما الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجّاديّة.

ولأنّ المؤمن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه، فهي دعوة إلى النهل من هذا الماء الزلال الفياض بحبّ الجميل المطلق والتوجّه إليه والتعلّق به والتعويل عليه من خلال الدعاء والابتهال استجابة لقوله جلّ جلاله: { قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ }[الفرقان:٧٧].

أوّلاً: الأسس الإنسانيّة

تستند الجماليّة في أدعية الصحيفة السجّاديّة إلى ركائز متينة ودعائم راسخة تضرب في عمق إنسانيّة الإنسان وعلى صعد مختلفة، وأهمّها:

١) **على الصعيد الفلسفي**: المعرفة والتوحيد للجميل في ذاته، مَن كلّه جمال، وهو أصل الجمال، وجمال الجمال، ومنبع كلّ جمال، هذا الجمال الذي كان يناغيه ويناجيه الإمام الصادق عليه السلام في دعاء البهاء بقوله: «**اللّهمّ إني أسألك من جمالك بأجمله، وكلّ جمالك جميل، اللّهمّ إني أسألك بجمالك كلّه**»[1]، ولذا يؤول كلّ حبٍّ إلى حبّه ويندغم فيه: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ }[البقرة:١٦٥].

وجميل في صفاته، فله كلّ صفات الجمال والجلال، وكمال الكمال، كما تعبّر عنه أسماؤه التي قال عنها سبحانه في ذكره الجميل: {وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا }[الأعراف:١٨٠]، { تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِي ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ }[الرحمن:٧٨].

وجميل في فعله، فلا يصدر عنه إلّا الجميل، وبتعبير القرآن الكريم: { ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ }[السجدة:٧].

هذا الجمال المتجلّي تكويناً في عوالم الغيب والشهادة وخلق الملائكة والجنّ والإنس وتسوية السماوات والأرضين وما فيهنّ على أحسن نظام {فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ }[المؤمنون:١٤].

والمتجلّي تدويناً في هذا القرآن الذي قال عنه ربه {ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ }[الزمر:٢٣].

والمتجلّي في هذا الإنسان المعجزة {لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[التين:٤]، والمتجلّي فيما شرّع لهذا الإنسان من منهج هوالأحسن والأجمل والأكرم والأقوم، { وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم }[الزمر:٥٥]، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }[المائدة:٥٠].

والمتجلّي فيما أعدّ لعباده الصالحين من ألوان الجمال الأخروي الخالد { مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ }[الرحمن:٧٦]، { وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ }[الكهف:٨٨]، { أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا }[الفرقان:٢٤].

هذه المعرفة التوحيديّة الجماليّة لله عزّوجلّ أساس ومرتكز ومنبع لهذه الجماليّة التي تغشّي هذه الصحيفة السجّاديّة، ولنستمع إلى طرف من هذه المناجاة الملحقة بالصحيفة، والمسمّاة بمناجاة العارفين:

«إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجمالك، وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك، انحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلّا بالعجز عن معرفتك، إلهي فاجعلنا من الذين ترسّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبّة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرائع المصافاة يَردون»[٢].

هذه المعرفة النظريّة العقليّة القلبيّة، بل الوجوديّة الإنسانيّة تختزن في كلمة

التوحيد التي وصفت في القرآن بالكلمة الطيبة {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم:٢٤ـ٢٥].

وأمّا أكلها فهوالتوحيد العملي الذي يبدأ بالعبادة، إلى الاستعانة {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]، إلى التوكّل {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ} [الطلاق: ٣]، إلى الرجاء {أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ} [البقرة:٢١٨]، إلى الخوف {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ} [الأحزاب:٣٩]، إلى قمّة هذا التوحيد العملي، وهي الحبّ الذي ينبثق منه كلّ حبّ {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ} [البقرة:١٦٥].

ومن دعاء له عليه السلام: «**اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وفرّغ قلبي لمحبّتك واشغله بذكرك...وهب لي الأنس بك**»(٣).

هذا الحبّ الإنساني لله الجميل يتدفّق منه لمحٌ للناس جميعاً وحدب على المخلوقات كلّها وتعاطف مع الكون بأجمعه، وهوما سيظهر من استعراضنا فيما بعد لموضوعات الصحيفة السجّاديّة.

وفي دعاء الإمام عليه السلام عند دخول شهر رمضان: «**اللّهمّ اشحنه بعبادتنا إيّاك، وزيّن أوقاته بطاعتنا لك، وأعنّا في نهاره على صيامه، وفي ليله على صلاته، والتضرّع والخضوع لك، والذلّة بين يديك، حتى لا يشهد نهاره علينا بغفلة، ولا ليله بتفريط، اللّهمّ واجعلنا في سائر اشهور والأيام كذلك ما عمّرتنا، واجعلنا من عبادك الصالحين الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون، والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلى ربهم راجعون، ومن الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**»(٤).

٢) **على الصعيد النفسي**: من الميول الفطرية الإنسانيّة التي تشير إليها الآية القرآنيّة {فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ} [الروم:٣٠]، والتي

لا تتبدّل ولا تتغيّر: الميل إلى الجمال، وقد أشبعه الله بجمال ذاته وصفاته وفعله وتشريعه وثوابه كما أسلفنا، وجعله منطلقاً إلى تذوّق الجمال والتأثّر به وانبثاق لون من ألوان الإبداع البشري المسمّى (الفنّ). ومن هنا كانت التوأمة بين الفنّ والجمال في وصف الفنون بالجميلة.

وكان الأدب من بينها، بما له من حسن وتوفيق في البيان، وجمع بين خصائص الفنون المختلفة، متميّزاً بخصوصيّة نوّه بها الله في سورة الرحمن {ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ} [الرحمن:١ـ٦].

ونلمح في هذا المطلع القرآني الجمال يبدأ من الخالق الموصوف بالرحمن، والرحمة الرحمانيّة من صفات الجمال، ومن أشمل صفات الأفعال، ثمّ ينطلق إلى القرآن المعجزة التكوينيّة الإلهيّة إلى الإنسان المعجزة التكوينية، إلى البيان، بما له من جمال فنّي، إلى الشمس والقمر والنجم والشجر، وهي من معجزات عالم التكوين وتجلّيّات جمال الله في السموات والأرضين.

هذا الميل إلى الجمال يشفعه ميل فطري إلى الحقّ والحقيقة، هو سرّ الاستطلاع والبحث والظفر بالمعرفة بكلّ ألوانها، من فلسفيّة وعمليّة، وفي الحقيقة: جمال وميل فطري إلى الخير، هو منبع الأخلاق والآداب والسير في معارج تهذيب النفس وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل ونفع الناس والخروج من الذات إلى الآخر بذلاً وعطاءاً وتكافلاً، وفي الخير جمال.

والله وحده هوالجميل المطلق، والحقّ المطلق، والخير المطلق { ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ}[الحجّ:٦١]، { فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ}[المؤمنون:١١٦].

ومن هذه الميول الإنسانيّة التي لم تفارق الإنسان خلال تاريخه: الميل

التعبّديّ، ففي داخله ميل إلى أن يعبد قوّةً يستند إليها ويستمدّ منها ويخضع لها ويقوم نحوها بمراسم وشعائر.

وقد يخطئ في تشخيص المصداق، فيعبد نجماً أوشمساً أوقمراً، وقد يمثّل معبوده في نار أوحجر أوتمر، وقد يخضع لفرعون متجبّر مستكبر متربّب، وقد يعبد ما يعتبره ولداً لله، ولكنّ هذا الشعور لا يشبع حقّ إشباعه إلّا بعبادة الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وقد سلّم أعدى أعداء الإيمان بالله بهذه الحقيقة، فهذا (كونت) حين رفض كلّ الفكر الديني والميتافيزيقي وبشّر بعصر العلم لم يستطع إغفال هذا العبد التعبّديّ في الإنسان، ولكنّه جعل المعبود هوالإنسان نفسه، ودعا إلى تشييد معابد لعبادة الإنسان!

ولاشكّ في أنّ هذه الميول لم تكن من صنع الإنسان، بل هي لاتصنع ولا تصطنع، فهي إذاً ممّا أودعه خالق الإنسان فيه ليدلّه على خالقه وربّه وليتعبّد له { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات:٥٦]. ففي الإنسان إذاً حاجة حقيقيّة إلى عبادة ربّه عن وعي واختيار وتناغم مع فطرته ليرقى في معارج إنسانيّته فيكون أجمل ما يكون، أكمل ما يكون.

ومن فقرات بعض أدعية الصحيفة السجّاديّة في هذا السياق:

«أسألك يا ربّ سؤال من لا ربّ له غيرك»..

«الحمد لله على ما عرّفنا من نفسه، وفتح لنا من أبواب العلم بربوبيّته، ودلّنا عليه من الإخلاص له في توحيده»..

«ولو دلّ مخلوق من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك كان موصوفاً بالإحسان ومنعوتاً بالامتنان ومحموداً على كلّ لسان»..

ثانياً: المصادر المرجعيّة:

أ) القرآن الكريم:

لم ينزل الله الجميل قرآنه الجميل على مصطفاه الجميل إلّا ليجعله مصدر المصادر في فكر الإنسان وحياته وعلاقاته، آية ذلك: أنّ الدعاء، وهو الحبل الصاعد من العبد إلى ربه رسمت له نماذج في القرآن ليقتدي بها الداعي في دعائه، ومنها: {فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ }[يوسف:١٠١]، {رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ }[النمل:١٩]، { وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ }[البقرة:٢٠١]، { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ }[آل عمران:٨]، { رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ }[إبراهيم:٤١].

ويظهر تأثّر الإمام السجّاد عليه السلام بالقرآن الكريم بصور عديدة منها:

١) أنه يرتشف من معين هذا الجمال الثرّ على صعيد الموضوعات والمعاني والمفردات التركيبات.

٢) أنّه يوشّح أدعيته بالعديد من الآيات، كما في دعاء وداع شهر رمضان، الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، فقد عطّره وزاده حُسناً وجمالاً بالاستشهاد بثماني آيات قرآنية.

٣) أنّه يتعامل مع الآيات القرآنية ألطف معاملة ويوظّفها دعائيّاً، كما في قوله من دعاء التوبة: «**أنت الذي فتحت لعبادك باباً إلى عفوك، وسمّيته التوبة، وجعلت على ذلك الباب دليلاً من وحيك لئلّا يضلّوا عنه، فقلت تبارك اسمك** {تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ } [التحريم:٨]»[٥].

٤) أنّه يخصّص لختم القرآن دعاءاً يقول فيه: «**اللّهمّ إنّك أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلته نوراً، وجعلته مهيمناً على كلّ كتابٍ أنزلته وفضّلته على كلّ حديث قصصته، وفرقاناً فرّقت به بين حلالك وحرامك، وقرآناً أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتاباً فصّلته لعبادك تفصيلاً، ووحياً أنزلته على نبيّك محمّد صلواتك عليه وآله**»[٦].

ب) المدرسة النبويّة:

محمّد ' الذي قال فيه ربّه { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ } [الأنبياء: ١٠٧]، افتتح أعظم مدرسة لتعليم الإنسانيّة الحقة التي تختار خط الاحتياج إلى الله والمسير إليه والعلاقة به واللوذ بمعيّته، بعد أن فَهِمت وأُفهمتْ أنّ قوام أمر كلّ مخلوق أنه احتياج إلى ربّه، لينطلق الإنسان منسجماً مع الكون المسبّح بحمد الله على المنهج الأجمل الذي يتزاوج فيه الجسد والروح، والدنيا والآخرة، والفرديّ والجماعيّ، والمادّي والمجرّد، والشهود والغيب، والملك والملكوت، وما قائد مسيرة الكون التسبيحية والتجسيد الأكمل لذلك المنهج إلّا أجمل الخلق محمّد، وهوفي ذاته وصفاته وأفعاله أفضل وأجمل تجلٍّ للجميل المطلق الذي يقدّمه في القرآن في منغومة عاشقة محبة يدعو المؤمنين إلى الانضمام إليها في قوله تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا } [الأحزاب:٥٦].

ومحمّد ' هو الجميل في بيانه وفصاحته، بحيث يقول وهو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى: «**أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش**»[٧]، وهذا فخر على فخر لا يحقّ إلّا له ' ، ولايصدق إلّا عليه، وإذا كان الرسول الأكرم هو المدرسة لكلّ إنسان، فكيف لا يكون مدرسة لآله وعترته وخاصّته

وحامّته من الخلق يتعلّمون في مدرسته جماليّة الفكر والتعبير.

ومن أدعية الرسول ' ليلة النصف من شعبان قوله: «**اللّهمّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به رضوانك، ومن اليقين ما تهون علينا به مصيبات الدنيا، اللّهمّ أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منّا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولاتجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلّط علينا من لا يرحمنا، برحمتك يا أرحم الراحمين**»[٨].

وممّا كان يقوله ' في سجوده في تلك الليلة:«**أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات والأرضون، وانكشفت به الظلمات، وصلح به أمر الأوّلين والآخرين، من فجأة نقمتك، ومن تحويل عافيتك، ومن زوال نعمتك، اللّهمّ ارزقني قلباً تقيّاً نقيّاً، ومن الشرك بريّاً، لا كافراً ولا شقياً**»[٩].

ومن أدعية الرسول ' : دعاء (المجير) ودعاء (يستشير) ودعاء (الجوشن الكبير) في أسماء الله الحسنى.

وحين يتتلمذ عنده الأئمّة عليهم السلام فكيف لا يغدون أساتذة الحبّ لله ورسوله.

ومن فقرات أدعية للإمام زين العابدين عليه السلام: «**اللّهمّ فصلّ على محمّد أمينك على وحيك، ونجيبك من خلقك، وصفيّك من عبادك، إمام الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة**»..

«**اللّهمّ إنّي أتقرّب إليك بالمحمّديّة الرفيعة**»..

«**اللّهمّ فارفعه إلى الدرجة العليا من جنّتك حتى لا يساوى في منزلة، ولا يكافأ في مرتبة، ولا يوازيه لديك ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل**»[١٠].

ج) نهج البلاغة وأدعية الأئمة عليهم السلام:

إنّها مسيرة الطاهرين المطهّرين المتحدّرين من أهل البيت، وهم أصحاب

الكساء الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً في محكم كتابه، وجعلهم أئمّة يهدون بأمره لمّا صبروا، لتتّصل مسيرة الإمامة بمسيرة النبوّة، وتكون العترة توأم الكتاب، كما نصّ عليه حديث الثقلين، الذي يوصي فيه الرسول الأمّة بهذين الحبلين المتضافرين اللّذين تركهما لها لتمسك بهما، فتأمن من مزلّات الضلال «**إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»[11]، ليحافظ بهما على الإسلام ولتتقدّم البشريّة قيادة معصومة، كما في الحديث نفسه: «**وإنّ اللّطيف الخبير أنبأني أنّهما لن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض**».

وقد كان لهؤلاء قصب السبق في جمال إيمانهم وأخلاقهم وأفعالهم، وإلى جانب ذلك: في جمال بيانهم، وكما يقول عليه السلام: «**وإنّا لأمراء الكلام فينا تنشّبت عروقه وعلينا تهدّلت غصونه**»[12].

ومن هنا وسمت كلمات الإمام علي عليه السلام وخطبه ورسائله بـ (نهج البلاغة)، وشهد لهم خصومه، فهذا معاوية يَقْدم عليه أحد أتباعه من الكوفة، فيسأله: من أين جئت؟ فيقول: جئتك من عند أعيى الناس، فيردّ عليه المعاوية قائلاً: ويحك فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره[13].

وهذا الكاتب الذي قيل فيه: «بدأت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»، يقول: «ما بلغت ما بلغت حتي حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع فغاصت ثم فاضت»[14].

وقد حُفظت للإمام علي عليه السلام أدعية ذات أفق سام رفيع هي في الذورة من الجماليّة الدعائية، ومنه دعاء كميل الذي علّمه تلميذه كميل بن زياد، ومنه قوله: «**يا سيّدي، يا من عليه معوّلي، يا من إليه شكوت أحوالي، يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ، قوّ على خدمتك جوارحي، واشدد على العزيمة جوانحي، وهب لي الجدّ في خشيتك، والدوام في الاتّصال بخدمتك، حتى أسرع إليك في المبادرين، وأشتاق إليك في المشتاقين، وأدنو منك دنوّ المخلصين، وأخافك مخافة الموقنين،**

وأجتمع في جوارك مع المؤمنين».

والمناجاة الشعبانيّة، التي رواها ابن خالويه، وقال عنها الإمام الخميني رحمه الله: إنّها ممّا لا ينهض بتفسيره إلّا عارف كامل ومنها:

«إلهي أقمني في أهل ولايتك مقام من رجا الزيادة من محبّتك، إلهي وألهمني ولهاً بذكرك، واجعل همّتي في روح نجاح أسمائك ومحلّ قدسك، إلهي بك عليك إلّا ألحقتني بنور عزّك الأبهج حتى أكون لك عارفاً وعن سواك منحرفاً».

ومنها: **«إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقةً بعزّ قدسك»**[١٥].

ودعاء الصباح، ومنه: **«يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته، وجلّ عن ملاءمة كيفيّاته، يا من قرب من خطرات الظنون، وبعد عن لمحات العيون، وعلم بما كان قبل أن يكون»**[١٦].

وللإمام الحسين عليه السلام في الدعاء نفحات، منها ما جاء في دعاء عرفة:

«إلهي تردّدي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك، كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتي يكون هو المظهر لك، متي غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى كانت الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقه عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً»[١٧].

ومن فقرة من دعاء عرفة للإمام زين العابدين عليه السلام في ذكر الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام: **«ربّ صلّ على أطايب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك، وجعلتهم خزنة علمك، وحفظة دينك، وخلفاءك في أرضك، وحججك على عبادك، وطهّرتهم من الرجس والدنس تطهيراً بإرادتك، وجعلتهم الوسيلة إليك والمسلك إلى جنّتك»**[١٨].

ومن فقرة أخرى من الدعاء نفسه: «**اللّهمّ إنّك أيّدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علماً لعبادك، ومناراً في بلادك، بعد أن وصلت حبله بحبلك، وجعلته الذريعة إلى رضوانك، وافترضت طاعته، وحذّرت معصيته، وأمرت بامتثال أوامره، والانتهاء عند نهيه، وألّا يتقدّمه متقدّم، ولا يتأخّر عنه متأخّر، فهو عصمة اللّائذين، وكهف المؤمنين، وعروة المتمسّكين، وبهاء العالمين**»[١٩].

ثالثاً: المعالم الفنّيّة

تتجلّى هذه الجماليّة بصور متعدّدة، على أننا سنكتفي بإلقاء بعض الضوء على ما يتعلّق منها بالموضوع، ونمثّل لبعض الجماليّات المتنوعة:

فيما يتعلّق بالموضوع تظهر هذه الجماليّة في:

١ـ الشمول والاستيعاب: فأدعية الصحيفة السجّاديّة تغطّي أبواباً شتّى، صنّفها بعضهم إلى تسعة عشر باباً ينفتح من كلٍّ منها أبواب عديدة، وهي تتناول الإسلام وأصوله من توحيد وعدل ونبوة وإمامة ومعاد، وجانبه القيمي وجانبه العبادي وجانبه السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والعسكريّ والصحّي والزمان والكون والإنسان والعلم والتاريخ.

٢ـ التنوّع والتلوين: ففي باب علاقة الإنسان بربّه نجد دعاءاً في الاعتذار ، ودعاءاً في الشكر، ودعاءاً في طلب العفو، ودعاءاً في الرهبة، ودعاءاً في التذلّل لله، ودعاءاً في التضرّع والاستكانة، ودعاءاً في طلب الستر والوقاية، ودعاءاً في الاشتياق، ودعاءاً في اللجوء إلى الله تعالى و....

٣ـ التنسيق والترتيب: فثمّة أدعية تشمل دوائر عدّة تبدأ من الإنسان إلى من حوله، فدعاء لنفسه وخاصّته، ودعاء لأبويه، ودعاء لجيرانه وأوليائه، ودعاء لأهل الثغور.

أمثلة لجماليّات مختلفة

١ـ الجماليّة الصوتيّة: ومن نماذجها: دعاؤه بخواتيم الخير: «**يا من ذكره شرف للذاكرين، ويا من شكره فوز للشاكرين، ويا من طاعته نجاة للمطيعين، صلّ على محمّد وآل محمّد، واشغل قلوبنا بذكرك عن كلّ ذكر، وألسنتنا بشكرك عن كلّ شكر**»[٢٠]. فهذه الشين بتردّدها وتكرارها تشي بكلّ ما في النفس من اشتياق وانشداد إلى الله تعالى، والكاف تجعل كل شيء في إطار هذه العلاقة التي تغني عن الكلّ.

ودعاؤه عند الصباح والمساء: «**أصبحنا في قبضتك، يحوينا ملكك وسلطانك، وتضمّنا مشيّتك، ونتصرّف عن أمرك، ونتقلّب في تدبيرك، ليس لنا من الأمر إلّا ما قضيت، ولا من الخير إلّا ما أعطيت، وهذا يوم حادث جديد، وهوعلينا شاهد عتيد، إن أحسنّا ودّعنا بحمد، وإن أسأنا ودّعنا بذمّ**»[٢١]، ففي التنويع بين ما يتعدّى بنفسه وما يتعدّيبحرف جرّ، وفي التوازن بين الجمل، وفي الفواصل المتناغمة والمقابلة وتكرار الأضداد، ألوان من التنسيق الصوتي.

ودعاؤه لوالديه: «**اللّهمّ خفِّض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي، وألن لهما عريكتي، واعطف عليهما قلبي، وصيّرني بهما رفيقاً، وعليهما شفيقاً. اللّهمّ اشكر لهما تربيتي، وأثبهما على تكرمتي، واحفظ لهما ما حفظاه مني في صغري**»[٢٢]، فهذه الجمل المتتابعة والمتنوعة ومشتقّات الخفض والطيب واللين والعطف، وتساوي الفاصلتين: رفيقاً وشفيقاً، والترادف المعنويّ بين اشكر لهما وأثبهما، ألوان من الجماليّات الصوتيّة.

٢ـ الجمالات اللّغويّة: ومنها في دعائه في الاستسقاء: «**سحباً متراكماً هنيئاً مريئاً طبقاً مجلجلاً غير ملث ودقه، ولا خلب برقه. اللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً مريعاً ممرعاً عريضاً واسعاً غزيراً، تردّ به النهيض، وتجبر به المهيض**»[٢٣]، فقد حشدت الكلمات حشداً ممّا يلائم الإلحاح في الطب.

وفي دعائه لأهل الثغور: «**اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وحصّن ثغور المسلمين بعزّتك، وأيّد حماتها بقوّتك، وأسبغ عطاياهم من جدّك، اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وكثّر عدّتهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواتر بين ميرهم، وتوحّد بكفاية مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والكفّ لهم في المكر**»[٢٤].

وفي هذا الدعاء من اللغة الجزلة المختار ما يشحن نفوس المجاهدين المرابطين بالقوّة، وما يملأ قلوب أعدائهم بالرعب.

٣ـ الجماليات التركيبيّة: وتبدوفي مظاهر عدة منها:

أ. مطالع الأدعية؛ إذ تفتتح غالباً بصيغ من مثل (الحمد لله) (اللّهمّ) (يا من) (اللّهمّ صل على محمّد وآل محمّد).

ب. وفي تراكيب رقميّة، كما في دعائه في الاعتراف «**اللّهمّ إنّه يحجبني عن مسألتك خِلالٌ ثلاث، وتحدوني عليها خلّة واحدة، يحجبني أمر أمرت به فأبطأت عنه، ونهى نهيتني عنه فأسرعت إليه، ونعمة أنعمت بها عليّ فقصّرتُ في شكرها، ويحدوني على مسألتك تفضّلك على من أقبل بوجهه إليك، ووفد بحسن ظنّه إليك؛ إذ جميع إحسانك تفضّل، وإذ كلّ نعمك ابتداء**»[٢٥].

ج. وقس التنويع بين الخبر والإنشاء، كما في دعائه للاشتياق: «**اللّهمّ وإنّك من الضعف خلقتنا، وعلى الهون بنيتنا، ومن ماء مهين ابتدأتنا، فلا حول لنا إلّا بقوّتك، ولا قوّة لنا إلّا بعونك، فأيّدنا بتوفيقك، وسدّدنابتسديدك، واعمِ أبصار قلوبنا عمّا خالف محبّتك، ولا تجعل لشيء من جوارحنا نفوذاً في معصيتك**»[٢٦].

٤ـ الجماليات التصويريّة: ومن نماذجها في دعائه بالتوبة: «**هذا مكان من تداولته أيدي الذنوب وقادته أزمّة الخطايا واستحوذ عليه الشيطان...حتى إذا انفتح له بصر الهدى وتقشّعت عنه سحائب العمى أحصى ما ظلم به نفسه، وفكّر فيما خالف به ربّه، فرأى كبير عصيانه كبيراً، وجليل مخالفته جليلاً**»[٢٧].

وفي دعائه في دفع كيد الأعداء:«**وكم من سحائب مكروه جلّيتها عني، وسحائب نعم أمطرتها عليّ، وجداول رحمة نشرتها، وعافية ألبستها، وأعين أحداث طمستها، وغشاوة كشفتها**»(٢٨).

وفي دعائه لوالديه: «**واجعل طاعتي لوالديّ وبرّي بهما أقرّ لعيني من رقدة الوسنان، وأثلج لصدري من شربة الظمآن**»(٢٩).

٥ـ الجماليّات المعنويّة:ومن نماذجها في دعائه عند المرض أنّه يحمد الله على الحالين من المرض والصحة بتخريجات لطيفة وتحليلات شفيفة ومن ذلك قوله: «**اللّهمّ لك الحمد على ما لم أزل أتصرّف فيه من سلامة بدني، ولك الحمد على ما أحدث بي من علّةٍ في جسدي، فما أدري يا إلهي أيّ الحالين أحقّ بالشكر لك، وأيّ الوقتين أولى بالحمد لك، أَوَقْت الصحّة التي هنأتني فيها طيبات رزقك، ونشطتني بها لابتغاء مرضاتك وفضلك، وقوّيتني معها على ما وفّقتني له من طاعتك؟ أم وقت العلّة التي محّصتني بها، والنعم التي أتحفتني بها تخفيفاً لما ثقل به على ظهري من الخطيئات، وتطهيراً لما انغمستُ فيه من السيّئات**»(٣٠).

وفي دعائه في الاستقالة؛ إذ يبيّن جهل الإنسان في رشده وغفلته عن حظّه عصياناً واتّباعاً للشيطان: «**فَمَنْ أَجْهَلُ مِنِّي، يَا إِلَهِي، بِرُشْدِهِ وَمَنْ أَغْفَلُ مِنِّي عَنْ حَظِّهِ وَمَنْ أَبْعَدُ مِنِّي مِنِ اسْتِصْلَاحِ نَفْسِهِ حِينَ أُنْفِقُ مَا أَجْرَيْتَ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ فِيمَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِكَ وَمَنْ أَبْعَدُ غَوْراً فِي الْبَاطِلِ، وَأَشَدُّ إِقْدَاماً عَلَى السُّوءِ مِنِّي حِينَ أَقِفُ بَيْنَ دَعْوَتِكَ وَدَعْوَةِ الشَّيْطَانِ فَأَتَّبِعُ دَعْوَتَهُ عَلَى غَيْرِ عَمًى مِنِّي فِي مَعْرِفَةٍ بِهِ وَلَا نِسْيَانٍ مِنْ حِفْظِي لَهُ وَأَنَا حِينَئِذٍ مُوقِنٌ بِأَنَّ مُنْتَهَى دَعْوَتِكَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمُنْتَهَى دَعْوَتِهِ إِلَى النَّارِ**»(٣١).

وفي دعائه مكارم الأخلاق: «**اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، وسدّدني بأن أعارض من غشّني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبرّ، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافي من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن**

أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة»[٣٢].

* * *

الهوامش:

(١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٩٤: ٣٧٠، الطّبعة الثّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(٢) المصدر نفسه ٩١: ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه ٩١: ٣٣٤.

(٤) الدعاء رقم (٤٤) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٥) الدعاء رقم (٤٥) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٦) الدعاء رقم (٤٢) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٧) بحار الأنوار ١٧: ١٥٨، مرجع سابق.

(٨) المصدر نفسه ٩٢: ٣٦١.

(٩) المصدر نفسه ٩٥: ٤١٦.

(١٠) كل ذلك من أدعية الصحيفة السجادية.

(١١) هو من الأحاديث المشهورة، بل والمتواترة المروية بأسانيد عالية متنوعة في الكتب المعتبرة عند الفريقين.

(١٢) نهج البلاغة: ٢٧١.

(١٣) ابن أبي الحديد المعتزلي الشّافعي، شرح نهج البلاغة ٦: ٢٧٩، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، مصوّرة عن الطّبعة الثّانية ١٣٨٥لدار إحياء الكتب العربيّة، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النّجفي ١٤٠٤.

(١٤) المصدر نفسه ١: ٢٤.

(١٥) نقلها في البحار عن كتاب العتيق الغروي ٩١: ٩٦.

(١٦) انظر: المصدر نفسه ٨٤: ٣٣٩.

(١٧) انظر: المصدر نفسه ٩٥: ٢٢٥.

(١٨) السَّيِّد ابن طاووس، رضي الدين، الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ٩١.

(١٩) المصدر نفسه.

(٢٠) الدعاء رقم (١١) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢١) الدعاء رقم (٦) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٢) الدعاء رقم (٢٤) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٣) الدعاء رقم (١٩) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٤) الدعاء رقم (٢٧) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٥) الدعاء رقم (١٢) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٦) الدعاء رقم (٩) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٧) الدعاء رقم (٣١) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٨) الدعاء رقم (٤٩) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٢٩) الدعاء رقم (٢٤) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٣٠) الدعاء رقم (١٥) من أدعية الصيحفة السجادية.

(٣١) الدعاء رقم (١٦) من أدعية الصحيفة السجادية.

(٣٢) الدعاء رقم (٢٠) من أدعية الصحيفة السجادية.

أثر عبادة الدعاء

في تطوير الذكاء العاطفي

الأستاذ: علي عبد المجيد عباس (*)

تمهيد

لطالما كان التطوّر السمة الأبرز للشخصيّة الإنسانيّة؛ إن على صعيد العقل أو العاطفة أو السلوك، وإن كان كُلٌّ من العقل أو السلوك يقع ضمن دائرة الوعي المباشر لدى الإنسان، فكثيراً ما تخرجُ العاطفة عن نطاق هذه الدائرة؛ لا سيما ضمن الأجواء الانفعاليّة الصاخبة؛ وهو ما يودي ـ بدوره ـ إلى تأثيراتٍ قد تمسُّ القناعات الفكريّة العقليّة للإنسان، وتطغى ـ بل وتتحكم أحياناً كثيرة ـ بالنشاطات السلوكيّة التي يقوم بها.

من ههنا تتضح أهميّة البحث في هذا السياق، والعمل على تطوير وترشيد البنية العاطفيّة ضمن الشخصيّة الإنسانية؛ بغرض ضبط الإيقاع العام لواقع الإنسان في شتى مواقف الفكر والسلوك والانفعال.

الدعاء عبادةٌ تمسُّ الجانب العاطفي من حياة الإنسان في الصميم، وهو ـ فضلاً عن كُلّ مضامينه الفكريّة ـ يُعتبرُ مظهراً راقياً لأسمى أنواع العواطف،

(*) ماجيستير علوم قرآن، باحث إسلامي.

وهي عاطفة العبد في علاقته مع الإله. ولا ريب في أنّ الأهميّة التي ينضوي عليها ـ انطلاقاً من كُل ما سلف ـ تجعلهُ عامل تأثيرٍ بالغ الحساسيّة في ما بات يُصطلح عليه بـ (الذكاء العاطفي) لدى الإنسان، والدور المهم الذي تؤدّيهُ هذه العبادة في تطوير وترشيد الجانب العاطفي من الشخصيّة الإنسانية.

مفهوم العاطفة،والذكاء العاطفي:

كمدخلٍ عام للمسألة التي نحنُ بصدد تناولها، لا محيص من التعرُّض ـ في البدء ـ للمفهوم العام للعاطفة، ومصطلح الذكاء العاطفي، ومنطلق نشوء الحالة العاطفيّة لدى الإنسان، وآليات تأثير هذه الاختلاجات العاطفيّة (الـمُتفاوتة الشدّة والضعف) على شخصيّة الإنسان؛ فكراً وسلوكاً.

موقع العاطفة في حياة الإنسان:

لا يُمكنُ لعاقلٍ أن يُغمض دور العاطفة المحوريّ في طبيعة الإنسان وتفاعله مع المحيط؛ إذ يكادُ العامل العاطفي يتدخّل في كُلّ أفعال أو ردّات فعل الإنسان في مجمل حركته (وحتى فكره)؛ فيبني على أساسها القناعات، ويُدخلها في صناعة الأفكار، وتحليل الواقع، وتبرير سلوكه الشخصيّ أو سلوك الأشخاص الآخرين.. وما إلى ذلك.

ولذا فإنّ «أيّ نظرةٍ للطبيعة الإنسانيّة تتجاهل قوّة تأثير العواطف هي نظرةٌ ضيّقةُ الأفق، والواقع أنّ اسم الجنس البشري (Homo sapiens)، أي: الجنس المفكّر، يُعدُّ تعبيراً خادعاً في ضوء الرؤية والفهم الجديدين لموقع العواطف في حياتنا واللذين يطرحُهما العلم الآن، وكما علّمتنا خبرات الحياة فإنّ مشاعرنا غالباً ما تُؤثّر في كُلّ صغيرةٍ وكبيرة في حياتنا بأكثر مما يُؤثّر تفكيرنا

عندما يتعلّق الأمر بتشكيل مصائرنا وأفعالنا، ولقد غالينا كثيراً في التأكيد على قيمة وأهميّة العقلانيّة البحتة التي يقيسها معامل الذكاء (IQ) في حياة الإنسان، وسواء كان هذا المقياس إلى الأفضل أو إلى الأسوأ، فلن يُحقق الذكاء شيئاً لو كبح جماح العواطف»[1].

ومن هنا نرى بوضوح أهميّة الضبط والترشيد العاطفي للشخصيّة الإنسانيّة، وهو ما نسعى إليه من خلال ما يُصطلح عليه بـ(الذكاء العاطفي)،والذي نرمي إلى تفعيلهِ في شخصيّة الإنسان من خلال التأثير المباشر وغير الـمُباشر لعبادة الدعاء.

مركز العاطفة في الدماغ:

من المُفيد أيضاً ـ في الإطار التمهيدي العام ذاته ـ أن نتناول الجانب الفيزيولوجي المؤُثر في الشأن العاطفيّ لدى الإنسان، حيثُ يُعتبر «النتوء اللوزي (أو الأميجدالا Amygdala) في مخ الإنسان، [والذي] يبدو على شكل لوزة تتكوّن من تراكيب مُتداخلة تقع أعلى جذع الـمُخ»[2] هو المركز الرئيس للعواطف والانفعالات، وفي حال انفصال هذه (الأميجدالا) عن بقيّة أجزاء المخ، يُصبحُ الـمُخّ عاجزاً بشكلٍ كبيرٍ جداً عن تقدير الأحداث العاطفيّة، وترتيب ردّة فعل واضحة تجاهها، وهي الحالة التي يُطلق عليها في علم النفس تسمية العمى الانفعالي (Affective Blindness)[3].

بيدَ أننا لن نُغرق في تحليل منابع العاطفة لدى الإنسان (على أهميّة الإضاءة عليها لتشكيل نظرةٍ مُتكاملةٍ حول كُل المعطيات التي لها دخل في فهم الموضوع)، وسنحصرُ اهتمامنا بتحليل العاطفة نفسها وآليات ضبط إيقاعها، وتطوير قدرة الإنسان على ترشيد الطاقة العاطفيّة في شخصيّته؛ وذلك ما يتناسبُ وعنوان البحث الذي نحنُ بصدده.

للإنسان عقلٌ.. أم عقلان؟!:

إنّ الشعور الذي يعيشهُ الإنسان تجاه واقعه ينجمُ ـ كما يظنُّ أغلبنا ـ عن فكرتنا تجاه الواقع، بيدَ أنّ الحقيقة هي أنّ هذا التصوّر يُعتبر تبسيطاً لعمليّةٍ مُعقدّة تجري داخل الكائن البشريّ.

فالواقع هو أنّ الإنسان لا يعيشُ الأفكار المنطقيّة التي يُنتجها عقلُهُ فحسب، وإنّما يتعامل مع الواقع من منطلقين (أو عقلين كما يُعبّر بعض علماء النفس)؛ المنطلق (أو العقل) المنطقي، والمنطلق (أو العقل) العاطفي.

فمثلاً: قد تحدثُ حالة انفصالٍ بين زوجين عاشا معاً سنواتٍ من السعادة الغامرة، وانقلبت حياتهما في فترة ما قبل الانفصال إلى جوٍّ مُترعٍ بالقلق والتوتّر، وبعد مدّةٍ من هذا التوتّر بات خيار الانفصال لديهما خياراً منطقيّاً للغاية، ويتمّ الأمر وفق هذه القناعة المنطقيّة.

لكن لو سُئلَ أحدُهُما بعد برهةٍ من الزمن عن تجربة الانفصال تلك (وكلاهما كان قد عاش قبلها انسجاماً عاطفيّاً طويلاً)، سيرى أنّ خياره بالانفصال عن الآخر كان خياراً منطقيّاً، لكنه في الوقت ذاته ـ وبكُلّ تأكيد ـ سيشعرُ وهو ينطق بذلك الجواب بشيءٍ واضحٍ من الضيق أو الانزعاج؛ ويرجعُ ذلك ـ كما يؤكد علماء النفس ـ إلى أنّ هناك (عقلان) يتحكّمان بحياة الإنسان؛ العقل المنطقي من جهة، والعقل العاطفي من جهةٍ أُخرى..

وهذا ما يوضح لنا أهميّة تطوير الجانب ـ أي: العقل ـ العاطفي من الشخصيّة الإنسانية، وتفعيل حضوره الإيجابي في مجمل حركة الإنسان الاجتماعيّة، بحيث يتمُّ تمكين الإنسان من التحكُّم بعواطفه الجيّاشة، وتوجيهها لتكون عامل قوّة في رفد حياة الإنسان وأهدافه العمليّة، لا عامل ضعفٍ يُسقطهُ في المحذورات.

من هذه الزاوية سندرسُ أثر الارتباط بالله ـ سُبحانهُ ـ في تطوير هذه

الجوانب من الذكاء العاطفي والانفعالي لدى الإنسان،والآليّات الناظمة لها من حيث الضبط أو الإنضاج أو التوجيه، والاستفادة من كل ما من شأنه أن يُسهم في ترشيد العاطفة، وبالخصوص سيتمُّ التركيز على أثر عبادة الدعاء (الـمُفعمة بالعواطف الإيجابيّة، والمليئة بالآليات الوجدانيّة)، التي تُشذّب الدوافع والانفعالات، وتضبط إيقاع السلوك الإنساني المبني على العاطفة في كثيرٍ من مواقعه، وخصوصاً في حال عصف انفعالٍ أو عاطفةٍ أو دافعٍ مُعيّن، ولعلّها ـ كما هو بيّنٌ للعاقل ـ الحالات الأكثر سيطرةً أو استيعاباً للحياة اليوميّة للإنسان، والأبلغ تأثيراً في خيارات السلوكِ العمليّ الذي يبنيه وفقها.

عبادة الدعاء والترشيد العاطفي

آليات عبادة الدعاء في البناء العاطفي السليم للشخصيّة الإنسانيّة:

لعلّ أبرز ما تتميّز به عبادةُ الدعاء في المجال العاطفي (ونحنُ ههنا أمام آليّةٍ ثُنائيّةٍ ندّعي ابتكارها ودقّتها في هذا المورد)، أنّها تبني منظومةً عاطفيّةً: مُتكاملةً، ومتوازنةً في الآن ذاته؛ ولكُلٍّ من هاتين السمتين تفصيل:

١) فالتكاملُ يتضمّنُ أن تحتوي المنظومة العاطفيّة لدى الإنسان كُلّ عواطف الحياة، إلى جانب إتقانه لآليّات التعاطي مع كُلّ عاطفةٍ منها، فلا يجوز أن ينبذ إنسانٌ عاطفة الحُزن ـ مثلاً ـ بالمطلق؛ لما لها من دورٍ في تنمية ذاته، ولا أن يهجر عاطفة الفرح لعارضٍ أو فادحٍ ألمّ به؛ وذلك لدورها الفاعل في إطلاق طاقات الإنسان وتفعيلها، وحتى أنّهُ لا يجوز للإنسان أن ينبُذ عاطفة الغضب؛ إذ حتى هذه العاطفة العاتية لها دورٌ إيجابيٌّ إن تمّ توجيهها في مكانه، وقد علّمتنا الأدعية العظيمة الواردة عن مدرسة العصمة ـ في غير دُعاءٍ مشهور ـ أنّ الغضب لله مطلوب،

والغضب للحقّ مطلوب، والغضب للمبدأ مطلوب، وهو أساسُ الدافع وراء حالة الفعل الإيجابي تجاه الكثير من مواقف الحياة، وإن كان الدعاء ـ في الآن ذاته ـ قد وجّه إلى ضبط هذه العاطفة العاصفة، وهو ما سنتحدّثُ عنهُ في نقطة (الموازنة) التالية، وسواها من العواطف المختلفة التي لا تتكاملُ شخصيّةُ الإنسان إلا بها، ولا تتحقق إنسانيّتهُ الكاملة ـ أساساً ـ في حال الانسلاخ عنها.

٢) والتوازنُ في البناء العاطفي يعني أن لا يعيش الإنسانُ بعض العواطف بعمقٍ مُفرط، ويعيش الأخرى بسطحيّةٍ مُفرطة؛ حيثُ يؤدّي ذلك إلى خللٍ بيّنٍ في شخصيّته (فكراً وسلوكاً)، فيتخبّط تارةً ـ كما في حال شريحةٍ من النّاس ـ في أجواء الفرح الطائش الذي يُخرجُ الإنسان عن انضباطه، أو في أجواء الغضب المفرط الذي يُسقط الإنسان في أسوأ المحاذير، أو في أجواء الحزن الـمُعقّد الذي يُقعدُ الإنسان عن دوره الفاعل وموقعه في الحياة، ... وسوى ذلك من ضروب العاطفة الـمُفرطة أو المنحرفة. الدعاء ـ في مدرسة الإسلام ـ عمد إلى صناعة توازُنٍ دقيقٍ على هذا الصعيد، وبناء منظومة الإنسان العاطفيّة على أساس نسب معياريّة دقيقة من كُلّ عاطفةٍ إنسانيّة، وهذه الدّعوى الكبيرة لا بُدّ لها من استدلالٍ تفصيليٍّ متينٍ ودقيق، سنتناولهُ ـ بعون الله ـ في موردٍ هو ـ ضرورةً ـ أوسع بكثير من حدود مقالٍ أو بحثٍ علميٍّ مُقتضب، إلّا أننا عمدنا إلى ذكر زبدة الفكرة ههنا، لما لها من أهميّةٍ وعُمقٍ وحداثةٍ في آنٍ معاً.

ومن خلال ما تقدّم ندّعي ـ انطلاقاً من مرتكزات البحث العلمي ـ أنّ هذه الآليّة المزدوجة في ترشيد العاطفة الإنسانيّة هي الآليّةُ الناجعةُ التي يعتمدُها الدّعاء المأثور (الممنهج قطعاً)، وأنّ الطرح بهذه الصورة ومن هذا المنظور هو

الأوّل من نوعه؛ في فهم حالة الترشيد العبادي (الدعائي منهُ خصوصاً) للجنبة العاطفيّة الإنسانيّة الـمُعقّدة.

وهو ما لا بُدّ أن نُفرد لهُ ـ بمدد الله ـ بحثاً تفصيليّاً يتناولُ عمق الفكرة بالدليل والمثال والتحليل العلمي.

آليات الدعاء في تنمية قدرة الضبط العاطفي لدى الإنسان:

استكمالاً لما أسلفناهُ من أنّ عبادة الدعاء أعطت العواطف الإنسانيّة زخماً لتشكّل (منظومةً مُتكاملة) من كلّ أنواع العاطفة، وأنّها أعطتها في الوقت ذاته (توازناً) لضبط العاطفة والاستفادة من الطاقة الإيجابيّة دون السلبيّة منها؛ كانَ لا بُدّ من التكلُّم عن الآليّات التي اعتمدتها هذه العبادة لإنجاز هذا الضبط والتوازن الدقيق، لعاطفةٍ لعلّ أشهر ما تتسمُ به هو الفوضى والعصفُ والانفلاتُ من كُلّ قيود.

ومن أهمّ هذه الآليّات:

١) استشعار اطلاع الله وقدرته دائما: وهي نُقطةٌ لطالما عمدت عبادةُ الدعاء إلى ترسيخها في نفس الإنسان؛ حيثُ يبدأ الدعاءُ باعتراف الإنسان بوهن طاقته، وضعف قواه، وعجزه الذاتي، في الوقت نفسه الذي يُقرُّ فيه صراحةًبالقوّة الـمُطلقة لله، والقدرة التي لا يخرج عنها شيء، إلى جانب إحساسه الدائم بأنّ عين الله ترقبهُ في كُلّ حركةٍ وسَكَنة، كما ورد في الدعاء المستحبّ ليلة عرفة: «**اللَّهُمَّ يَا شَاهِدَ كُلِّ نَجْوَى وَمَوْضِعَ كُلِّ شَكْوَى وَعَالِمَ كُلِّ خَفِيَّةٍ، وَمُنْتَهَى كُلِّ حَاجَةٍ، ... يَا مَنْ لاَ يُوَارِي مِنْهُ لَيْلٌ دَاجٍ وَلاَ بَحْرٌ عَجَّاجٌ، وَلاَ سَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَلاَ ظُلَمٌ ذَاتُ ارْتِيَاجٍ**»[٤]؛ وهو أمرٌ يجعلُ الإنسان دائماً في حالة مُراقبةٍ للعاطفة التي تعصفُ به، إذ طالما يرى اطلاع الإله الدائم، والقدرة العظمى الـمُهيمنة فوقه، لن

يستطيع أن ينجرف مع العاطفة التي تشعره بانتفاخ ذاته، وأمام العظيم يشعرُ العبدُ بمحدوديّة ذاته، وتنضبطُ انفعالاتهُ وعواطفهُ ضمن هذا الإحساس العام بقدرة الله عليه؛ فلا ينجرف مع جنون الغضب حين يتذكر قدرة الله عليه وغضبهُ من مخالفاته ومعاصيه، ولا يطيشُ به الفرح حين يتذكّرُ أنّ قدرة الله لا تسمحُ لهُ بالفرح الذي يُسقطهُ في التساهُل بالذنب، وهذا دورُ استحضار القدرة الإلهيّة بشكلٍ دائمٍ داخلَ الإنسان.

٢) الإقرار الدائم بالذنبِ، والوقوعِ في الخطأ: وهو بدورهِ من آليّات الضبط العاطفي للإنسان؛ حيثُ تبدأ الكثيرُ من الأدعية بالإقرار، ويستشعر العبدُ أنّهُ مُثقلٌ بذنوبه، وواعٍ للمسؤوليّة الجسمية التي تُلقيها عليه، ومثالُ ذلك الدعاءُ الواردُ عن المعصومعليه السلام في مفاتيح الجنان، والذي يمسُّ صميم هذه الفكرة: «**أَتَيْتُكَ مُقِرّا عَلَى نَفْسِي بِالْإِسَاءَةِ وَالظُّلْمِ مُعْتَرِفا بِأَنْ لا حُجَّةَ لِي وَلا عُذْرَ، أَتَيْتُكَ أَرْجُو عَظِيمَ عَفْوِكَ الَّذِي عَفَوْتَ بِهِ عَنِ الْخَاطِئِينَ؛ فَلَمْ يَمْنَعْكَ طُولُ عُكُوفِهِمْ عَلَى عَظِيمِ الْجُرْمِ أَنْ عُدْتَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ**»[٥]. مثلُ هذا الإقرار ينطلقُ بالإنسان ليعيشُ التوازن أمام العواطف؛ فهو لا يعيش إحساساً مُطلقاً بالعاطفة يُعميه عن مجمل واقعه، وإنّما يبقى هذا الإحساسُ بالذنب يُظللّ على واقعه شيئاً من الهدوء والإحساس بالمسؤوليّة في التعاطي مع واقعه، بكُلّ ما يضجُّ به من عواطف وانفعالات.

٣) التلقين النفسي بطلب المدد دائماً من الله تعالى؛ لضبط المفردة البديلة ـ تقريباً ـ لمفردة (العاطفة السلبيّة)، وهي (النّفس الأمّارة) بالسوء، والشكوى الدائمة من تفلُّتها من عقال الانضباط والنضج السلوكي. ولعلّ من أروع أمثلة هذا التوجّه إلى الخالق طلباً للمدد أمام

هذه النفس، ما ورد في مناجاة الشاكين للإمام السجّادعليه السلام: «**إِلَهِي إِلَيْكَ أَشْكُو نَفْسا بِالسُّوءِ أَمَّارَةً، وَإِلَى الْخَطِيئَةِ مُبَادِرَةً، وَبِمَعَاصِيكَ مُولَعَةً، وَلِسَخَطِكَ مُتَعَرِّضَةً؛ تَسْلُكُ بِي مَسَالِكَ الْمَهَالِكِ، وَتَجْعَلُنِي عِنْدَكَ أَهْوَنَ هَالِكٍ، كَثِيرَةَالْعِلَلِ طَوِيلَةَ الْأَمَلِ، إِنْ مَسَّهَا الشَّرُّ تَجْزَعُ وَإِنْ مَسَّهَا الْخَيْرُ تَمْنَعُ، مَيَّالَةً إِلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ، مَمْلُوَّةً بِالْغَفْلَةِ وَالسَّهْوِ، تُسْرِعُ بِي إِلَى الْحَوْبَةِ وَتُسَوِّفُنِي بِالتَّوْبَة**»[٦]. إنّ هذه النظرة الواعية لانفعالات النفس الجارفة، تكادُ تكون ضمانةً لضبط الكثير منها، وتكرار هذه الفكرة في أدعية الإنسان بشكلٍ دائم يُؤصّل هذه الفكرة في نفسه، ويُكسبهُ ـ بالتدريج ـ انتباهاً أكثر ومناعةً أكبر في سعيه لإنضاج الحالة العاطفيّة وضبطها.

٤) العلاج بتنمية الدوافع الإيجابيّة، وهي ما يؤدي ـ لدى نجاحه ـ في الغالب إلى ردم الجوانب السلبيّة من العاطفة؛ حيث تنطلقُ هذه الفكرة من قاعدةٍ مفادها أنّ مُجرّد التأكيد على العادات والسلوكيات الجيّدة هو بحدّ ذاتهِ حدٌّ من تأثرنا بالعادات السيئة، وقتلٌ بطيءٌ لها، خصوصاً وأنّهُ من الواضح أنّ الانتقال الفجائي الـمُباشر من السلب إلى الإيجاب هو أمرٌ في غاية الصعوبة والندرة؛ لذا كان لا بُدّ من تراكمٍ تدريجيٍّ وتفعيلٍ طويل الأمد لكلّ النقاط الإيجابيّة في الشخصيّة الإنسانيّة؛ ليكون مؤدّاه الطبيعي وأد النقاط السلبيّة على المدى الطويل ذاته.

مواءمة تنوّع أوقات الدعاء لتنوّع الحالات النفسيّة:

في سياق بحثنا واستقرائنا التفصيلي للأدعية المخصوصة بزمانٍ أو مكانٍ مُعيّن، بدأت تتوضّح لنا مَعالمُ فكرةٍ مفادُها أنّ التنوع في الأدعية المخصوصة بأوقاتٍ مُعيّنة (كدُعاءالصباح أو المساء أو..)، يشي ـ بناءً على اختلاف الحالة العاطفيّة للإنسان من فترةً يوميّةٍ لأُخرى ـ بجُهدٍ واضحٍ في هذه العبادة

لاستيعاب كُل الحالات العاطفيّة في الشخصيّة البشريّة، والعمل على ترشيد جميعها، إنِ التزم الإنسانُ ببرنامج عبادة الدعاء اليوميّ أصلاً.

ويستطيعُ الباحثُ (وإن لم يتّسع المقام هنا للتفصيل وإيراد الأمثلة) أن يتتبّع البرنامج العاطفيّ الموجود في هذه الأدعية المختلفة في الوقت، وأن يُلاحظ المناسبة الدقيقة لكُلّ دُعاءٍ مع العاطفة الوقتيّة للإنسان، وآليّات تأثيره في هذه العاطفة وطرق ترشيدها.

ومن هنا ندعو الباحثين للتعمّق في هذا العنوان، الذي لم نر بعدُ ـ في كُلّ استقصائنا ـ من تناولهُ أو تعمّق فيه، وإن لم يُسعفنا ضيق المورد ـ ههُنا ـ للتوسّع فيه،على أهميّته البيّنة، وحيثُ إنّهُ عنوانٌ كبيرٌ يستلزم الكثير من التوسع والبحث والتحليل والتدقيق في الجزئيّات العاطفيّة التي تكتنفها هذه الأدعيةُ الثرّة.

دور الدعاء في التناغم ما بين العاطفة والفكر:

بعد تمهيدنا الآنف، بات المسارُ مُتاحاً للبناء على الفهم العام للحالة العاطفيّة لدى الإنسان، وأثرها البالغ على مجمل حركته في الحياة، نبدأ بتوضيح الأثر الفعلي الذي تتركهُ عبادة الدعاء على عنصري صناعة السلوك الإنساني؛ وهُما: الفكر، والعاطفة.

فالسلوك ـ كما هو معروفٌ في علم النّفس ـ ثمرةٌ لتفاعُل التفكير (العقل) مع العاطفة (الانفعال)، وبالتالي فإنّ العمل على الوصول إلى سلوكٍ سليم، لا يمكن أن يتأتى دون إيجاد تناغم حقيقيٍّ ومُثمِرٍ ما بين التفكير والعاطفة، وسندرُسُ ـ في ما يلي ـ كيف يُؤثّر الدعاء في إيجاد هذا التناغم الدقيق في الشخصيّة الإنسانيّة.

ما ينبغي التسليمُ به أولاً، أنّ العاطفة قد تودي في بعض الحالات ـ بل في كثيرٍ منها ـ إلى تعطيل التفكير لدى الإنسان؛ وذلك أنّ الزخم العاطفي

العاصف قد يُشغل الإنسان عن كُلّ خطوات الفكر المنطقي، ويجعل الدافع الأوّل للسلوك هو العواطف التي قد تطغى على الإنسان، كالغضب، الخوف، نشوة الفرح،.. إلخ.

الدعاء يعمد إلى الجانب العاطفي عند الإنسان فينمّي الشعور بعاطفةٍ بالغةِ الأهميّة تجاه الرّب (ومن خلاله تجاه الوجود كلّه؛ الذي أبدعه هذا الربّ المعشوق)، وهي (عاطفة الحب)، وتعتبر هذه العاطفة إحدى أهمّ الدوافع الإيجابيّة التي تفتحُ أمام الإنسان آفاقاً رحبةً وتفاؤلاً مُهمّاً في التعاطي مع الحياة؛ إنّما في إطار الإدراك بأنّ هذه الحياة ليست محور الوجود أو غايته، وبالتالي فالدعاءُ يعملُ على إشراع عاطفة الحُبّ من جهة، وضبطها ضمن الفهم العام للحياة الدنيا من جهةٍ أُخرى؛ بحيث لا يصيرُ الحبُّ دافعاً مُطلقاً لا يلحظُ مُعطيات الواقع وحقائقهُ.

وهذا ما نجدُهُ جليّاً في دعاء المعصوم حين يقول (مؤدّباً ومُعلماً لفنّ الدّعاء، وأسلوب مُخاطبة الذات الإلهيّة): «**إِلَهِي لَوْقَرَنْتَنِي بِالْأَصْفَادِ، وَمَنَعْتَنِي سَيْبَكَ مِنْ بَيْنِ الْأَشْهَادِ، وَدَلَلْتَ عَلَى فَضَائِحِي عُيُونَ الْعِبَادِ، وَأَمَرْتَ بِي إِلَى النَّارِ، وَحُلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَبْرَارِ؛ مَاقَطَعْتُ رَجَائِي مِنْكَ، وَمَا صَرَفْتُ تَأْمِيلِي لِلْعَفْوِ عَنْكَ، وَلاَخَرَجَ حُبُّكَ مِنْ قَلْبِي؛ أَنَا لاَ أَنْسَى أَيَادِيَكَ عِنْدِي، وَسَتْرَكَ عَلَيَّ فِي دَارِ الدنْيَا**»[٧].

هذا المقطع المميّز من دُعاء أبي حمزة الثمالي للإمام السجّاد عليه السلام يتناول منحيين مُهمّين:

الأوّل تصويرٌ بالغ الروعة في وصف الحُبّ الذي ينبغي أن يعيشهُ الإنسان تجاه خالقه الذي أفاض عليه الخير كُلّه، واستدامة هذا الحبّ حتى في فرض أنّهُ نال قسطاً وافراً من عذاب الله ـ إن كان مُستحقاً له ـ؛ ولو تمّ فضحهُ أمام الخلائق وإدخالهُ في بوتقة العذاب، وفي هذا الضرب من التمثيل دلالةٌ عميقةٌ

على عاطفةٍ ذات زخمٍ كبير.

والمنحى الثاني هو إدراكٌ وفهمٌ عميقٌ لعالم الدنيا من خلال هذا الحُبّ نفسه؛ وذلك أنّ الحُب الذي يصوّرهُ الإمامعليه السلام يرجعُ إلى أصل التفضل بنعمة الوجود، ومن ثُمّ إتاحة الفرصة في عالم الدنيا للاستفادة من كل الخير الذي أودعهُ الله في الحياة، وما ذكرهُ الإمام ههنا يعدو كونهُ إشارةً إلى المنن التي يُفيضها الله على الإنسان في عالم الدنيا المحدود الأمد؛ بل فيه إشارةٌ أخرى إلى أنّ مسيرة الوجود الإنساني لا تقف عند حدود هذا العالم، وإنّما تتعداهُ إلى عالم الوجود الأخروي الأبدي، وبالتالي كانت الإشارةُ من الإمامعليه السلام ليس إلى مجرّد أنّ حبهُ ينبعُ من تفضُّل الله عليه في هذا العالم، بل ـ ومن خلال موقفٍ تطبيقيٍّ ـ إلى حقيقة أنّ هذا العالم محدود أيضاً؛ وبالتالي كان الدعاءُ درساً تطبيقيّاً في حقيقة الوجود، إلى جانب كونه تأصيلاً لعاطفة الحبّ للإله المتعالي.

إنّ هذا التناغم الذي يُجسّدهُ هذا النمطُ من الدعاء، ما بين الزخم العاطفي الذي يولّدُهُ من ناحية، والوعي الفكري (حول الوجود) الذي يُفيضهُ من ناحيةٍ أخرى، يُعتبرُ أحد أرقى آليات صناعة السلوك القويم الذي تهدفُ الشريعةُ بكُلّها إلى إيجاده في الإنسان.

الخاتمة:

كان بيّناً ـ في مُجمل ما تناولناهُ آنفاً ـ أنّ عبادة الدعاء، ومن خلال مجموعة من الآليات الناظمة للتفاعل العاطفي داخل الشخصيّة الإنسانيّة أو مع المحيط الخارجي، تتفرّد بأروع الأساليب التي تكفل للإنسان سيطرةً قويّةً على انفعالاته المتنوّعة، وقدرةً على إنضاجها في الوجهة السليمة، وضبطها بحيث لا تنجرف به في لحظة طيشٍ أو نزقٍ أو عصفٍ عاطفيٍّ لتودي بالكثير من جهودهِ وإنجازاته.

ومما لا يخفى أنّ المقال ـ مُلاءَمةً لحجم الـمُشاركة المطلوبة لا أكثر ـ لم يسبر التفاصيل الجزئيّة التي تثري الفكرة أكثر، إلى جانب كون بعض النقاط من الجدة والعمق ما تستحقُّ أن يُفرد لها بحثٌ قائمٌ بذاته، أو إدراجها في بحثٍ من القطع الكبير (كالدراسات والرسائل والأطروحات الأكاديميّة)، تتعرّضُ لتفاصيل تُبرزُ أهميّة الأفكار المطروحة فيه.

بيد أنّ المُدرج في مجمل ما سبق كان إضاءةً وافيةً على أهمّ العناصر الأوليّة لهذا العنوان الجديد جُملةً وتفصيلاً، ونافذةً جيّدةً للدخول إلى هذه الدراسة الحديثة التي نأملُ لها أفقاً رحباً مُتألقاً في أبحاث لاحقة تسعى لتغطية هذا العنوان الذي يستحقُّ بالفعل الكثير من الجهد والدراسة والبحث المبنيّ على أسسٍ علميّةٍ موضوعيّةٍ رصينة.

والله من وراء القصد...

* * *

الهوامش:

(١) جولمان، دانييل، الذكاء العاطفي، ت: ليلى الجبالي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، ٢٠٠٠م، ص١٧- ١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣.

(٣) انظر: المصدر نفسه: ٣٤.

(٤) انظر: الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ٥٠.

(٥) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ٨٦: ٢٩٥، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(٦) المصدر نفسه ٩١: ١٤٣.

(٧) مقطع من دعاء السحر المعروف بدعاء: أبي حمزة الثمالي.

منهج الدعاء الوحدوي

□ الشيخ محمد مهدي التسخيري (*)

تمهيد

الدعاء حلقة الوصل بين العبد وربّه، متى افتقدها أو أغفلها تاه في أزقّة الضلال الملتوية، ولا يمكنه الخروج منها إلّا باستعادتها بلطف من الله وإرادةٍ وتصميم من العبد.

يُذكر للدعاء في اللغة معانٍ كثيرة منها:

الدعاء هو(الرغبة إلى الله....)، كما أشاراليه الفيروزآبادي في قاموسه المحيط: الدعاء إلى الشيء، الحثّ على قصده...

والدعاء في القرآن الكريم على معانٍ عديدة، وإليك بعض الآيات الدالّة على ذلك:

ـ { وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ }[يونس:٢٥].

ـ {وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ }[غافر:٤١ـ٤٢].

(*)مستشار أمين عام المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

ـ { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ }[البقرة:١٨٦].

فالدعاء طلب من العبد واستجابة من الربّ، أو توجّه من العبد نحو ربّه وإقبال من ربّ العزة نحو عبده.

الدعاء ضرورة

تتجسّد ضرورة الدعاء في الحياة في بعدين: مادّيّ ومعنويّ.

أمّا الجانب المادّيّ: فإنّ الإنسان فطريّاً يلتجئ إلى الدعاء في احتياجاته الدنيويّة، لرفع الفقر والمرض والخوف و... ولدفع التحدّيات التي يواجهها من الآخرين تمسّكاً بالطرق العملية للدعاء، ولزرع الطمأنينة عنده والثقة بالنفس في مواطن اهتزازها.

وأمّا الجانب المعنويّ: فقد لايستطيع الإنسان وصفه، كالحركة نحوالكمال والعشق القلبي الذي يجرّ الإنسان نحو مركز القوى والشوق إلى الاتّصال بعالم يؤمن به كلّ الإيمان وهو غير قادر على توصيفه؛ لأنّ هذا الوجود يحيط به من كلّ جانب، كما يعبّر عنه القرآن الكريم: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ }[ق:١٦]، { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ }[الواقعة:٨٥].

فللدعاء في حياة الإنسان معنى الانفتاح على الله والإقبال عليه في إحساسٍ عميق بالحاجة اليه على أساس الفقر الذاتي المتمثّل في عمق كيانه، والعبوديّة التي توحي بانسحاق وجوده أمامه، وذوبان إرادته أمام إرادته.. وهو في الوقت نفسه عبادة حيّة متحرّكة لا تخضع لتقاليد العبادة، من الزمان المحدود، والمكان المعيّن، والكلمات الخاصّة، والأفعال المحدّدة.. بل يأخذ الإنسان حرّيته معها في الوقت الذي يختاره، وفي الحالة التي يكون عليها، وفي المكان الذي يقف فيه،

وفي الكلمات التي يختارها، وفي اللّغة التي يتحدث بها، وفي المضمون الذي يعبّرعنه... فيستطيع أن يدعو ربّه قائماً وقاعداً ومضطجعاً وسائراً وواقفاً و... في الصباح وفي المساء وفي الظهيرة، في قضاياه الصغيرة والكبيرة، وفي أحاسيسه الذاتيّة، ومشاعره المتّصلة بالآخرين[1].

والدعاء روح الدين، وبدونه لا معنى للدين في نفوس المؤمنين، ولن تجد ديناً لايشتمل على أدعية خاصّة أو عامّة.

إنّ الإيمان بالله الواحد الأحد هو أساس الأديان السماويّة، والدعاء هو الباب الذي يأتي العبد منه ليناجي ربّه ويرتبط به ويدعوه كيفما يحلو له، به يرتفع العبد من أدنى مراتب الوجود المادّيّة إلى أعلى درجات السموّ يقترب إلى العرش الربوبيّ ويصل إلى قاب قوسين أو أدنى.

والدعاء يحمل في طياته أروع المفاهيم التربويّة والحكم العقلانيّة والصلابة الإيمانيّة. فيه يتحوّل الخطاب من محطّة سفلية ودنيّة إلى جانب ربوبيّ علوي يكشف الإنسان كلّ ما لديه من أسرار خفيّة على بني نوعه، ليتخلّى عن رذائل الصفات المستورة، ويتحلّى بأفضل النعوت الموهوبة من ربٍّ رحيم لتجسيد الخلق العظيم في أضيق بقعة من كائنات ربّ العزّة والعظمة.

فالدعاء فعل الجميع بلسان وقلب، عالم وجاهل، أسود وأبيض، لاينحصر في بقعةٍ وقوميّةٍ ومذهب ومدرسة ودين، ولابصغير أو كبير، { هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ }[الحشر:٢٤]، هو صلة الوصل بين العبد والمعبود، وهو شعار الحرّيّة والسيادة، والخلاص من كلّ قيد ما سوى الله، فهو لبّ الإيمان، وأساس التقوى ونهج العبادة.

وكلّ ما يُكتب عن الدعاء هو قطرة في بحر عطائه، وعلينا الغور في أعماق هذا البحر لاستخلاص الدرر الثمينة من جوفه، لنزيّن بها قلوبنا وعقولنا،

ونجعلها مناراً لحياتنا في الدنيا ومزرعة لآخرتنا.

وفي هذا المقال، نتحدّث عن الدور الوحدويّ للدعاء في حياة الإنسان، ونسعى لتسليط الضوء على جانب مهم في مسيرة الإنسان التكامليّة ومشروعه التوحيدي، الذي يبتدئ بقوله ' : «**قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا**»، وينتهي بـ «**إنّا إليه راجعون**»، فالمبدأ والمعاد واحد، والمسير إلى الله واحد، والدين واحد، وإن تعدّدت السبل وكانت بعدد أنفاس الخلائق.

الوحدة، دعوة التعاليم الإسلاميّة

المنطق القرآني في جميع أبوابه يدلّنا على وحدة مترابطة بين بني البشر ويهدي الإنسان إلى الإيمان بوحدة نوعيّة إنسانية تقوم على السنن الإلهيّة الشاملة للجميع، لتكوين أُسرة واحدة، ألا وهي أسرة التوحيد الموصولة الحلقات، ورائد هذه الأسرة وأبوها هو إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، كما قال تعالى: {هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ}[الحج:٧٨]، ورسول الله ' هو خاتم الأنبياء في هذه الأسرة وبه تختم رسالات الله وهذه الأسرة هي الشجرة طيبة {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[إبراهيم:٢٤ـ٢٥]، الممتدّة الجذور، المباركة الأغصان والفروع، طيّبة الثمار، ممتدّة في التاريخ، واحدة بنصّ القرآن، {وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ}[المؤمنون:٥٢]، {إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ}[الأنبياء:٩٢].

وللقرآن اهتمام بليغ بإبراز وحدة هذه الأسرة وتماسكها وتثمين العلاقة بين شرائحها وأجزائها، وتعميق العلاقة داخلها، ويدخل هذا الاهتمام في صلب

منهج التربية الإسلاميّة في الإشعار بوحدة هذه الأسرة، وفي تعميق الإيحاء بالانتماء إليها لتكون قدوة وأسوة في حياة الناس[٢].

لذلك نشاهد تعاليم الإسلام في الأحكام والأخلاق والمعاملات تتّجه نحو هذا المشروع الإلهيّ الوحدويّ للتأكيد على نهج التوحيد في كلّ مجالات الحياة. وقد كان التشريع العباديّ السماويّ للصلاة والصيام والحجّ و... يحمل في كلّ تفاصيله روح الوحدة، ويبتعد عن التفرّد والتفرّق، وكذا في المعاملات من تشريع الزكاة والضرائب والحثّ على الصدقات، وكذلك نجد الآداب الأخلاقيّة لا تنفصل عن هذا الاتّجاه، فكان من الأولى أن يكون الدعاء، والذي هو روح الدين كما ذكرنا، ينحو أيضاً في هذا الاتّجاه.

دعوات الأنبياء عليهم السلام

إنّ الغاية من خلق الإنسان هي العبادة ليس غير، وقمّة الحياة الإنسانيّة تتجلى بالعبوديّة لربّ العزّة والجلال، وهو القائل: { وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات:٥٦]، فبالعبادة يصل الإنسان إلى معبوده ويتقرّب اليه، ولذلك قرنت العبادات بقصد القربة إلى الله وابتغاء مرضاته، وبما أنّ الدعاء إقبال على الله، ومن أبرز مصاديقه الانشداد والانجذاب والارتباط بالله، جُعل الدعاء مخّ العبادة، وقد ورد الدعاء بمعنى العبادة في قوله تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ } [غافر:٦٠]. والأنبياء عليهم السلام حيث كانوا أعبد الناس في قومهم، أصبحوا القدوة لأمّتهم وللمسيرة البشريّة جمعاء.

ولو أمعنّا النظر في الأدعية القرآنيّة لشاهدنا بوضوح أنّ أنبياء الله عليهم السلام كثيراً ما يردفون المؤمنين والإخوة والوالدين والأقرباء في أدعيتهم، وهم الأسوة لنا في أعمالنا وعلينا اتّباعهم، فإنّ المؤمن إذا دعا لأخيه وقريبه فإنّه بذلك قد أزال

الضغينة والحسد عن نفسه تجاه أخيه، ولذا يفتح الله أبواب رحمته على الداعي، وهذا النوع من الدعاء يدعو إلى الألفة والمحبّة والوحدة بين أبناء الأمّة الواحدة، فالدعاء للآخرين يربطنا بهم ويجعلنا في مسيرة تاريخيّة واحدة كما أشرنا سابقاً.

وهنا نتطلّع إلى نماذج من أدعية الأنبياء الوحدويّة التي تصبّ في مشروع هداية البشريّة نحو نهج تأليفي إنسانيّ من خلاله يتكافل المجتمع ويتكامل في منظومة منسجمة تحمل في طيّاتها كافّة الأبعاد الفرديّة والاجتماعيّة والجوانب المعنويّة والماديّة نحو تربية هادفة صادقة لتحقيق معنى العبوديّة في وجدان كلّ إنسان موحّد انتحل الحياة في أوساط المجتمعات المختلفة والشعوب المتفاوتة ليبرز محور التقوى من أجل تقييم المجتمع الصالح، ومن جملة هذه النماذج:

من مواعظ عيسى عليه السلام لقومه

«يا بني إسرائيل... ألم تسمعوا أنه قيل لكم في التوراة: صلوا أرحامكم وكافئوا أرحامكم، وأنا أقول لكم: صلوا من قطعكم، وأعطوا من منعكم، وأحسنوا إلى من أساء اليكم، وسلّموا على من سبّكم، وأنصفوا من خاصمكم، واعفوا عمّن ظلمكم، كما أنّكم تحبّون أن يُعفى عن إساءتكم، فاعتبروا بعفوالله عنكم. ألا ترون أن شمسه أشرقت على الأبرار والفجّار منكم، وأنّ مطره ينزل على الصالحين والخاطئين منكم، فإن كنتم لا تحبّون إلّا من أحبّكم، ولا تحسنون إلّا إلى من أحسن إليكم، ولا تكافئون إلّا من أعطاكم، فما فضلكم على غيركم؟! وقد يصنع هذا السفهاء الذين ليست عندهم فضول، ولا لهم أحلام....»[٣].

ومن تأمّل في نصائح عيسى عليه السلام لقومه يكتشف أنّه كيف استطاع بهذه الكلمات النورانيّة أن يحوّل الفئة المشرذمة والمتقاتلة إلى جموع موّحدة ومتحابّة،

أحبّته وأطاعته بعدما أحبّ بعضهم بعضاً، وعفا بعضهم عن بعض، وأحسن بعضهم حتى إلى المسيئين منهم، ليؤسّسوا مجتمعاً توحيديّاً ساد العالم كلّه.

مناجاة عيسويّة

وقد ورد في مناجاة الله لعيسى بن مريم عليه السلام: يا عيسى أنا ربّك وربّ آبائك، اسمي واحد وأنا الأحد المتفرّد بخلق كلّ شيء، وكلّ شيء من صنعي، وكلٌّ إليّ راجعون.. أشهد أنّك عبدي من أمتي، تقرّب إليّ بالنوافل، وتوكّل عليّ أكفك، ولا تَوَلَّ غيري فأخذلك.. يا عيسى أحيِ ذكري بلسانك، وليكن ودّي في قلبك.. يا عيسى ارفق بالضعيف، وارفع طرفك الظليل إلى السماء وادعني، فإنّي منك قريب، ولا تذكرني إلّا متضرّعاً إليّ وهمّك واحد، فإنّك متى دعوتني كذلك أُجبك.. يا ابن مريم، لو رأت عينك ما أعددْتُ لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك شوقاً إليه، فليس كدار الآخرة دار تجاور فيها الطيّبون، ويدخل عليهم فيها الملائكة المقرّبون، وهم ممّا يأتي يوم القيامة من أهوالها آمنون، دار لا يتغيّر فيها النعيم، ولا يزول عن أهلها... يا عيسى إن غضبتُ عليك لم ينفعك من رضي عنك، وإن رضيتُ عنك لم يضرّك غضب المتغضّبين عليك.. يا عيسى قل لهم: قلّموا أظفاركم من كسب الحرام، وأصّموا أسماعكم من ذكر الخناء، وأقبلوا عليّ بقلوبكم فإنّي لستُ أريد صوركم.. يا عيسى أدّب قلبك بالخشية، وانظر إلى من أسفل منك، ولاتنظر إلى من فوقك، واعلم أنّ رأس كلّ خطيئة وذنب هو حبّ الدنيا، فلا تحبّها، فإنّي لا أحبّها.. يا عيسى أطب لي قلبك، وأكثر ذكري في الخلوات، واعلم أنّ سروري أن تبصبص إليّ، كن في ذلك حيّاً، ولا تكن ميتاً[٤]..

وقال عيسى عليه السلام: طوبى للذين يتهجّدون من اللّيل، أُولئك الذين يرثون النور الدائم من أجل أنّهم قاموا في ظلمة الليل على أرجلهم في مساجدهم،

يتضرّعون إلى ربّهم رجاء أن ينجيهم في الشدّة غداً[٥].

وهذا تأديب آخر ودعوة من الله إلى التوحيد بكلّ معانيه، وتبيين لطرق الاتّصاف بالعبوديّة له بأداء النوافل وإحياء الذكر والتوكّل عليه والتضرّع إليه كي ينطلق لإقامة دين الله وشرعه في أرضه، وبناء مجتمع آمل بنعمة دائمة، ورضا المعبود.

مناجاة تحمل في طيّاتها دروس الحياة النزيهة والطاهرة، لا يشوبها حرام، ولا تكتسي ثوب الظلم بهدر حقوق الآخرين، حياة في قلوب خاشعة وعقول منفتحة وجوارح مجتهدة وحوائج مؤدّبة، بالتسليم إلى خالقها، تسعي لتصل إلى النور الدائم من عمق ظلمات الليل رجاء النجاة.

تأديب موسوي

وقد ورد في تحف العقول: يا موسى أنت عبدي وأنا إلهك، لا تستذلّ الحقير الفقير، ولا تغبط الغنيّ، وكن عند ذكري خاشعاً، عند تلاوته برحمتي طامعاً.. يا موسى عجّل التوبة، وأخّر الذنب، وتأنّ في المكث بين يديّ في الصلاة، ولا ترجُ غيري، اتّخذني جنّةً لك للشدائد، وحصناً لملمّات الأمور.. يا موسى عبادي يدعوني على ما كانوا بعد أن يقرّوا بي أنّي أرحم الراحمين، أُجيب المضطرّين، وأكشف السوء، وأبدّل الزمان، وآتي بالرخاء، أشكر اليسير، وأُثيب بالكثير، أُغني الفقير، وأنا الدائم العزيز القدير.. يا موسى انظر إلى الأرض فإنّها عن قريبٍ قبرك، وارفع عينيك إلى السماء فإنّ فوقك فيها ملِكاً عظيماً، وابكِ على نفسك ما كنتَ في الدنيا، وتخوّف العطب والمهالك، ولا تغرّنّك زينة الدنيا وزهرتها، ولا ترضَ بالظلم، ولا تكن ظالماً، فإنّي للظالم بمرصد حتى أديل منه المظلوم[٦]..

يشير ربّ العزة إلى عباده بالبقاء على الصلة معه سبحانه، ويدعوهم إلى

المساواة في الحياة الإنسانيّة في مختلف جوانبها الفرديّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والعباديّة، المادّيّة والمعنوية.. وإلى عدم فكّ هذه الصلة التي بدونها يسقط الإنسان، الفرد والمجتمع، إلى هاوية لا تُعرف عقباها.

صحيح أنّه يخاطب نبيّه عليه السلام، ولكنّ حقيقة هذه المناجاة هي رسم استراتيجيّة للحياة الخالدة التي تربط بين دنيا الإنسان وآخرته، وعدم فقدان الفرص المؤاتية والمساعدة على بناء حياة طيّبة في دنيا، حياة ممزوجة بالخوف والرجاء مفعمة بالثقة والاطمئنان برحمة ربّه بعيدة عن الغفلة واليأس والهلاك والغرور والظلم و..

الوحدة في دعاء الأنبياء عليهم السلام

وقد وردت في القرآن الكريم آيات مباركة تتحدث عن دعاء الأنبياء عليهم السلام في حقّ أبنائهم وعائلتهم ومجتمعهم، جاءت كلّها بصيغة الجمع تأديباً للعباد وتربية لهم، كي تكون أدعيتهم كسائر العبادات والمعاملات، تنظر إلى الاجتماع والأُخوّة والوحدة الإنسانيّة؛ لأنّ كلّ خير، شئنا أم أبينا، سوف ترجع إيجابيّاته على الجميع، وكذلك الشرّ إذا حلّ بقوم أو مجتمع سوف يأكل الأخضر واليابس، وهي سنّة كونيّة قائمة، وطبيعيٌّ أنّ السنن الإيجابيّة تشمل الجميع، والعكس صحيح أيضاً: «من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها».

وهنا نشير إلى بعض الآيات الواردة على لسان الأنبياء عليهم السلام دعاءاً للجميع، وهي كثيرة:

منها: ما ورد على لسان نبيّنا آدم عليه السلام: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ }[الأعراف:٢٣].

فهو تأديب إلهيّ موجّه إلى كافّة بني البشر، يعني علينا حسن الدعاء في

الطلب لجميع المؤمنين من رحمة ومغفرة و.. وكلّ نعمة أنعمها الله على عباده الصالحين..

ويدعو إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} [البقرة:١٢٧ـ١٢٨].

وأيضاً {...قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [الممتحنة:٤ـ٥].

فهذا الأسلوب الناجع الذي يدعو إليه الأنبياء وقادة الأديان السماوية في مسيرة حركة الإنسان إلى ربّه وتكوين كتلة واحدة، حتى لو كانت مظاهرها المادّيّة متفاوتة ومختلفة.

وقد دعا شعيب عليه السلام بخير ما يكون من ربّه بالفتح قائلاً: {قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ} [الأعراف:٨٩].

وفي دعاء موسى عليه السلام خوفاً على قومه من غضب فرعون الذي كان يدّعي الربوبيّة العليا، واضطهد، وقتل، واستحيي النساء، واستكبر في الأرض. يقول عليه السلام: {قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ} [طه:٤٥].

أدعية النبي ' وأهل بيته عليهم السلام

إنّ اتّباع النبي ' في العمل والقول والسيرة فرض إلهيّ يلزم كلّ مؤمن ومؤمنة، وهذا ما أكّده القرآن الكريم بقوله تعالى: {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ

﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

ونهج أهل بيته عليهم السلام لاينفكّ عن نهجه ' ، لذلك سلكنا ذكر دعائهم عليهم السلام في مسلك واحد؛ لأنّ التأسّي بهم هو التأسّي برسول الله ' امتداداً للمشروع الإلهيّ.

والدعاء بالمأثور عن النبي ' وآله عليهم السلام يفتح للعبد باباً واسعاً للارتباط بمعبوده؛ لأنّهم عليهم السلام باب مدينة الرسول ' ، وهو خليفة الله على أرضه، وبيده مفاتيح الارتباط بالله ذي الأسماء الحسنى، وعدم معرفة نهجهم يوجب الحرمان من نعمة سلوك السبل الإلهيّة.

صحيح أنّنا كلّفنا بالدعاء الذي هو ارتباط مباشر بين العبد وربّه، لكنّ آداب الارتباط وكيفيّتها علينا أن نأخذها من الذين هم أكثر قرباً من حضرة ذي الجلال والإكرام.

نشير هنا إلى بعض الأدعية المأثورة عن النبي ' التي جاءت بصيغة الطلب الجمعي:

«**اللّهمّ إنّا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كلّ إثم، والغنيمة من كلّ برّ، والفوز بالجنّة، والنجاة من النار**».

وعنه ' : «**اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا، وارضَ عنّا، وتقبّل منّا، وأدخلنا الجنّة، ونجّنا من النار، وأصلح لنا شأننا كلّه**».

وإذا تمعنّا في كتب الأدعية الواردة عنهم عليهم السلام لرفدنا بأعذب ما يمكن للطالب أن يرتوي به من كلمات وصور تنقل الإنسان المحبّ والعاشق إلى مراده ومولاه، حتى التي جاءت على نحو الانفراد، فهي بالنهاية تحمل روح الجمع والجماعة، يكمن فيها سبيل الوحدة في الإرادة والخطاب والأداء المؤدّي إلى التوحيد الربوبيّ..

وليس من الصدفة أن يكون أوّل الأدعية في كتاب (مفاتيح الجنان) للشيخ

عباس القمّيّ دعاءاً وشعاراً يهتف لوحدانيّة الله وتوحّد الأمّة واصطفافها: «**لا إله إلّا الله إلهاً واحداً ونحن له مسلمون، لا إله إلّا الله ولا نعبد إلّا إيّاه مخلصين له الدين ولو كره المشركون، لا إله إلّا الله ربّنا وربّ آبائنا الأوّلين، لا إله إلّا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصرعبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير**»(٧).

والإسلام يدعو إلى الوحدانيّة الإلهيّة، والإخلاص هو روح العمل الإسلاميّ، وكلّما تصفّحنا كتب الأدعية المأثورة والمفعمة بكلمات أئمّة الهدى والصالحين كلّما شاهدنا أكثر الدعاء الجماعي، والذي لا يقتصرعلى المسلمين، بل ليتعدّى كافّة أبناء الإنسانيّة والبشريّة.

وقد روى الكفعمي في المصباح وفي البلد الأمين، كما روى الشيخ الشهيد في مجموعته عن النبي ' أنّه قال: من دعا بهذا الدعاء في رمضان بعد كلّ فريضة غفر الله له ذنوبه إلى يوم القيامة:

«**اللّهمّ أدخل على أهل القبور السرور، اللّهمّ أغنِ كلّ فقير، اللّهمّ أشبع كلّ جائع، اللّهمّ اكسُ كلّ عريان، اللّهمّ اقضِ دَين كلّ مدين، اللّهمّ فرّج عن كلّ مكروب، اللّهمّ ردّ كلّ غريب، اللّهمّ فكّ كلّ أسير، اللّهمّ أصلح كلّ فاسد من أمور المسلمين، اللّهمّ اشفِ كلّ مريض، اللّهمّ سدّ فقرنا بغناك، اللّهمّ غيّر سوء حالنا بحسن حالك، اللّهمّ اقضِ عنّا الدَين وأغننا من الفقر، إنّك على كلّ شيء قدير**»(٨).

والمتأمّل في عبارات الدعاء يكتشف كيف يدعو الرسول ' لكافّة المحتاجين من الناس ولا يشير إلى دينهم ومذهبهم، يدعو لهم بالانفراج في المواطن الصعبة، من هول القبر، والخلاص من الفقر والجوع والعرى والكرب، والغربة والأسر، وأداء الدين، ومن ثمّ يلتفت إلى المسلمين بالدعاء لهم على إصلاح الفاسد من أمورهم، وشفاء المريض، وسدّ الفقر، وتغيير الأحوال و...

إنّ هذه التربية النبويّة هي التي تستجلب الأعداء قبل الأصدقاء، والمحبّين نحو رسول الله ' ، ولو لم يكن كذلك لما كان ' رحمةً للعالمين، وما التفّت حوله قلوب العاشقين، وانشدّ إليه الواهون، واصطفّ خلفه المريدون، وقد قال سبحانه وتعالى في حقه: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ } [آل عمران:١٥٩].

أضف إلى ذلك عندما نراجع دعوات الأيّام الرمضانيّة للنبيّ الأكرم ' كما هو منقول عن ابن عباس، بها يقدّم ' مجتمعاً نموذجيّاً يحمل أرقى الصفات ليكون الأسوة لكافّة البشريّة ويحقق مصداق { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }[البقرة:١٤٣]، مجتمع يُعرف بالصيام والقيام، والوعي والتوبة، والعفو، والرضا، وقراءة القرآن، والابتعاد عن سخط الله ونقمته، والبعد عن السفاهة، وطلب الخير، وكثرة الذكر، وأداء الشكر، والسعي إلى المغفرة، والدخول في الصالحين القانتين، والترحّم على الأيتام وإطعام المساكين، وإفشاء السلام، وصحبة الكرام، والاهتداء بالبراهين الساطعة، والتوكل على الله، ومحبّة الإحسان، وكره الفسوق والعصيان، والتزيين بالستر والعفاف، والستر بلباس الكفاف والقنوع، والحمل على العدل والانصاف، والأمن من كلّ مخوف، والطهارة من الدنس والأقذار، والصبر على كائنات الأقدار، والتوفيق لاتّباع التقوى وصحبة الأبرار، والقيام لصالح الأعمال، والتنبّه لبركات الأسحار، والعرفان بقلوب منوّرة، والجدّ لدخول جنّات الرحمن، وغلق أبواب النيران بالابتعاد عن همزات الشيطان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ليرتقي إلى قمّة الإنسانيّة بفضل ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر و...

يسعى الإنسان إلى تحقيق هذا المجتمع المثالي من خلال الأدعية المأثورة

والمنقولة عن نبي الرحمة ' وأهل بيته عليهم السلام لتكون مناراً له في حياته الدنيوية ومآلاً لآخرته.

وهل يغيب على ذي لبّ وحكيم دعاء أبي الأحرار الحسين بن علي ' في عشيّة عرفة كما نقله بشر وبشير ابنا غالب الأسدي، قالا: كنّا مع الحسين بن علي عليه السلام عشية عرفة فخرج عليه السلام من فسطاطه متذلّلاً خاشعاً، فجعل يمشي هوناً هوناً حتى وقف وهو وجماعة من أهل بيته وولده ومواليه في مسيرة الجبل مستقبلاً البيت رافعاً يديه تلقاء وجهه، كاستطعام المساكين، ثمّ قال: «**الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع**...»، وبعد ذكر أروع مناجاة بين العبد وربّه تتجلّى فيها آيات الخشوع من العبد والألوهيّة من ربٍّ رحمن رحيم.. يقول: «**اللّهمّ اقبلنا في هذا الوقت منجحين مفلحين، مبرورين غانمين، ولاتجعلنا من القانطين.. ولا تردّنا خائبين، ولا من بابك مطرودين، يا أجود الأجودين....اللّهمّ ونقّنا وسدّدنا واقبل تضرّعنا، يا خير من سُئل، ويا ارحم من استُرحم..**».

وبهذا الدعاء يرسم خارطة طريق الفرد المؤمن والمجتمع الصالح، يرسم صورة كاملة عن ضعف الإنسان الذي قد يظنّ أنّه فعّال ما يشاء من جهة، ويقدّم لوحة فنّيّة عرفانيّة لربّ العزّة والجلال، العفوّ الغفور الرؤوف الرحيم.. بالدعاء الحسيني يكتشف الإنسان والمجتمع استراتيجيّة الحياة بعد معرفة نقاط الضعف والقوّة وكيفيّة الارتقاء إلى قمّة الكرامة والإنسانيّة.

وإليك صورة أُخرى عن الدور التربويّ للدعاء في تكوين مجتمع ينهج المسير الوحدويّ ليصل إلى أعلى درجات القرب والعبوديّة.

وقد ورد بأسناد معتبرة عن جابر عن الباقر عليه السلام أنّه زار الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام قائلاً: «**السلام عليك يا أمين الله.. إلى أن قال: اللّهمّ إنّ قلوب المخبتين إليك والهة، وسبل الراغبين إليك**

شارعة، وأعلام القاصدين إليك واضحة، وأفئدة العارفين منك فازعة، وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأبواب الإجابة لهم مفتّحة، ودعوة من ناجاك مستجابة، وتوبة من أناب إليك مقبولة، وعبرة من بكى من خوفك مرحومة، والإغاثة لمن استغاث بك موجودة، والإعانة لمن استعان بك مبذولة، وعداتك لعبادك منجزة، وزلل من استقالك مقالة، وأعمال العاملين لديك محفوظة، وأرزاقك إلى الخلائق من لدنك نازلة، وعوائد المزيد اليهم واصلة، وذنوب المستغفرين مغفورة، وحوائج خلقك عندك مقضّية، وجوائز السائلين عندك موفّرة، وعوائد المزيد متواترة، وموائد المستطعمين معدّة، ومناهل الظماء مترعة»[٩].

إنّ كلّ جملة من هذه الأدعية هي في الواقع مدرسة لتعليم ولتربية المجتمع الإسلاميّ، تقوده إلى تطهير القلب والرغبة نحو المعبود وقصده والاعتماد عليه والانقطاع عمّن سواه، وتجعله يعيش روح الأمل في غفران ذنوبه وتجديد ثوب الحياة بقبول توبته، والاستعانة والاستغاثة بربّ العزة. ما يقرأه الإنسان مُقَولبٌ بالدعاء لكنّه يحمل السبل المتنوّعة التربويّة لإيجاد مجتمع موّحد ونموذجيّ.

لذلك يؤكّد سيّد عرفاء عالمنا المعاصر الإمام الخميني الراحل: على العلماء أن يكشفوا حقائق دعاء ليلة عرفة للمجتمع الإسلاميّ، فإنّ القرآن نزل بلسانه الخاصّ، وأمّا الدعاء فهو القرآن الصاعد، وكلّ ما يحتاجه الإنسان سيحصل عليه في هذا الدعاء. إنّ لغة الدعاء تختلف عن لغة الأحكام ولغة الفلسفة ولغة العرفان، ولغة الدعاء فوق كلّ هذه اللّغات، لكنّها تحتاج إلى من يفهمها، فعلى من يفهم لغة الدعاء أن ينبّه الآخرين، كما أنّ القرآن نعمة إلهيّة يتنعّم من فضله، لكنّ تنعّم النبي ’ من القرآن يختلف عن تنعّم الآخرين منه (إنّما يعرف القرآن من خوطب به)[١٠]، فالبعض لايعرف منه شيئاً و(البعض لايعرف إلّا القليل)[١١].

ومن روائع الأدعية الواردة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتي تقرأ في الأعياد، وبخاصّة الجمعة: «دعاء الندبة». وهذا الدعاء في الحقيقة يرسم خطّ المستقبل للمجتمع المسلم وخصوصيّاته، وقد جاء فيه مبيّناً حالة المجتمع الملتزم بظهور الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه وقد ورد فيه:

أين المعدّ لقطع دابر الظلمة؟ أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج؟ أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان؟ أين المدّخر لتجديد الفرائض والسنن؟ أين المتخيّر لإعادة الملّة والشريعة؟ أين المؤمّل لإحياء الكتاب وحدوده؟ أين محيي معالم الدين وأهله؟ أين قاصم شوكة المعتدين؟ أين هادم أبنية الشرك والنفاق؟ أين مبيد أهل الفسوق والعصيان والطغيان؟..[١٢].

إنّ الدعاء هنا دعوة للمجتمع السير على نهج الامام المهدي المنتظر؛ لأنّ أفضل الأعمال انتظار الفرج، والانتظار هو إيجاد الأرضيّة المناسبة لظهور صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه، والأرضيّة لا تحقّق إلّا بالعمل من أجل تثبيت الخصائص المذكورة في هذا الدعاء، من مقارعة الظلمة، والاعتدال، وعدم الاعوجاج عن صراط الحقّ، وإحياء الفرائض والسنن..

ومن الواضح أنّ هذه الأمور مقدّمات لتهيئة الأرضيّة اللّازمة لظهوره، والادّعاء لوحده لايمكن أن يحقّق أمنية الداعي، وبالعصيان وارتكاب الذنوب لايقترب الإنسان إلى ربّه، والطاعة هي الحلّ الوحيد لترجمة الأماني إلى الواقع: «إنّ المحبّ لمن أحبّ مطيع».

أَوَلا نردّد في دعاء العهد «**اللّهمّ اجعلني من أنصاره وأعوانه والذابّين عنه والمسارعين إليه في قضاء حوائجه، والمحامين عنه، والسابقين إلى إرادته، والمستشهدين بين يديه**»، ولا يمكن الوصول إلى هذه المراتب إلّا بنيّةٍ خالصة وجهد دؤوب وجهاد مستمرّ وقربة إلى الله سبحانه.

لقد تطرّقنا إلى بعض ما ورد على لسان الأئمّة الهداة من الأدعية المأثورة

لنؤكّد أنهم عليهم السلام إلى جانب الدعاء الفرديّ والذي يتحرك في خطّ التربية الفرديّة والتزكية والتهذيب المؤدّي بالعبد إلى إقامة مجتمع صالح، بعيداً كلّ البعد عن الصفات الرذيلة، ومهيّئاً لتشييد نظام مبنيٍّ على القيم الإنسانيّة والإسلاميّة، جهدوا على تربية الأمّة كيلا تغفل عن الدعاء الجماعي لتوطيد أواصرالأمّة الواحدة وتأكيد ما جاء به القرآن النازل بما يصعد من الأرض من دعاء مأثور عنهم عليهم السلام لتكون مسيرة الإنسان بنّاءة ومتكاملة، من أجل بناء دنيا قائمة على العدل والإنصاف لتكون مزرعة لآخرة يجتمع فيها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصلحاء وحسن أُولئك رفيقاً.

وفي الختام نشير إلى بعض ماجاء في دعاء زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام لأهل الثغور : «**اللّهمّ صلّ على محمّد وآله، وكثّر عدّتهم، واشحذ أسلحتهم، واحرس حوزتهم، وامنع حومتهم، وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواتر بين ميرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، واعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر، والطف لهم في المكر.... اللّهمّ اشغل المشركين بالمشركين عن تناول أطراف المسلمين، وخذهم بالنقص عن تنقصهم، وثبطهم بالفرقة عن الاحتشاد عليهم..**».

* * *

الهوامش:

(١)حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة٦: ٤٨٩.

(٢)الآصفي، محمّد مهدي، الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام: ص٣٠٠.

(٣)الحراني، تحف العقول: ص٥٠٣؛ الإنجيل المقدس: ص١٣، دارالكتاب المقدّس في الشرق الأوسط.

(٤)المصدرالسابق: ص٤٩٦ـ٥٠٠.

(٥)المصدر نفسه:ص٥١٠.

(٦)المصدر نفسه:ص٤٩٦.

(٧)القمّيّ، مفاتيح الجنان:ص٦١، منشورات دارالثقلين، لبنان.

(٨) المصدر نفسه:ص٢٣٥.

(٩)المصدر نفسه:ص٤٢٣.

(١٠)المجلسيّ، بحار الأنوار٢٤: ٢٣٧.

(١١)صحيفة امام، مجموعة آثار الإمام الخميني (بالفارسية)١٩: ٣٥٥.

(١٢)مفاتيح الجنان:ص٦٠٩.

الدعاء
في الشرائع السماوية

الدكتور: لبيب بيضون (*)

ما هو الدعاء؟

الدعاء في اللغة: النداء، ودعاء العبد ربّه: أن يناديه لطلب أو لقُربة. قال سبحانه: {وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ}[الكهف:٢٨]، وقال: {أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ} [النمل:٦٢].

وفي هذه الآيات وغيرها ورد الدعاء بمعنى النداء، وكذا في الروايات، وليس معناه (الطلب) كما يتبادر إلى الأذهان اليوم.

الدعاء مخّ العبادة:

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات:٥٦]. فمن أهمّ فصول العبادة الدعاء. يؤكّد ذلك قوله سبحانه: {قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ}[الفرقان:٧٧].

(*) كاتب وباحث إسلامي، ومدير كلّيّة الشريعة في الجامعة العالميّة للعلوم الإسلامية في لندن/ فرع سوريا.

ولعلّ الشريعة أقرّت الدعاء من أجل أن يرتبط العبد بربه، ويستمدّ منه حوائجه في كلّ الأحوال ويذكره دائماً. وهذا نوع من العبادة، والرسول ' يقول: «**الدعاء مُخّ العبادة**».

والقرآن الكريم سمّى الدعاء عبادة، حيث قال: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }[غافر:٦٠]، والعبادة في الآية هي الدعاء، كما ورد في تفسيرها عن رسول الله ' وعن الإمام زين العابدين عليه السلام.

عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: إنّ الله عزّوجلّ يقول: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }، قال: هو الدعاء، وأفضل العبادة الدعاء. قلت: {إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ}[التوبة:١١٤]، قال: الأوّاه هو الدعاء[1].

يقول الصادق عليه السلام: قال النبيّ ' : أفضل عبادة أمتي بعد قراءة القرآن، الدعاء. ثمّ قرأ: { وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ }[غافر:٦٠]، ألّا ترى أنّ الدعاء هو العبادة!.

تعاليم في صحف موسى عليه السلام

في الصحيفة الخامسة من صحف موسى الأربعين:

يا بني آدم، ما خلقتكم لأستكثر بكم من قِلّة، ولا لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستعين بكم على أمر عجزتُ عنه، ولا لمنفعة ولا لدفع مصيبة؛ بل خلقتكم لتعبدوني كثيراً، وتشكروني طويلاً، وتسبّحوني بكرةً وأصيلاً. فلو اجتمع أوّلُكم وآخركم، وكبيرُكم وصغيركم، وإنسُكم وجِنُّكم، وحيُّكم وميّتكم، على طاعتي؛ لم يزددْ في ملكي مثقالُ ذرّة، ولو اجتمعتم كذلك على معصيتي، لم يَنْقُص في ملكي مثقالُ ذرّة.

وفي الصحيفة ٢٩ من صحف موسى عليه السلام، يقول تبارك وتعالى:

يابن آدم، إنما أنت ثلاثة أقسام: فواحد لي، وواحد لك، وواحد بيني وبينك. فأمّا الذي لي، فروحك. وأمّا الذي لك، فعملك. وأمّا الذي بيني وبينك، فمنك الدعاء، ومنّي الإجابة.

الدعاء سلاح المؤمن

إذاً فالدعاء نوع من العبادة والارتباط بين العبد وربّه، وهذا الارتباط له الأثر الكبير في بثّ روح الطمأنينة في نفس الإنسان. وأولئك المحرومون من نعمة هذه العبادة فاقدون لسند عظيم وعونٍ كبير في مواجهة المشاكل، فهم كمن هو في الهيجا بغير سلاح.

يقول رسول الله ' :الدعاء سلاح المؤمن[٢].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: الدعاء ترس المؤمن[٣].

ويقول الإمام علي الرضا عليه السلام لأصحابه: عليكم بسلاح الأنبياء. فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: الدعاء[٤].

وروي عن رسول الله ' قوله: ألا أدلّكم على سلاح ينجيكم من عدوّكم، ويَدِرّ رزقكم؟ قالوا: نعم. قال: تدعون بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء[٥].

ويقول الإمام علي عليه السلام: ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء[٦].

لو أمعنّا النظر في هذه الأحاديث وأمثالها، لألفينا أنّ الدعاء له أثر نفسي عظيم، سواء أطلب الإنسان في دعائه من الله شَيْئاً أم لم يطلب. وهذه حقيقة فهمها علماء النفس اليوم بوضوح، وكتبوا حولها المقالات والبحوث القائمة على أساس الإحصائيّات التي دلّت هذه الإحصائيّات على أنّ الذين يعيشون

عالم الدعاء والاتّصال بالله قلّما يعتريهم اليأس والسأم، وقلّما يُهزمون أمام الحوادث المؤلمة، وقلّما يفقدون الآمال بالمستقبل.

هذه الحقيقة قرّرها الإمام الباقر عليه السلام في حديث مخاطباً به أحد أصحابه، قال: ألا أخبرك بما فيه شفاء من كلّ داءٍ حتى السّام؟ قال: بلى. قال: الدعاء.

فضل الدعاء والحثّ عليه

قال تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } [البقرة:١٨٦].

وقال النبيّ ' : عمل البرّ كلّه: نصف العبادة، والدعاء نصف[٧].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه الحسن عليه السلام: واعلم أنّ الذي بيده خزائن السموات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفّل لك بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك[٨]...

وقال عليه السلام: ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة، ولا ليفتح على عبد الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة[٩].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: ما من شيء أحبّ إلى الله من أن يُسأل[١٠].

وفي الحديث القدسي، يقول تعالى: يا موسى! سلني كلّ ما تحتاج إليه؛ حتى علف شاتك، وملح عجينك[١١].

وقال النبيّ ' : ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسع نعله[١٢].

أفضل أوقات الدعاء

فإذا أراد الإنسان أن ينجو من مكائد الشيطان ويتّخذ سبيل الرشد سبيلاً، عليه أن يكثر من ذكر الله تعالى، وأن يدعو الله للتخلّص من كيد الشيطان ومكره، في مواطن يستجاب فيها الدعاء.

فعن أبي عبد الله عليه السلام: يستجاب الدعاء في أربعة مواطن: في الوتر، وبعد الفجر، وبعد الظهر، وبعد المغرب. وقد قال ' : وخير وقت دعوتم الله عزّوجل فيه: الأسحار.

وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي عمير عن محمّد بن أذينة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ في الليل لساعة ما يوافقها عبدٌ مسلم ثمّ يصلّي ويدعو الله عزّوجلّ إلّا استجاب له في كلّ ليلة. قلت: أصلحك الله، وأيّ ساعة هي من اللّيل؟ قال: إذا مضى نصف اللّيل، وهو السدس الأوّل من أوّل النصف.

استجابة الدعاء

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يدعوه تضرّعاً وخفية في كلّ وقت، ووعدهم بالإجابة، فقال: { ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } [الأعراف:٥٥].

لكنْ لاستجابة الدعاء شروط ومتعلّقات.

يقول النبيّ ' : لَتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو لَيسلطنّ الله شراركم على خياركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم(١٣).

وروي أنّ موسى عليه السلام رأى رجلاً يتضرّع تضرّعاً عظيماً، ويدعو رافعاً يديه ويبتهل. فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لو فعل كذا وكذا لما استجيب دعاؤه؛ لأنّ في بطنه حراماً، وعلى ظهره حراماً، وفي بيته حراماً(١٤).

وروي في زبور داود عليه السلام: يقول الله تعالى: يابن آدم، تسألني وأمنعك لعلمي بما ينفعك. ثمّ تلحّ عليّ بالمسألة فأعطيك ما سألت، فتستعين به على معصيتي، فأهمُّ بهتك سترك، فتدعوني فأستر عليك. فكم من جميلٍ أصنع معك! وكم من قبيح تصنع معي! يوشك أن أغضب عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً(١٥).

وقال الإمام علي عليه السلام لنوف البكالي: يا نوف، إن داود عليه السلام قام في مثل هذه الساعة من اللّيل، فقال: إنّها ساعة لا يدعو فيها عبد إلّا استجيب له، إلّا أن

يكون عشّاراً (هو صاحب المكوس الذي يأخذ أعشار المال)، أو عريفاً، أو شرطيّاً، أو صاحب عُرطبة (وهي الطنبور)، أو صاحب كوبة (وهي الطبل أو الدربكة)[١٦].

الدعاء نبراس الأنبياء

كان الدعاء الملجأ الهامّ للأنبياء والأولياء في المواقف الصعبة والحالات الحرجة. وقد استعمله الأنبياء والصالحون منذ آدمعليه السلام. وقد ذكر القرآن منه نماذج كثيرة.

منها: قوله عن آدم وحواءعليهما السلام {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف:٢٣].

ومنها: قوله عن نوحعليه السلام: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح:٢٦]، {وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنبياء:٧٦ـ٧٧].

ومنها: قوله عن إبراهيمعليه السلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ}... إلى قوله: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم:٣٥ـ٤١].

ومنها: قوله عن أيوبعليه السلام: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء:٨٣ـ٨٤].

ومنها: قوله عن يونس عليه السلام: { وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ } [الأنبياء:٨٧ـ٨٨].

ومنها: قوله عن زكريا عليه السلام: {كَـٓهيعَـٓصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا } [مريم:١ـ٤]، {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ } [آل عمران:٣٨]، { وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ } [الأنبياء:٨٩ـ٩٠].

نماذج لبعض الأدعية

دعاء يوسف عليه السلام في الجبّ:

يا عدّتي في شدّتي، ويا مؤنسي في وحشتي، ويا راحم غربتي، ويا كاشف كربتي، ويا مجيب دعوتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ ارحمْ صِغر سنّي، وضعف ركبتي، وقلة حيلتي. يا حيّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام(١٧).

دعاء النبي ' يوم بدر، وهو من دعاء الحسين عليه السلام أيضاً قبيل استشهاده: **«اللّهمّ أنت ثقتي في كلّ كرب، وأنت رجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من كرب يضعف عنه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه القريب، ويشمت به العدوّ، وتُعييني فيه الأمور؛ أنزلتُه بك وشكوته إليك،**

راغباً فيه إليك عمّن سواك، ففرّجته وكشفته عني وكفيتَنيه، فأنت ولي كلّ نعمة، وصاحب كلّ حاجة، ومنتهى كلّ رغبة»[18].

دعاء الصادق عليه السلام لمّا استدعاه لمنصور ليقتله:

حسبيَ الربُّ من المربوبين. حسبيَ الخالق من المخلوقين. حسبيَ الرازق من المرزوقين. حسبيَ الله ربُّ العالمين. حسبي مَن هو حسبي. حسبي مَن لم يزل حسبي. حسبيَ الله لا إله إلا هو، عليه توكلتُ، وهو ربُّ العرش العظيم. اللّهمّ احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام... اللّهمّ إنّي أدرأ بك في نحره، وأعوذ بك من شرّه[19].

* * *

الهوامش:

(١) الريشهريّ، محمّد، ميزان الحكمة٣: ٢٤٥.

(٢) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٤٦٨، باب: أنَّ الدعاء سلاح المؤمن، الحديث: (١)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.

(٣) المصدر نفسه، الحديث: ٤.

(٤) المصدر نفسه، الحديث: ٥.

(٥) المصدر نفسه، الحديث: ٣.

(٦) نهج البلاغة: ٤٣٣.

(٧) المتّقي الهندي، كنز العمّال٢: ٦٥.

(٨) نهج البلاغة، الخطبة٩٣.

(٩) نهج البلاغة٤: ١٠٢.

(١٠) المجلسيّ، بحار الأنوار٧٥: ١٤١.

(١١) المصدر نفسه٩٣: ٣٠٣.

(١٢) كنز العمّال٢: ٦٥.

(١٣) الطوسيّ، الأمالي٢: ١٣٦.

(١٤) الراوندي، الدعوات: ص٢٤.

(١٥) الحلّيّ، عدّة الداعي: ص١٩٨.

(١٦) نهج البلاغة٤: ٢٤.

(١٧) الرازي، التفسير الكبير٣٢: ١٩٢.

(١٨) ابن طاووس، مهج الدعوات:ص٨٧.

(١٩) المصدر نفسه:ص٢٢٦.

العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة

في سورة الحجرات

الأستاذة: سميرة علي محمّد (*)

تمهيد

ليس المنهج القرآني مجرّد منهج تفكير وتدبّر، أو منهج خشوع وتضرّع إلى الله تعالى للفوز بالجنان والنجاة من النار، وإنّما هو منهج حركة وعمل وعلاقات تنشأ من الارتباط بالله تعالى، وتقوم على أساس الاحترام والتكريم والطاعة للقيادة الربّانية، وإقامة العلاقات مع الآخرين على أساس التكافل والتراحم والأمانة والمودّة، وتجنّب كلّ فعل أو موقف يعكّر صفو هذه العلاقات.

وقد تطرّقت سورة الحجرات إلى العلاقة بين المسلمين والقيادة الربّانية المتمثّلة برسول الله ' ، وهو الشخصيّة الكاملة في إيمانها وإخلاصها ووعيها وحركتها العمليّة في الواقع، والعلاقة المطلوبة هي علاقة الاحترام والطاعة والاستسلام المطلق على مستوى الشعور ومستوى الواقع الموضوعي.

وتطرّقت إلى الاحتياط في الحكم على الآخرين وعدم الانسياق وراء الخبر

(*) باحثة إسلاميّة.

الكاذب الذي يخلق الاضطراب في العلاقات، وإلى الإصلاح بين المتنازعين، وتطرّقت إلى حقيقة الانتماء والولاء للجماعة الإسلاميّة أو للكيان الإسلاميّ، وإلى التعارف، وإلى حرمة الممارسات السلبيّة التي تؤدي إلى التنافر والتقاطع والتدابر داخل المجتمع الواحد.

الاستسلام المطلق للقيادة الربانية

قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ} [الحجرات: ١].

والمراد أن لا يقترح على الله ورسوله في الأمور، وترك العجلة والإسراع أمام أمر الله ورسوله ' ، وأن لا يتقدّموا عليهما في أيّ عمل وقول، ولا يعجل أحد عندهما، بل ينبغي أن يُترك الأمر للقائد نفسه، لا سيّما إذا كان القائد معصوماً لا يغفل عن أيّ شيء، كما لو سُئل المعصوم، فإنّه لا يحقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم، وفي الحقيقة: إنّ الآية جمعت كلّ هذه المعاني في طيّها[1].

والآية الكريمة تأمر المؤمنين بالاستسلام المطلق لله ولرسوله، وهو الاستسلام الواعي المتعقّل عن قناعة وقبول ورضا، لا عن جزع وإكراه أو إجبار، فيستسلم المؤمن وهو مستأنس بالاستسلام؛ لأنّه يطيع الله تعالى ورسوله ' ، والاستسلام تجسيد للتقوى الحقيقيّة، وهي تقوى مطلقة لا تقتصر على التقوى في الأخلاق الرئيسة المعهودة في الذهن، بل تتعدّاها إلى جميع الأمور، ومنها الطاعة والاستسلام.

والطاعة والاستسلام والانقياد المطلق لم تأتِ من فراغ، أو من مجرّد طاعة سلسلة المراتب كما هو الحال في مؤسّسات الدول الوضعية، بل هي طاعة لمن كان يتمتّع بأرقى خصائص ومؤهّلات الشخصيّة الكاملة المعصومة في سكناتها

وحركاتها، والمعصومة في وعيها وإدراكها وتخطيطها، والمعصومة في معرفة الشخصيّات والتيّارات والأحداث والمواقف، والمعصومة في تحديد الأولويّات ومعرفة القدرات الممكنة والإنجازات المتحقّقة، والمعصومة في كشف الأخطاء في بدايتها والتعرّف على حقيقتها، والمعصومة في اتّخاذ القرار المناسب في الظرف والوقت المناسب.

ومثل هذه القيادة غير محتاجة إلى رأي الآخرين ومشورتهم واقتراحاتهم، ولذا يجب على المؤمنين عدم التقدّم عليها في كلّ شيء، باستثناء ما تريده هي، فقد تستشير الآخرين تطييباً لخواطرهم وتدريباً لهم على المشاركة في الرأي والتخطيط، أو لاستطلاع استعدادهم للعمل والمواصلة والتضحية، وفي هذه الحالة يجوز الاقتراح والاستشارة؛ لأنّها من مصاديق الطاعة والاستسلام.

ويُلحق بهذه الطاعة طاعة من نصّبه الله تعالى ورسوله ' وهم أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الامام محمد الباقر عليه السلام قال: «**ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى: الطاعة للإمام بعد معرفته**»[٢].

وفي جميع الأحوال ينبغي الاستسلام في جميع الأمور، سواء كانت أموراً عباديّة بحتة أو أموراً اجتماعيّة أو سياسيّة، ومن الأخطاء التي ارتكبت هي التفريق بين الأمور العباديّة البحتة والأمور السياسيّة.

قال النقيب يحيى بن محمد بن أبي زيد ، وهو على حدّ تعبير ابن أبي الحديد: (لم يكن إماميّ المذهب).

ففي حوار له مع ابن أبي الحديد قال:

«**إنّ القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنّها من معالم الدين، وأنّها جارية مجرى العبادات الشرعيّة، كالصلاة والصوم، ولكنّهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيويّة ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية، وما**

كانوا يبالون في أمثال هذه من مخالفة نصوصه ' إذا رأوا المصلحة في غيرها...»[٣].

وهذا من الأخطاء الخطيرة التي أربكت الوجود الإسلاميّ وكانت سبباً أساسيّاً لإقصاء أئمّة أهل البيت عليهم السلام عن مواقعهم في قيادة الدولة والحكومة.

الاستسلام للفقهاء المصلحين

قال رسول الله ' :«**المتّقون سادة والفقهاء قادة والجلوس إليهم عبادة**»[٤].

وقال الإمام علي عليه السلام: «**الملوك حكّام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك**»[٥].

فالفقهاء امتداد للرسول ولأهل البيت عليهم السلام، وفي ذلك قال الشيخ النراقي:«**كلّ ما كان للنبيّ والإمام... فيه الولاية، وكان لهم ، فللفقيه أيضاً ذلك إلّا ما أخرجه الدليل من إجماع أو نصٍّ أو غيرها**»[٦].

وعلى ضوء ذلك، يجب طاعة الفقيه العادل الكفوء الذي تصدّى لقيادة الأمّة، وتقدّم لأداء مسؤوليّته في توجيهها وإصلاحها وإحقاق حقوقها، بعد اتّصافه بالصفات التي حدّدتها الشريعة، ويجب الاستسلام له مادام يشارك الأمّة آمالها وآلامها، والاستسلام من شأنه أن يوحّد الجهود والطاقات والإمكانات لتصبّ في مصلحة الإسلام العليا، ويجب أن يرجع إليه في جميع الأمور ما دام عادلاً كفوءاً شجاعاً واعياً زاهداً مراعياً للأمّة ويتابع حركتها ولا يضع حاجزاً أو حاجباً بينه وبينها كما كان رسول الله ' وأهل بيته عليهم السلام.

وينبغي أن نربّي ونمرّن أنفسنا وأُسرنا ومجتمعنا على التهيّؤ لطاعة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف والاستسلام المطلق لأوامره وتوجيهاته وإرشاداته، وأن نربّي الجيل الناشيء على ذلك، لتستمر التربية إلى حين ظهوره في الوقت المناسب الذي يحدّده الله تعالى له.

احترام القيادة الربّانيّة

قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ }[الحجرات: ٢].

رفع الصوت ينطوي على أمرين: إمّا نوع استخفاف به وهو الكفر، وإمّا إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه، وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به.

وإنّ من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلّم أخفض من صوت مخاطبه، فمطلق الجهر بالخطاب فاقد لمعنى التعظيم، فخطاب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامّة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة.

احترام القيادة الربّانيّة مسؤولية شرعيّة لا تقتصر على جانب دون آخر، ومن أبسط مصاديق الاحترام هو عدم رفع الصوت أمامها، وعدم الجهر بالقول كما هو المتعارف بالجهر بين الناس المتقاربين في الوعي والمعرفة والسلوك والمواقف، ويأتي الاحترام في غير هذه الأمور من باب الأولويّة.

والقرآن الكريم حينما أوجب الاحترام وربط عدمه بإحباط الاعمال؛ أراد أن تكون العلاقة بين القيادة الربّانيّة وقاعدتها علاقة احترام وتقدير وتكريم وهي مستبطنة للمودّة والمحبّة والرحمة، والاحترام أساس للطاعة والاستسلام للأوامر والتوجيهات، لكي تكون أوامر وتوجيهات ذات قدسيّة خاصّة، وليست مجرد أوامر صادرة من جهة فوقيّة حريصة على طاعتها من قبل القاعدة مهما كانت الوسيلة المتبعة في هذه الطاعة.

التريث في اتخاذ القرار

قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ

لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ } [الحجرات: ٦ـ ٧].

الآية نزلت بحق الوليد بن عتبة حينما أخبر بارتداد بني المصطلق فألحّ جماعة من المسلمين البسطاء السذّج ذوي النظرة السطحيّة على الرسول أن يقاتلهم.

والقرآن ينهاهم عن الأخذ بخبر الفاسق ثمّ يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول الله، وهو مرتبط بالوحي، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم ويتعلّم منكم، ولا تصرّوا وتلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم وليس من مصلحتكم(٧).

في أجواء الصراع بين الجماعة الإسلاميّة وأعدائها والمتربّصين بها، وفي أجواء اختراق الصفّ الإسلاميّ من قبل العناصر المنحرفة والنفعيّة والانتهازيّة، يجب التريّث في اتّخاذ القرار وعدم التسرّع استناداً إلى نبأ غير صادق أو معلومات غير صحيحة، أو الاعتماد على معلومات ما يسمى بـ (المخبر السرّي) فينبغي التأكّد من الخبر ـ وخصوصاً في القرارات الخطيرة ـ وجمع المعلومات من أكثر من جهة، ومن خلال الاستطلاع الكامل، فإذا توفّرت المعلومات المؤكّدة يأتي الدور إلى دراسة القرار قبل اتّخاذه ثمّ عرضه على مقوّمات إصداره، وهي:

١ـ الشرعيّة.

٢ـ الظروف العامّة والخاصّة.

٣ـ المصلحة الإسلاميّة العليا.

٤ـ المصلحة الخاصّة بالجماعة.

الصلح بين الطوائف المتصارعة

قال تعالى: { وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحجرات: ٩].

المعنى: (اقتتلوا) تشمل كلّ أنواع النزاع وإن لم يصل إلى مرحلة القتال والمواجهة العسكريّة، وإنّ من واجب المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين، ولا ينبغي أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوّة الطائفة الباغية، بل ينبغي أن يعقب ذلك الصلح، والتعبير بـ (العدل) يفيد أنّه لو كان هناك حقّ مضاع ممّا يكون منشأ للنزاع فيجب إصلاحه أيضاً[٨].

وحدة المسلمين ضرورة شرعيّة وعقليّة، وهي الأصل في العلاقات بينهم، ويبقى الخلاف والنزاع والصراع حالة استثنائيّة يجب أن تعود إلى الأصل بأسرع وقت لكيلا يتجذّر النزاع ويتحول إلى ممارسات سلبيّة، وخصوصاً النزاع المسلّح الذي تُزهق فيه الأرواح، وتتجذّر فيه الأحقاد والعداوات.

والصلح مسؤوليّة شرعية تقع على عاتق المسلمين، وفي مقدّمتهم القيادة، فإذا لم يتمّ الصلح وأصرّت إحدى الطوائف على القتال أو البغي فيجب مقاتلتها لكي ترجع إلى الأصل، فإن رجعت ينبغي الصلح بينهما بالعدل، أي: التوصّل إلى حلٍّ نهائيٍّ يأخذ فيه كلّ ذي حقٍّ حقّه لكيلا تبقى ثغرة في العلاقات يتجدّد من خلالها النزاع بين الحين والآخر.

وأكّدت الآية اللّاحقة على الأُخوّة والإصلاح وتقوى الله تعالى.

قال تعالى: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الحجرات: ١٠].

والمعنى: كما تسعون للإصلاح بين الأخوين في النسب، فينبغي ألّا تألوا جهداً في الدخول بصورة جادّة للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالة تامّة.

وحيث إنّه في كثير من الأوقات تحلّ الروابط محلّ الضوابط، فإنّ القرآن يضيف في نهاية هذه الآية: (واتقوا الله لعلكم ترحمون). وهكذا تتّضح إحدى أهمّ المسؤوليّات الاجتماعيّة على المسلمين فيما بينهم في تحكيم العدالة الاجتماعيّة بجميع أبعادها[٩].

ومن المحاور المشتركة في الأخوّة الإسلاميّة، محور العقيدة، والمصالح الواحدة، والمصير الواحد، ووحدة المفاهيم والقيم والموازين والعادات والتقاليد، ووحدة القيادة الربّانيّة، وكذلك وحدة العدوّ.

والتوجّه إلى هذه المحاور وتعميقها في القلوب والنفوس والضمائر من شأنه أن يحقّق التآلف والتآزر والتعاون في المواقف العمليّة والممارسات الميدانيّة، وأن ينقذ المسلمين من مخاطر النزاع والتمزّق والتفرّق ، وهي محاور يجب الرجوع إليها في حال النزاع والخصام؛ لأنّها تربط المسلمين بعضهم ببعض.

وقد وجّهت الأحاديث الشريفة الأنظار إلى الجامع المشترك بين المسلمين، وهو «الحبّ في الله» فهو أساس الائتلاف والاتّحاد والأُخوّة، وهو الحصن الحصين من النزاع والصراع والقتال الداخلي.

والحبّ في الله تعالى من أهمّ مقوّمات العلاقة بين المسلمين، وهو أهمّ دعائم الوحدة والاتّحاد فيما بينهم، وبه يتوجّهون للانضواء تحت عقيدة واحدة، وكيان واحد، وسلوك واحد، ومصالح مشتركة، ومصير واحد، وبه يتعالون على الأطر الضيّقة للعلاقات، وبه تنتفي الأنانيّة والتنافس اللّامشروع، وبه يتحسّسون لواقعهم الممزّق فيجاهدون من أجل إرساء دعائم الوحدة وتحقيقها على أرض الواقع، ويكون رسول الله ' وأهل بيته عليهم السلام قدوة لهم في حركتهم التكامليّة التي تحصّنهم من مخاطر التمزّق والفرقة بعلاج أسبابها معالجةً موضوعيّة وواقعيّة.

وقد أكّد رسول الله ' وأهل بيته عليهم السلام على مفهوم «الحبّ في الله والبغض في الله» مع إقرار بقيّة ألوان ومجالات الحبّ، كحبّ الوالدين، وحبّ الأسرة، وحبّ العشيرة، وحبّ القوم، وحبّ الوطن، فينبغي أن يكون هذا المفهوم من الحبّ هو الأساس في جميع ألوان العلاقات والأطر، وهو المحرّك نحو العمل والنشاط في جميع مجالات الحياة الإنسانيّة، وكذلك البغض، فينبغي أن يكون

«الحبّ في الله والبغض في الله» قائماً على أسس موضوعيّة تنبع من العقيدة والمصلحة العليا، لا المصلحة الآنيّة أو الضيّقة.

قال رسول الله ' : «**ودّ المؤمن في الله من أعظم شُعب الإيمان ، ألا ومن أحبّ في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله**»(١٠).

وهذا المفهوم هو من أوثق عرى الإيمان، كما ورد عن الإمام جعفر الصادقعليه السلام أنّه قال: «**من أوثق عرى الإيمان أن تحبّ في الله وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله**»(١١).

ومن الآثار الإيجابيّة لهذا الحبّ هو اللّطف الإلهيّ والرحمة الإلهيّة التي تحيط المؤمن في حبّه لأخيه المؤمن.

قال رسول الله ' :«**ما تحابّ اثنان في الله إلّا كان أحبّهما إلى الله أشدّهما حبّاً لصاحبه**»(١٢).

ويترقّى هذا الحب ليكون أساساً للدين، كما ورد عن الإمام جعفر الصادقعليه السلام أنّه قال:«**كلّ من لم يحبّ على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له**»(١٣).

والحبّ والبغض بهذا المعنى غير موجّه لذات الأشخاص، بل موجّه لسلوكهم وسيرتهم العمليّة، وهو يتغيّر تبعاً لها، فإذا كان المسلم في سلوكه وسيرته منسجماً مع مفاهيم وقيم الإسلام، فيكون الحبّ هو العلاقة الأساسيّة معه، فهو حبّ موضوعيّ يشجّع المسلم على إصلاح وتغيير نفسه، وبالتالي إصلاح أسرته، ثمّ إصلاح المجتمع الكبير، والعكس صحيح، فإذا خالف المسلم مفاهيم وقيم الإسلام سيكون البغض موجّهاً إلى سلوكه وسيرته.

فالحبّ والبغض علاقة موضوعيّة قائمة على أساس القرب والبعد عن المفاهيم والقيم والموازين الإسلاميّة، فهي ثابتة في جميع مجالاتها، ويكون التغيّر

مقتصراً على الإنسان نفسه.

وينبغي أن يكون الحبّ خالصاً لوجه الله حيث تترتّب الآثار الإيجابيّة على الإخلاص.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**قد يكون حبّ في الله ورسوله، وحبّ في الدنيا، فما كان في الله ورسوله فثوابه على الله، وما كان في الدنيا فليس بشيء**»(١٤).

ومن ثمار الحبّ في الله تعالى هو الفوز بظلّه تعالى يوم القيامة.

قال رسول الله ' : «**إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابّون فيّ؟اليوم أظلّهم في ظلّي يوم لا ظلّ إلّا ظلّي**»(١٥).

ومن هذا الحبّ تنطلق بقيّة ألوان العلاقات، وهي بدورها تعمّق هذا الحبّ كالتزاور والتناصر والتباذل، وبهذه العلاقات يحصل المسلمون على أعلى درجات المثوبة والفوز بمحبّة الله تعالى لهم.

قال رسول الله ' : «**حقّت محبّتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقّت محبّتي للذين يتناصرون من أجلي، وحقّت محبّتي للذين يتحابّون من أجلي، وحقّت محبّتي للذين يتباذلون من أجلي**»(١٦).

الابتعاد عن الممارسات السلبيّة

قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ} [الحجرات: ١١ـ ١٢].

حرّم الله تعالى جملة من الممارسات لأنّها تؤدّي إلى زرع الأحقاد والعداوات بين المؤمنين ، وبالتالي: إلى تنافر القلوب وتشتّت المحبة والألفة وتمزّق

الصفوف.

ومن هذه الممارسات:

١ـ السخرية.

٢ـ التنابز بالألقاب.

٣ـ الظنّ السيء.

٤ـ التجسّس.

٥ـ الغيبة.

فهذه الممارسات تخالف التوجّه الإسلاميّ لتأليف القلوب وتآزر الصفوف؛ لأنّها تجعل الفواصل الجزئيّة وكأنّها فواصل كلّيّة لا تبقي مجالاً للتآلف والتفاهم والانسجام والإخاء والاتّحاد، وتخلق الاضطراب في العقول والقلوب وفي العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة، وفي التطرّق إلى محتوى الآيتين الكريمتين نكتفي بذكر الغيبة؛ لأنّها من أخطر الممارسات السلبيّة التي تؤدّي إلى تمزّق صفوف الكيان الإسلاميّ، فإذا انتشرت في مجتمع المسلمين حدثت البلبلة، واستفحل الاضطراب العقلي والنفسي والسلوكي، وتشتّت الكلمة، وتباعد الإخوان بعضهم عن البعض بسبب التقاطع والتدابر.

والغيبة بجميع ألوانها من أخطر الممارسات، وخصوصاً الغيبة الاجتماعيّة والسياسيّة، التي تمارس من قبل الأفراد أو الطبقات أو التنظيمات والأحزاب بحقّ غيرها، وتكون أشدّ خطورةً حينما تمارس باستخدام وسائل الإعلام في الصحف والمجلّات والإذاعات والمنابر.

وتشتدّ خطورتها حينما تضخم الأخطاء والسلبيّات والتفسيرات الخاطئة للآراء والأقوال والممارسات.

ومن أهمّ أضرار الغيبة:

١ـ إشغال المسلمين عن أهدافهم الكبرى، وهي تحكيم الإسلام في واقع

الحياة، وتقرير مفاهيمه وقيمه في العقول والقلوب والممارسات العمليّة، والتوجّه إلى غير المسلمين لإرشادهم إلى الإسلام.

٢ـ انتشار الظواهر السلبيّة كالقلق والاضطراب والبلبلة والشكّ والحيرة، وإدخال اليأس في نفوس المصلحين حينما يعانون من تشويه سمعتهم من قبل الآخرين.

٣ـ فقدان الثقة بالعاملين للإسلام من علماء ومثقّفين وتحجيم دورهم الإصلاحيّ.

٤ـ تمزيق الصفّ الإسلامي؛ إذ إنّ الغيبة وما يرافقها من إشاعات تؤدّي إلى البغضاء والشحناء والخصومة، فينقسم الصفّ الإسلاميّ إلى كتلٍ وتيّاراتٍ متناحرة ومتشتّتة، بين الناقلين لها والمكذّبين أو المدافعين.

التعارف الايجابي

قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ } [الحجرات: ١٣].

إنّ التعارف أو التفاعل الاجتماعيّ هو الأصل في الحياة الإنسانيّة، فالإنسان يحتاج إلى غيره لكي يتبادل الآراء والطباع والأمزجة، وإلى التعاون في البناء والإعمار والإصلاح، والقرآن الكريم يدعو إليه وينبذ الانزواء والانقطاع عن المجتمع.

قال رسول الله ' :«**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على آذاهم**»(١٧).

وقال الإمام علي عليه السلام:«**المؤمن مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(١٨).

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «...**إنّه لا بدّ لكم من الناس، إنّ أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بدّ لبعضهم من بعض**»[19].

ووردت عدّة روايات تؤكّد على التعارف والتفاعل مع الآخرين، وقد جاء فيها «وأقربكم من الناس» ، «التودّد إلى الناس» ، «التحبّب إلى الناس»، «الاهتمام بأمور الناس».

والحياة الإنسانيّة قائمة على التنوّع، وهو ظاهرة إيجابيّة في طريق التعارف والتفاعل الاجتماعيّ، وعلى ضوء هذا التنوّع تكون الموازين الإسلاميّة هي الحاكمة في التقييم، ومن هذه الموازين: (التقوى)، فالتكريم لا يعتمد أو يستند إلى الانتماء القوميّ أو القبليّ، بل يستند إلى التقوى، وهذا حثّ على التقوى والعمل الصالح وجميع مكارم الأخلاق، فهي الميزان والمعيار الذي توزن به الشخصيّات والكيانات وتقيم على ضوئه، وهو دعوة لعدم التعصّب الذي يكون مقدّمة للتدابر والتقاطع.

الانتماء بين المبدئيّة والسطحيّة

قال تعالى: {قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ} [الحجرات: ١٤ـ١٥].

الانتماء إلى الإسلام هو الإيمان المطلق به كعقيدة وشريعة ومنهج حياة متكاملة، وهو التقيّد والالتزام بأوامره ونواهيه والسير على ضوء مفاهيمه وقيمه، والتضحية بالمال والنفس من أجل تقرير مبادئه في واقع الحياة.

والقرآن الكريم يميّز بين لونين ومظهرين من الانتماء، وهما:

١ـ الانتماء السطحيّ، وهو شهادة الشهادتين، حيث يصبح الناطق بهما مسلماً وينتمي إلى الكيان والوجود الإسلاميّ، فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم دون النظر إلى اعتقاده الحقيقيّ المستقرّ في العقل والقلب والضمير.

٢ـ الانتماء المبدئيّ والواقعيّ، وهو ليس مجرّد نطق الشهادتين أو الجهر بالإسلام، وإنّما هو تجسيدها ابتداءاً بالانقياد المطلق لله تعالى ولرسوله، وانتهاءاً بالعمل الإيجابيّ المثمر وتحكيم مفاهيم وقيم الإسلام في كلّ شؤون الحياة ومجالاتها، فهو إيمان بالقلب وإعلان باللسان وعمل بالأركان والأحكام، ومن مظاهره:

١ـ التعبّد لله تعالى.

٢ـ التوكّل على الله وتفويض الأمر له والتسليم لأمره.

٣ـ اتّخاذ الدين منهجاً في الحياة في كلّ شؤونها.

٤ـ الجهاد في سبيل الله.

٥ـ طاعة الله والرسول ' .

وإلى الإيمان المبدئيّ أشار رسول الله ' فقال:

«**الإيمان عقد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان**».

«**الإيمان قول معقول، وعمل معمول، واتّباع الرسول ، وعرفان بالعقول**».

«**الإيمان عريان ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وماله الفقر، وثمره العلم**»[٢٠].

«**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم**»[٢١].

وقد حدّدت الآيات القرآنية أهمّ صفات المؤمنين، وهم الذين يؤمنون إيماناً مبدئيّاً: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المؤمنون].

وفي جميع الأحوال، فإنّ الإسلام عنوان للانتماءين، حيث يشمل المسلم السطحيّ والمسلم المبدئي، والاختلاف بينهما هو الاختلاف الناشئ من القرب أو البعد عن مفاهيم وقيم وموازين الإسلام، فالمؤمن أقرب من المسلم إليها، وأقرب إلى الله تعالى.

والآية الكريمة تحثّ الإنسان على الانتقال من الإسلام إلى الإيمان بتجسيده عمليّاً في كلّ الأفعال والممارسات والعلاقات والارتباطات.

المنّ بالإسلام علامة الانتماء السطحي

قال تعالى: { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ } [الحجرات: ١٧].

إنّ الإيمان السطحي، وهو إعلان الشهادتين يعبّر عن سطحيّة العقول وسفاهتها التي تترجم بالمنّ على رسول الله ' لانتماء أصحابها للوجود الإسلاميّ على مستوى الظاهر ومستوى النطق، وقد أخطأ من يمنّ على الرسول ' من ناحيتين:

١ـ إنّ الانتماء إلى الإسلام هو انتماء يعود بالنفع للمنتمي حيث الشعور بالأمن والسلام داخل النفس، وفي الواقع العملي، فالمؤمن مطمئنّ النفس مستقيم الحركة، لا يعيش الاضطراب والقلق ويأمن على نفسه وأسرته وتحرّر ذاته من عبوديّة الآلهة المصطنعة وعبوديّة الشخصيّات، وفي هذه الحالة، فإنّ المنّ هو لله تعالى، فهو أحقّ بالمنّ على المسلمين بعد أن روّض عقولهم وقلوبهم للهداية التي هي سعادة في الدنيا والآخرة.

٢ـ إنّ الرسول ' مجرّد مرسل من الله تعالى لإبلاغ دينه للناس، وليس له من الأمر شيء، فالأمر إلى الله تعالى، فمن منّ بإسلامه على الرسول ' لا معنى له، والله تعالى ليس محتاجاً للناس في إسلامهم، بل هم المحتاجون إليه في الهداية والاستقامة والاستمرار على الإسلام والإيمان.

وهؤلاء لو كانوا مؤمنين حقيقةً لما منّوا على رسول الله ' ؛ لأنّهم لا يدركون الآثار الإيجابيّة للإيمان على نفوسهم وممارساتهم.

ولنقتدِ بالأئمّة من أهل البيت عليهم السلام الذين جاهدوا في الله حقّ جهاده، فتحمّلوا الأذى والعذاب في سبيله، فحوصروا ولاحقتهم الحكومات الجائرة وأحصت عليهم سكناتهم وحركاتهم، واعتقلت بعضهم وقتلتهم إمّا بالسيف أو السمّ، إلّا أنّهم، ومع تلك التضحيات الجسام، نراهم يتضرّعون إلى الله ويشعرون بالتقصير، ليس لأنّهم كذلك، بل تربيةً لنا على الاستسلام المطلق لله وإذلال النفس إمامه، وعدم المنّ بالانتماء للإسلام، بل لا يصحّ الشعور بالمنّ حتى من قبل الذين ضحّوا بأموالهم وراحتهم وأنفسهم من أجل الإسلام، بل هم مدينون لله تعالى الذي هداهم للإيمان والإخلاص والتضحية والشهادة.

* * *

الهوامش:

(١) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل١٣ : ٩١.

(٢) الكليني، ثقة الإسلام، محمّد بن يعقوب، الكافي١: ١٨٥.

(٣) المعتزلي، المدائنيّ، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة١٢ : ٨٢.

(٤) المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار١: ٢١٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) النراقي، المولى أحمد، عوائد الأيّام: ٥٣٦.

(٧) الطباطبائيّ، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣١٢.

(٨) الشيرازيّ، ناصر مكارم، الأمثل١٣: ١٠٥.

(٩) الأمثل١٣: ١١٠.

(١٠) الأمثل١٣: ١١١.

(١١) الكافي ٢: ١٢٥.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء٣ : ٢٨٦.

(١٤) الكافي:٢: ١٢٧.

(١٥) المصدر السابق.

(١٦) المحجّة البيضاء٣: ٢٧٨.

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) الديلميّ، فردوس الأخبار٤: ٤٧.

(١٩) الكافي٢: ١٠٢.

(٢٠) الكافي٢: ٦٣٥.

(٢١) فردوس الأخبار١: ١٤٩.

سنّة البلاء في رسالة الثقلين

الأستاذة: منى عبد الأمير محمّد (*)

تمهيد

قال تعالى: { أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ }[العنكبوت: ٢ـ ٣].

وقال تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ }[آل عمران: ١٥٤].

وقال تعالى: { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: { وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةًۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ }[الأنفال: ٢٥].

تطرّقت الآيات المتقدّمة إلى مفهوم البلاء وألوانه ومظاهره، وهو سنّة إلهيّة جعلها الله تعالى قائمة في الحياة الدنيا، والبلاء والفتنة هو اختبار وامتحان إلهيّ لعباده على مختلف درجاتهم من حيث الإيمان وعدمه، ومن حيث ممارساتهم العمليّة، وهو لا يقتصر على الابتلاء بالشدّة، بل يشمل الابتلاء باليسر والرخاء،

(*) باحثة إسلاميّة/ العراق.

فهو ابتلاء بالشرّ والخير، لمعرفة درجات الإيمان ودرجات الإخلاص والصدق، والابتلاء محلّ يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب.

والبلاء والابتلاء متنوّع بتنوّع غاياته وأهدافه وموقعه، فقد يكون امتحاناً، وقد يكون عقوبة، وقد يكون تربية وتوجيهاً وتنبيهاً، وهذا ما سنبحثه في هذا الموضوع.

والبلاء في اللّغة: البليّة، والبلوى والبلاء واحد، وجمعه البلايا، وبلاه:جرّبه واختبره، يبلوه بلاءاً يكون بالخير والشرّ وابتلاه أيضاً[1]. والفتنة تأتي بمعنى الابتلاء والامتحان والاختبار[2]. واتّقوا فتنة، أي: بليّة، وقيل: ذنباً، وقيل: عذاباً. وفتنّاك فتوناً، أي: «خلّصناك من الغش والشرّ إخلاصاً[3]».

والبلاء يكون حسناً وسيئاً، والله يبلو العبد بما يحبّه ليمتحن شكره وبما يكرهه ليمتحن صبره.

والحمد لله على ما أبلانا، أي: أنعم علينا وتفضّل من البلاء الذي هو الإحسان والإنعام.

والحمد لله على ما أبلا وابتلى، أي: على ما أبلى من النعم وابتلى من النقم[4].

البلاء سنّة إلهيّة

البلاء سنّة الله تعالى في الأرض، فلابدّ من بلاء واختبار للإنسان، فقد خُلق الإنسان فيها ليبتلى في الحياة الدنيا، فهي دار بلاء وامتحان، وقد تعرّضت جميع المجتمعات البشريّة للبلاء والامتحان والاختبار على مرّ التاريخ.

قال تعالى: { أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ } [العنكبوت: ٢ـ ٣].

وحول تفسير ذلك قال السيّد محمّد حسين الطباطبائي: «**الفتنة والمحنة سنّة**

إلهيّة لا معدل عنها تجري في الناس الحاضرين كما جرت في الأمم الماضين، كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ولوط وشعيب وموسى، فاستقام منهم من استقام، وهلك منهم من هلك، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون... والمعنى: أحسبوا أن يُتركوا ولا يفتنوا بمجرّد دعوى الإيمان وإظهاره، والحال أنّ الفتنة سنّتنا وقد جرت في الذين من قبلهم، فمن الواجب أن يتميّز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء وآثار كذب أولئك الملازم لاستقرار الإيمان في قلوب هؤلاء، وزوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئك»(٥).

والبلاء «**بمعنى الاختبار والامتحان يرافق المؤمنين في جميع مراحل حياتهم**»(٦)، ودرجته تتناسب مع درجة الإيمان تناسباً طرديّاً، فكلّما ازدادت درجة الإيمان كلّما زاد البلاء، وهو الظاهر من قول رسول الله ' : «**أشدّ الناس بلاءاً في الدنيا النبيّون ثمّ الأماثل فالأماثل، ويبتلى المؤمن على قدر إيمانه، فمن صحّ إيمانه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلّ بلاؤه**»(٧).

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: «المؤمن مثل كفّتي الميزان، كلّما زيد في إيمانه زيد في بلائه»(٨).

وعلى ضوء ذلك نجد أنّ رسول الله ' كان أشدّ النّاس بلاءاً، وقد فاق بلاؤه بلاء الأنبياء والمرسلين، فقد واجهته قريش بالتكذيب والاستهزاء والإشاعات المغرضة، والمحاصرة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والأذى الجسديّ، وقد توفّي حاميه أبوطالب وزوجته خديجة في شهر واحد، وتوفي ولده إبراهيم وهوطفل صغير، وقد اضطرّ للهجرة من بلده، وتحمّل الأذى من قبل بعض أصحابه، فقد تمرّدوا على أوامره أكثر من مرّة، وواجهه بعضهم بمواقف لا تناسب مقامه الشريف.

وابتلي الإمام علي عليه السلام والصدّيقة فاطمة الزهراء ÷ ببلاء قاسٍ حتى

رحلت إلى الرفيق الأعلى وهي في ريعان الشباب، وكذلك ابتلي بقيّة الأئمّة عليهم السلام بأشدّ ألوان البلاء، وكذلك أتباعهم والمقرّبون إليهم.

وفي المقابل، كان ابتلاء الكفّار والمنحرفين ابتلاءاً من نوع آخر، وهو الانتقام والهلاك والبوار، وقد كان متناسباً مع درجة كفرهم وانحرافهم وفسقهم.

الغاية من البلاء

البلاء اختبار وامتحان للإنسان لمعرفة درجة إيمانه، ومعرفه قربه وبعده عن الدين، ومعرفة ارتباطه بالدين فكراً وعاطفة وسيرة وسلوكاً، فهو اختبار لصدق المدّعي أو كذبه، وقد ذكرنا الآيات المرتبطة بهذا الموضوع.

وهنالك غايات متعدّدة من وراء البلاء، والبلاء العامّ قد يكون واحداً في نوعه وشكله وظروفه وآثاره، إلّا أنّ غاياته مختلفة كنقصان الأموال والأزمة الاقتصاديّة أو الحرب، فهو بلاء عامّ، إلّا أنّه يختلف من شخص إلى آخر، أو من جماعة لأُخرى، فقد يكون اختباراً لدرجة إيمان البعض، أو تمحيصاً لذنوب آخر، أو توجيهاً وتربية لآخر، أو انتقاماً من آخرين، وأقرب مثال واقعيٍّ هو ما يحدث في العراق من بلاء، وأعظم البلاء هو وجود قوات الاحتلال وانعدام الأمن ونقصان الخدمات، فهو اختبار وامتحان للمؤمنين، وعقوبة للمنحرفين والفسّاق، وتأديب وتربية وتوجيه للجميع.

وفيما يلي نستعرض غايات البلاء:

١. اختبار درجة الإيمان:

قال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

ٱلظَّٰلِمِينَ } [آل عمران: ١٤٠].

إنّ تداول الأيام من حيث الشدّة والرخاء، فالشدّة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدّة هما اللّذان يكشفان عن معادن النفوس من حيث الإيمان وعدمه، ومن حيث تجلّي الإيمان بالتوجّه إلى الله تعالى والاستسلام له، ومن حيث الابتعاد عنه، فتعاقب الشدّة والرخاء يكشف المخبوء ويجعله ظاهراً وبارزاً للعيان.

وفي معنى ذلك قال السيّد الطباطبائي: «**المراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه وخفائه.. أفاد ذلك إرادة ظهور إيمانهم، وإذا كان ذلك على سنّة الأسباب والمسبّبات لم يكن بدّ من وقوع أمور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه**»(٩).

٢. التمحيص:

قال تعالى: { وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ } [آل عمران: ١٤١].

التمحيص هو عملية تتمّ في داخل النفوس وفي مكنونات الضمير، وهي تسليط الضوء على هذه الدواخل والمكنونات تمهيداً لتنقيتها بلا غبش ولا غش ولا شوائب ورواسب جاهلية، وبهذا التمحيص يعلم المؤمنون ما في أنفسهم من إخلاص وتجرّد لله وتخلٍّ عن غير الله تعالى في عقولهم وقلوبهم وإرادتهم.

والتمحيص هو: «**تخليص الشيء من الشوائب الخارجية، والمحق إنفاذ الشيء تدريجياً وإزالته شيئاً فشيئاً... فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر ونحوه من المؤمن شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلّا إيمانه، فيكون خالصاً لله، ويبيد أجزاء الكفر والشرك والكيد من الكافر شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى شيء**»(١٠).

٣. الأجر والثواب:

قال تعالى: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ

أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ }[البقرة: ٢١٤].

إنّ الله تعالى جعل الدنيا دار بلاء والآخرة دار جزاء، فلا ينال الإنسان الجنّة بسهوله ما لم يمرّ بمراحل من الشدّة والضرّاء والضيق؛ لأنّ الجنّة أمر عزيز لا يحصل عليه الإنسان بمجرد ادّعاء الإيمان بالله تعالى، فلابدّ له من اختبار وامتحان لإثبات صدق المدّعى، وتحمّل المشاقّ والصعوبات الواقعة في طريق الإيمان.

قال الإمام علي عليه السلام: «**بالمكاره تنال الجنّة**»، «**بالذهب الشديد تدرك الدرجات الرفيعة والراحة الدائمة**»، «**الثواب بالمشقة**»، «**المصائب مفتاح الأجر**»(١١).

٤. التذكير:

قال تعالى: { وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ }[الأعراف: ١٣٠].

بعد الخصب والعطاء المثمر أخذ الله آل فرعون بالشدّة والجدب والقحط، وهذا التحوّل يلفت النظر ويهزّ القلوب، ولابدّ أن يدعو إلى اليقظة والتفكر وإلى تذكّر آيات الله تعالى وسننه ووعده ووعيده، فالبلاء هنا للتذكير بالله تعالى وبمنهجه في الحياة.

وإذا رجعنا إلى عهد الحصار الاقتصاديّ في عهد النظام البائد لوجدنا أنّ الحصار بالموازين الإلهيّة كان رحمة للعراقيّين، فقد تذكّروا الله تعالى وعادوا إليه، وأصبح تيّار الالتزام بالمنهج الإلهي واضح المعالم حيث إقبال الشباب وغيرهم على المساجد والحسينيّات والمشاركة في صلاة الجماعة والجمعة، وكثرة عدد الزائرين إلى الأماكن المقدّسة، إضافةً إلى اختفاء مظاهر الانحراف، كالإفطار العلنيّ في شهر رمضان، واختفاء حانات الخمور، وقلّة السفور.

فالبلاء تذكير للإنسان، فرداً كان أم مجتمعاً، بعد غفلته عن الله تعالى، فمن لديه فطرة سليمة ينفع معه البلاء، وعكسه غيره، قال تعالى: { وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ }[التوبة: ١٢٥ـ١٢٦].

٥. الرجوع إلى الله تعالى:

إنّ الله تعالى ينزل العذاب على الناس ليعيدهم إليه، ويعيدهم إلى تبنّي منهجه منهجاً في الحياة وجعله الحاكم على عقولهم وقلوبهم وإراداتهم، حيث إنّ الشدّة والضيق يدفع الإنسان للارتباط بمن ينقذه، كما جاء في قوله تعالى: { ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[الروم: ٤١]. والله سبحانه وتعالى لا يترك الناس لمواجهة العذاب الأكبر في يوم القيامة فحسب، بل يريهم أو يذيقهم العذاب الدنيوي لكي يرجعوا إليه. قال تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[السجدة: ٢١].

ولا يتوقّف العذاب في فترة زمنية؛ بل هومستمرّ من أجل إرجاع المنحرفين والفاسقين والمشركين إلى الله تعالى. قال تعالى: {وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }[الزخرف: ٤٨].

٦. التضرّع إلى الله تعالى:

قال تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ }[الأنعام: ٤٢].

يقصّ الله تعالى على نبيّه من أجل تربية الناس قصصاً عديدة من حركة الأمم

السابقة، فقد أخذ الأمم المنحرفة بالبأساء والضرّاء في أموالهم وأنفسهم وفي أحوالهم وأوضاعهم؛ لكي يتضرّعوا إلى الله تعالى ويتذلّلوا له، ويتخلّوا عن عنادهم واستكبارهم؛ حيث إنّ الشدّة بجميع ألوانها عامل مساعد للعودة إلى الله تعالى والتضرّع إليه؛ لانّه المنقذ الأوحد للبشريّة.

٧. التطبيق:

قال تعالى حاكياً عن بني إسرائيل: { قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ }[الأعراف: ١٢٩].

إنّ الاستخلاف في الارض هو لون من ألوان الابتلاء، وهو الابتلاء باليسر والرخاء، وهو ابتلاء لاختبار العمل، أو اختبار المواقف العمليّة، فنبي الله موسى عليه السلام يواجه أتباعه بسنن الله تعالى، ويعلّق رجاءهم بها، ويلوّح لهم في هلاك الأعداء واستخلافهم في الأرض، فيدفعهم إلى الطريق المستقيم لكي يستمروا في الصبر والتحمّل إلى أن يأتي دور العمل الدؤوب بعد الاستخلاف.

قال تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ }[الأنعام: ١٦٥].

٨. التفقّه:

قال تعالى: { قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ }[الأنعام: ٦٥].

في هذه الآية الكريمة، وبعد استقراء ما قبلها نجد أنّ القرآن الكريم يتحدّث عن مراحل الابتلاء، فكلّما أنجاهم الله تعالى لم يتوبوا ولم يعودوا إليه ولم

يشكروه، وبالتالي: تأتي هذه المرحلة الأخيرة، وهي المرحلة الأشدّ وقعاً، فالعذاب لا يأتي من اليمين أو الشمال، وإنّما يُصبّ من فوق، أو يؤخذ من تحت، فهو عذاب متأصّل حيث يجعلهم الله تعالى شيعاً وأحزاباً لا يتميّز بعضها عن بعض، فهي في جدال وصراع دائم؛ تتصارع رغباتهم وشهواتهم وتصوّراتهم وأطماعهم، فيحقد بعضهم على بعض وينكر بعضهم بعضاً، فلا يرجعون إلى ميزان واحد، وهذه أصعب ألوان الابتلاء والعذاب.

وغاية هذا اللون من العذاب هو التفقّه من قِبل الذين وقع عليهم العذاب، ومن قبل المخاطبين بهذه الآية الكريمة، فهو بلاء التفقّه والوعي وأخذ الصبر والدروس.

وينبغي علينا نحن أبناء الشعب العراقي أن نتفقّه ونعي الآثار الخطيرة للفتنة الطائفيّة ونستمدّ العون من الله تعالى وحده.

٩. الشكر:

قال تعالى: {وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦].

إنّ الله تعالى لايوقف ظاهرة البلاء والابتلاء عند مرحلة من المراحل، أو جانب من الجوانب، فهي حركة متواصلة ترافق الإنسان في جميع ظروفه وأحواله، فبعد بلاء وابتلاء الاستضعاف والخوف يأتي بلاء وابتلاء الأمن والنصر والتمتّع بالطيبات، وهو بلاء وابتلاء يحتاج إلى التوجه إلى الله تعالى واستشعار نعمته بالشكر في جميع مجالاته.

والدرس المستفاد هو ضرورة شكر الله تعالى على نعمته وعدم نسيانه في أجواء السلطة، فينبغي على الحاكم أن يراعي تطبيق مفاهيم الإسلام، ويراعي

المواطنين المستضعفين، ويراعي تطبيق العدالة ونصرة المظلومين، وهذه مصاديق متعدّدة من مفهوم الشكر الذي يدعوالله إليه بعد الإيواء والنصر.

مظاهر بلاء المؤمنين

سنّة الله تعالى قائمة على ابتلاء المؤمنين، وإنّها السنّة القائمة في أصحاب العقائد والدعوات الإلهيّة، فلابدّ من بلاء، ولابدّ من أذى في جميع مجالات الحياة، ولابدّ من صبر وصمود ومقاومة؛ ليثبت على العقيدة أصلب أصحابها وحملتها، فهم الذين يصلحون لحملها وتحمّل مسؤولية التطبيق، فالبلاء يجعل المؤمن متوجّهاً إلى الله تعالى يستمدّ العون منه ليواصل الحركة والمسيرة، متعالياً على أذى الأصدقاء والأعداء والحاسدين والحاقدين، وينبغي استمرار الارتباط بالله تعالى في الشدّة والرخاء، وفي العسر واليسر، وفي الهزيمة والنصر، وفي جميع الأحوال ينبغي الاستسلام لقضاء الله وقدره.

قال سبحانه وتعالى: {...وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ }[الأنبياء: ٣٥].

والبلاء بالشدّة نعمة من الله تعالى؛ لأنّ الشدّة تحرك جوانح الإنسان وتشدّه إلى الله تعالى كمنقذ ومخلّص له، وأمّا ابتلاء الرخاء فأحياناً يجعل الإنسان مسترخياً مشغولاً بكثرة المال وكثرة الأولاد، ومشغولاً بالمنصب الحكومي أو الموقع السياسي، فيتناسى الله تعالى، لانغماسه وانشغاله بالمتعة والهناء. قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لن تكونوا مؤمنين حتى تعدّوا البلاء نعمة والرخاء مصيبة**»(١٢).

وفيما يلي نستعرض مظاهر البلاء والابتلاء:

أوّلاً: بلاء وابتلاء الشدّة:

١ـ الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات: قال سبحانه وتعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ } [البقرة: ١٥٥].

فالابتلاء بالشدّة في هذه المظاهر يحرّك القوة الكامنة في الإنسان لكي يلتجئ إلى الله ويركن إليه لتتعمّق العلاقة بينه وبين خالقه { وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } [الأعراف: ٩٤].

٢ـ الابتلاء بالكفّار: يبتلي الله تعالى المؤمنين بالكفّار وبما يملكون من قوّة، من مال وسلاح ورجال ومن وسائل السيطرة، فيجد المؤمنون أنّ للكفار دولة قوية، وأنّ لهم أتباعاً وأنصاراً، وهم وحدهم، ويزداد الابتلاء عندما يتباطأ النصر وتضيق الحلقة على المؤمنين.

قال سبحانه وتعالى: { إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا } [الأحزاب: ١٠ـ١١].

فالله سبحانه وتعالى هو الناصر الوحيد للمؤمنين، ولكن أراد ابتلاءهم وامتحانهم في مواجهة الكفار، { ...وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ } [محمّد: ٤].

٣ـ ضيق المعيشة: الفقر وضيق المعيشة من أوجه الابتلاء والامتحان للمؤمنين لاختبار صبرهم واختبار إيمانهم بقضاء الله وقدره { وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ } [الفجر: ١٦].

والابتلاء بضيق المعيشة يتناسب طرديّاً مع درجة الإيمان، قال الإمام الصادق عليه السلام: «**كلّما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته**»(١٣).

والمؤمن الذي يواجه ضيقاً في معيشته يتّجه بكلّ جوارحه إلى الله، وإنّ قلة الرزق امتحان عسير لمعرفة درجة ارتباطه بالله ورضاه بما قسم الله له من الرزق.

٤ـ ابتلاء التأديب: عندما يبتعد المؤمن عن المنهج الربّاني في الحياة، ويجعل سلوكه مطابقاً لما يؤمن به، فإنّ الله سبحانه يبتليه بعذاب تأديبي ليردعه عن المعاصي، ولكي يعود للاستقامة ويتوب إلى الله، وهو بلاء لا تطول مدّته، ويتوقف على التوبة والإنابة، ومن مظاهره:

أ. نقص الثمرات وحبس البركات: قال الإمام علي عليه السلام: «**إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات، وليتوب تائب،ويُقلعَ مُقلِعٌ، ويتذكر متذكر، ويزدجر مزدجر**»(١٤). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**إذا مُنعت الزكاة منعت الأرض بركاتها**»(١٥).

ب. تسليط الأشرار: تسليط الأشرار تأديب للمؤمنين التاركين لمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال رسول الله ' : «**لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»(١٦). وقال ' : «**إنّ الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يظهر المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه**»(١٧).

ج. توالي الأضرار: إذا لم يرتدع المؤمنون عن المعاصي والسيئات تتوالى عليهم الأضرار حتى يعودوا إلى الاستقامة ويصلحوا ما فسد من أمورهم. قال الإمام علي عليه السلام: «**لا يترك الناس شيئاً من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلّا فتح الله عليهم ما هو أضرّ منه**»(١٨).

ومن مظاهر التأديب الإلهي، غلاء الأسعار وقصر الأعمار وخسران التجارة وانحباس البركات.

قال رسول الله ' : «**إذا غضب الله على أمّة، لم ينزل العذاب عليها، غلت أسعارها، وقصرت أعمارها، ولم تربح تجارتها، ولم تنزل ثمارها، ولم تغزر أنهارها، وحبس عنها أمطارها،وسلّط عليها أشرارها**»(١٩).

د. جزاء عدم الصبر على المصائب: المصيبة ابتلاء للمؤمنين وعليهم الصبر

والاحتمال وذكر الله، وعلى المؤمن أن لايستعظم المصيبة فيبتليه ربّه بأكبر منها. قال الإمام علي عليه السلام: «**من عظّم صغار المصائب ابتلاه الله بكبارها**»[٢٠].

ثانياً: بلاء وابتلاء الرخاء:

بلاء وابتلاء الرخاء قد يعيق البعض عن أداء تكاليفهم ومسؤوليّاتهم، فقد يصيبهم الغرور بكثرة المال والأولاد والمواقع السياسية والحكومية، وقد يصيبهم الاسترخاء وعدم الحذر من الأهواء والرغبات ومؤامرات الأعداء، ولذا فإنّه أشدّ وطأة من بلاء وابتلاء الشدّة عند البعض.

وفيما يلي نستعرض هذا المظهر باختصار.

١- الأموال والذرية.

٢- الصحة الجيدة.

٣- النعم والبركات.

٤- الوجاهة الإجتماعية.

٥- كثرة الأتباع والأنصار.

٦- المنصب الديني.

٧- المنصب الحكومي.

٨- الذكاء الخارق.

بلاء وابتلاء غير المؤمنين

إنّ الله تعالى يفتح للإنسان أبواب الهداية من خلال البيّنات والبراهين والأدلّة، ويترك الاختيار له، وهو صاحب الإرادة في تبنّي العقيدة الإلهيّة أوعدم تبنّيها، ولكن وضع له سنن وقوانين لا ينبغي التمرّد عليها؛ لأنّه يؤدّي إلى الاضطراب ويؤدّي إلى عرقلة حركة الحياة المستقيمة، فإذا أضرّ الإنسان بغيره

وبالوضع العامّ، فإنّ الله يمهله حيناً من الزمن ويفتح له أبواب العودة والإنابة ببلاء وابتلاء يسير، فإذا لم يعد ولم يستقم سيأتي البلاء والابتلاء الأكبر، وهو العقاب والهلاك والدمار للذين يقفون بوجه الخير ويمنعونه من الوصول إلى الناس جميعاً.

قال تعالى: { وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ }[الزمر: ٥٤]. وقال تعالى: { وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }[الزمر: ٥٥].

ولا ينزل العقاب إلّا بعد تحقّق موضوعه، وهو مختلف من ظرف إلى آخر، ولكنّه مجموع في الانحراف عن العقيدة والشريعة الإلهيّة، والذي يتمثّل بما يلي:

١- الشرك:

قال تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }[يوسف: ١٠٦-١٠٧].

٢- ادّعاء الربوبيّة:

قال تعالى حاكياً عن فرعون: { فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ }[النازعات: ٢٤-٢٥].

٣- تكذيب الأنبياء:

قال تعالى: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ }[الأعراف: ٩٦].

٤- الفسق:

قال تعالى: { إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ }[العنكبوت: ٣٤].

٥- الغفلة:

قال تعالى: { فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ

يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ }[الأعراف: ١٣٥ـ١٣٦].

٦- الذنوب:

قال تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ }[الأنعام: ٦].

٧- البطر:

قال تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ }[القصص: ٥٨].

٨-الاستهزاء بالرسل:

قال تعالى: { وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ }[الرعد: ٣٢].

٩- الظلم:

قال تعالى: { وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ }[إبراهيم: ١٣].

١٠- الإجرام:

قال تعالى: { . . . هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ }[الأحقاف: ٢٤ـ ٢٥].

١١- كفران النعمة:

قال تعالى: { وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ }[النحل: ١١٢].

١٢ - الغرور:

قال تعالى: { إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ }[الأعراف: ١٥٢].

١٣ - فساد الحكومة:

قال تعالى: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ }[محمّد: ٢٢ـ ٢٣].

مظاهر العذاب

إنّ نزول العذاب سنّة إلهيّة، وهو لا يتوقّف ولن يتوقّف، ولكنّ نسيان هذه السنة جعل البعض يفسّر العذاب بتفسيرات طبيعية على ضوء القوانين الطبيعية، وهذا منحنى خطير؛ لأنّه يُفقد المجتمعات روح الإنابة والعودة إلى الإيمان، فينبغي أن يقوم القيّمون على الدين بتفسير العذاب على ضوء سنن التاريخ.

وفيما يلي نستعرض مظاهر العذاب باختصار وعلى هيئة نقاط أوردناها من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة المفسّرة لها.

١. الذلّ.

٢. الطرد من الرحمة الإلهيّة.

٣. الجوع والأزمات الاقتصادية.

٤. الخوف وانعدام الأمن والطمأنينة.

٥. ضنك العيش في كلّ شيء.

٦. الأمراض النفسيّة والعقليّة.

٧. المسخ.

٨. عمى الأبصار.

٩. الرجز من السماء.
١١. الحجارة من سجّيل.
١٢. الطوفان والغرق.
١٣. الخسف.
١٤. الرجفة.
١٥. الدمار الشامل.
١٦. الجراد والقمّل والضفادع.
١٧. الأمراض كالطاعون والكوليرا والإيدز.
١٨. الفرقة والتمزق والتشتت.
١٩. انهيار الدول.

مقدّمات دفع البلاء

البلاء في الموازين الإلهيّة يختلف عنه في الموازين البشرية التي تنظر إلى المصالح الظاهرية الآنيّة والضيقة، فهوفي الميزان الإلهيّ رحمة ونعمة وخير، ويعبّر عن الاهتمام الإلهيّ بمن يبتليه.

قال رسول الله ' :«**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[٢١]. وقال ' :«**إذا أراد الله بقوم خيراً ابتلاهم**»[٢٢]. وقال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إنّما يبتلى المؤمن في الدنيا على قدر دينه**»[٢٣].

ويختلف البلاء باختلاف من أصابه، فهو واحد في ظاهره إن كان عامّاً ومتعدّد في غاياته. قال رسول الله ' :«**إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة**»[٢٤]. وقال ' :«**إنّ أشدّ الناس بلاء النبيّون ثمّ الوصيّون ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما يبتلى المؤمن على قدر أعماله**

الحسنة، فمن صحّ دينه وحسن عمله اشتدّ بلاؤه، ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، والبلاء أسرع إلى المؤمن التقيّ من المطر إلى قرار الأرض، وذلك أنّ الله عزّوجلّ لم يجعل الدنيا ثواب المؤمن ولاعقوبة الكافر»[٢٥].

وعلى ضوء ذلك، فإنّ البلاء نعمة إلهيّة للناس خلافاً للمرتكزات الذهنية لديهم، ولكنّ الإنسان لضعفه وعجلته ويأسه وقنوطه وجزعه لا يتحمّل البلاء؛ لأنّه يروم الصحّة والرفاهية وإقبال الدنيا عليه، ولذا فإنّه ينظر إلى البلاء نظرة أُخرى منسجمة مع مرتكزاته الذهنية، باستثناء ذوي الدرجات العليا من الإيمان والوعي، ولذا راعت الإرشادات والتعاليم الإسلاميّة هذه المرتكزات، ولم تحمّل بعض الناس أكثر من طاقاتهم، وخصوصاً في البلاء الذي يعدّ عقوبة أو شبه عقوبة، ولذا وجّهتهم نحو إيجاد المقدّمات الدخيلة في دفع البلاء قبل وقوعه، وجميع المقدّمات ما هي إلّا مظهر من مظاهر توجيه الإنسان للارتباط بالله تعالى وإلى تجسيد بعض المفاهيم والقيم في الواقع ومنها:

١ - الاستغفار:

قال تعالى: { وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }[الأنفال: ٣٣].

وقال تعالى: { وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ }[هود: ٣].

٢ - الدعاء:

قال تعالى: {ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غافر: ٦٠].

الدعاء الصادق وباخلاص تترتب عليه الاستجابة من الله تعالى، ومنه الدعاء بدفع البلاء. قال الإمام علي عليه السلام: «**ادفعوا أنواع البلاء بالدعاء**»[٢٦].

ومن مصاديق الدعاء لدفع البلاء كما ورد على لسان نبي الله نوح عليه السلام: { قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ }[الشعراء:

.[١١٧ـ١١٨]

٣- تقوى الله تعالى:

قال تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا} [الطلاق: ٢].

٤- الإنابة إلى الله تعالى:

قال تعالى: {وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [الزمر: ٥٤].

٥- الصبر:

قال تعالى: {وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا} [آل عمران: ١٢٠].

٦- التكافل الاقتصادي:

التكافل الاقتصادي كفيل بدفع البلاء وهومظهر من مظاهر التراحم، والتراحم بنفسه يزيل البلاء أويمنعه، وقد حفل القرآن بعشرات الآيات التي تحث على الصدقة، وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «**إنّ الصدقة لتدفع سبعين بلية من بلايا الدنيا**»(٢٧).

٧- أداء مسؤولية الإصلاح:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ} [هود: ١١٧].

وقال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر، أو ليستعملنّ عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم**»(٢٨).

٨- الالتزام بالتعاليم والإرشادات الإلهيّة:

طاعة الله تعالى بالالتزام بأوامره وتعاليمه وإرشاداته، والانتهاء عن نواهيه يضمن دفع البلاء أو إبقاءه بلاءاً بمعنى الامتحان والاختبار للتمحيص

وغفران الذنوب، وقد وردت عشرات الآيات القرآنية ومئات الأحاديث التي تشير إلى هذه الحقيقة.

الآثار الإيجابيّة للصبر على البلاء

إنّ الإيمان بالله تعالى حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء، ومسؤولية بحاجة إلى جهد وصبر وتحمّل في مواجهة المصاعب والآلام والتحدّيات والمعوقات، وقد جعل الله تعالى البلاء والفتنة امتحاناً واختباراً لدرجة الإيمان ودرجة القرب من الله والإخلاص له.

ومن الاختبار والامتحان: أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ثمّ يجد نفسه وحيداً بلا ناصر ولامساند، ولا يملك النصرة لنفسه، ولا القوّة التي تواجه ظلم الباطل.

ومن الاختبار والامتحان: إقبال الدنيا على أهل الباطل ورؤية الناس لهم منتصرين وفائزين وناجحين، فيرى المؤمن نفسه ومجتمعه ضعفاء ومستضعفين لاحول لهم ولا قوّة.

ومن الاختبار والامتحان: أن يجد المؤمن أمماً وحكومات غارقة في الكفر والفسق، وهي في الوقت نفسه متحضّرة في حياتها راقية في أقتصادها وخيراتها ونعمها.

ومن الاختبار والامتحان: خوف المؤمن على ذويه وأحبائه من إصابتهم بالأذى بسببه وبسبب مقاومته للكفر والباطل، وهو لا يملك القوه ليدفع عنهم الأذى، وهم يدعونه للاستسلام والمسالمة.

وهنالك امتحان الغربة في الوطن والاستيحاش بالعقيدة وهو يرى الكثير غارقين في الانحراف العقائدي والسلوكي.

ومن الاختبار والامتحان: أن تدعوه نفسه إلى إشباع الشهوات، والرغبة في الأموال والمناصب، والدعوة إلى الهدوء والراحة والاسترخاء وترك المسؤولية.

فإذا صبر الإنسان، فرداً كان أم مجتمعاً، أمام الشدائد والآلام، وتحمّل الأذى والاضطهاد والحرمان، ولم يركن أويستسلم، وبقي مع الله تعالى مخلصاً لعقيدته ومنهجه،وجعل عقيدته ومسؤوليته وأمانته عزيزة، فإنّ الله تعالى سيجازيه في الدنيا والآخرة ويبقى معه مؤيداً ومسدّداً وحامياً وناصراً.

ومن أهمّ مظاهر الجزاء والثواب:

أوّلاً: الجزاء والثواب الدنيوي

١ - النصر

قال تعالى: { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا }[الأنعام: ٣٤].

٢ - الاستخلاف

قال تعالى: { قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }[الأعراف: ١٢٨].

٣- قيادة البشرية

قال تعالى: { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . . }[القصص: ٥-٦].

٤ - الهداية نحوالمعرفة التامة.

قال تعالى: { وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ }[العنكبوت: ٦٩].

ولوتتبّعنا الآيات المباركة التي تتحدث عن قصص الأنبياء لوجدنا كيف نصرالله تعالى الرسل والأنبياء وأتباعهم بعد طول البلاء وبعد نجاحهم في

الامتحان والاختبار، فانتصر نوح وموسى وداود وسليمان ورسول الله محمد ' ، وسينتصر الإمام المهدي عليه السلام وأتباعه في نهاية المطاف لتتحقّق العدالة الشاملة ويظهر الإسلام في جميع أنحاء الأرض.

ثانياً: الجزاء الأُخروي

وردت عشرات الآيات ومئات الأحاديث الشريفة بحقّ الصابرين على البلاء والاختبار والامتحان ـ لامجال لذكرها للاختصار ـ وسنكتفي بذكرها على هيئة نقاط:

١. تمحيص الذنوب وغفرانها ومحوالخطايا.

٢. توفير الحسنات.

٣. الأجر بغير حساب.

٤. الدرجات العليا في الجنة.

٥. الأمان من الفزع الأكبر.

٦. التخفيف من سكرات الموت.

٧. الحظ العظيم.

٨. تحية الملائكة.

٩. الفوز الكبير.

١٠. رضوان الله تعالى.

وفي أجواء الشدّة والأذى والألم الذي نعيشه من تسلط الأجانب وتلاعبهم بمصيرنا، ومن فتن ومحن متنوعة، ومن فقدان الأمان، وقلة الخدمات، وضنك العيش، فإنّ الصبر والثبات على المنهج الإلهيّ، منهج أهل البيت عليهم السلام؛ كفيل بالفوز والنجاح والظفر؛ فإنّ ما نعيشه من شدائد ومحن ما هي إلاّ مظهر من

مظاهر الإعداد لنكون وأجيالنا القادمة من جنود الإمام المهدي عليه السلام؛ لأنّ انتصاره وظهوره متوقف على النجاح في الامتحان والتمحيص.

* * *

الهوامش:

(١)الرازي، مختار الصحاح: ٦٤، دارالكتاب العربي بيروت، ١٤١٢هـ.

(٢)ابن منظور، لسان العرب١٣: ٣١٧، نشر أدب الحوزة، قم،١٤٠٥هـ.

(٣)الطريحي، فخرالدين، مجمع البحرين٦: ٢١٩، مكتب الثقافة الاسلامية، قم،١٤٠٥هـ.

(٤)المصدر السابق١: ٦٠، ٦١.

(٥)الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن١٦: ١٠٣، دارالكتب الاسلامية، طهران، ١٣٨٤هـ.

(٦)فيصل محمدمحسن، تجارب الشعوب: ٢٧، دارالوفاء، بغداد، ١٤٢٨هـ.

(٧)الحراني، ابن شعبة: ٢٧، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٦هـ.

(٨)المصدر السابق: ٣٠٦.

(٩)الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن٤: ٢٨.

(١٠)الطباطبائي٤: ٢٨، ٢٩.

(١١)الآمدي، عبدالواحد، غررالحكم ودررالكلم: ٩٩، ١٠٠.

(١٢)الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول: ٢٨٢، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨٦هـ.

(١٣)تحف العقول: ٢٦٢.

(١٤)نهج البلاغة:١٩٩، تحقيق د. صبحي الصالح.

(١٥)الكليني، محمدبن يعقوب، الكافي٣: ٥٠٥، دارالتعارف، بيروت، ١٤٠١هـ.

(١٦)الهندي، علي المتقي، كنزالعمّال٣: ٦٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.

(١٧)الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء٤: ١٠٠، جامعة المدرسين، قم، ١٤٠١هـ.

(١٨)المجلسي، محمدباقر، بحارالأنوار٧٠: ١٠٧، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(١٩)تحف العقول: ٢٦.

(٢٠)المدائني، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٤٥٤، مطبعة البابي، القاهرة، ١٣٨٦هـ.

(٢١)السبزواري، محمد بن محمد، جامع الأخبار: ٣٠٩، مؤسسة آل‌البيت (عليهم‌السلام)، قم،١٤١٤هـ.

(٢٢)المصدر السابق: ٣١٠.

(٢٣)المصدر السابق: ٣١٣.

(٢٤)المصدر السابق: ٣١٠.

(٢٥)المصدر السابق: ٣١١.

(٢٦)الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول: ٧٣، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٦هـ.

(٢٧)الكافي٤: ٦.

(٢٨)الكافي٥: ٥٦.

السبل العملية
لتعميق موقعية القدوة لدى الشباب

الدكتورة: غادة أحمد عيسى (*)

تمهيد

من السهل تأليف كتابٍ في النظرية، ومن السهل تخيّل منهجٍ في الأخلاق، وإنْ كان في حاجةٍ إِلَى إحاطة وبراعة وشمول، ولكنّ هذا المنهج وذلك الكتاب يظلّ حبراً على ورق، يظلّ معلّقاً في الفضاء، ما لم يتحوّل إِلَى حقيقةٍ واقعة تتحرّك في واقع الحياة، ما لم يتحوّل إِلَى بشرٍ يترجم بسلوكه وتصرّفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ يتحوّل المنهج إِلَى حقيقة، يتحوّل إِلَى حركة، يتحوّل إِلَى تاريخ...

ولقد علم الله سبحانه ـ وهو يضع هذا المنهج العلوي المعجز ـ أَنَّه لا بدّ من ذلك البشر، لا بدّ من قلبٍ يحمل المنهج ويحوّله إِلَى حقيقة، لكي يعرف النّاس أَنَّه حقّ فيتّبعوه، لا بدّ من قدوةٍ، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

١) خطة المقال:

(*) دكتوراه في قانون الأعمال، باحثة إسلامية/ لبنان.

في هذه الورقات أُريد أنْ أُركّز على موقعية القدوة في النظام الأخلاقي الواقعي الَّذِي رفع شعاره الإسلام، في مقابل الأخلاق المثالية التي لا تقبل التطبيق، ولا ربط لها بالواقع الإنساني الَّذِي تتجاذفه أيادي العقل من جهةٍ وأخطبوط الغريزة من جهةٍ أُخرى.

كما أنِّي سوف أسعى إِلَى تسليط الضوء على السُّبل العملية لتنمية موقعية القدوة والأُسوة الحسنة عند شبابنا؛ لغرض إيجاد الحلول العملية لإخراج هذا الجيل من براثن الغزو الثقافي، الَّذِي إنْ لم نلتفت إليه جرف هذا الجيل والأجيال القادمة إِلَى أحضان ثقافةٍ هجينةٍ وبعيدةٍ كل البعد عن مجتمعاتنا وتعاليم ديننا الحنيف.

١/ ١) إشكالية البحث:

وعليه فإشكالية البحث تتمحور في محورين أساسيين:

الأوّل: موقعية القدوة في المنهج الأخلاقي والتربوي في الإسلام. ويتمّ استيعابه في ضمن الإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما هو المراد من القدوة؟
٢. ما هو الفرق بين اتخاذ القدوة والتقليد المذموم؟
٣. ما هي الضوابط التي على أساسها نختار القدوة؟

الثاني: السُّبل العملية لتنمية موقعية القدوة والأُسوة الحسنة عند شبابنا. ويتمّ بحث هذا المحور في ضمن الإجابة على السُّؤالين التاليين:

١. ما هي الآثار المترتبة على اختيار القدوة الحسنة في المجتمع؟
٢. ما هي السبل العملية لتنمية موقعية القدوة على ضوء القرآن والأحاديث الواردة عن النبيّ ' وأهل بيته الكرام ^ ؟

٢) جولةٌ في المفهوم والمفاهيم المشابهة:

٢/ ١) القدوة في الاستعمالات اللُّغوية:

قال الفراهيدي: «القُدو: الأصل الَّذِي انشعب منه الاقتداء، وبعضٌ يكسر، فيقول: قِدْوة، أي: به يُقتدى، قال الكميت:

والجود من راحتيك قِدوته وكان حذواً في الشعر والخطب»[1]

وقال ابن فارس: «قدو: القاف والدال والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلّ على اقتباس بالشيء واهتداء ومقادرةٍ في الشيء حتى يأتي به مساوياً لغيره»[2].

وعليه، فالاقتداء في الاستعمال اللُّغوي يتضمّن معنى المحاكاة، والمحاكاة ـ كما هو واضحٌ ـ تقتضي وجود أركان ثلاثة بدونها لا تصدق المحاكاة:

الأوّل: المحاكِي، وهو المقتدي.

والثاني: المحاكَى، وهو المقتدَى به.

والثالث: الصّفة الموجودة في المحاكَى، والتي يريد المحاكِي محاكاتها.

٢/ ٢) القدوة في استعمال علماء الأخلاق والتربية والاجتماع:

لا يعني الحديث عن المعنى الاصطلاحي لكلمةٍ من الكلمات أن تنفصل بالكلية عن جذورها اللّغوية، بل كثيراً من الأحيان يرى أهل الاختصاص والباحثون أنَّ الكلمة بما تحمل من ترسباتٍ لغوية وافية في التعبير عن مقصودهم، فلا يحتاجون إِلَى تطويع المفردة اللُّغوية، والخروج بها عن معناها الأوّل إِلَى معنى جديد.

وكلمة «القدوة» من هذا الباب، فإنّ أهل الاختصاص من علماء الأخلاق والتربية والاجتماع، انطلقوا من أهدافهم ليبرزوا أمام ذهن الإنسان شخصيّة تتحلّى بالصفات المكتملة؛ ليتمّ تشويقه ودعوته إِلَى محاكاتها وتقليدها، وعندما رجعوا إِلَى مخزونهم اللُّغوي وجدوا أنَّ اللُّغة قد تكفّلت بإعطاء مفردةٍ تضمن هذا المعنى الَّذِي وضعوا له خصائص معيّنة كلٌّ على ضوء أهدافه ورؤيته الخاصة به حول الكمال.

وعلى هذا الأساس نستطيع القول إِنَّ القدوة ومشتقاتها عند أهل

الاختصاص لم تخرج عن معناها اللُّغوي.

٢/ ٣/ ١) المفاهيم المشابهة:

إنَّ أهمّ مفردة حلّت محلّ مفردة «القدوة» هي مفردة «الأسوة»، الّتي هي أكثر شياعاً في النصوص الشرعية، مع وجود امتيازٍ فيها تحمله من مدلولها اللُّغوي؛ حيث إنَّها تستبطن مع الاقتداء معنى الإصلاح والمداواة، قال ابن فارس: «أسو: الهمزة والسين والواو أصلٌ واحدٌ يدلّ على المداواة والإصلاح، يقال: أسوت الجرح، إذا داويته؛ ولذلك يسمّى الطبيب: الآسي»[٣].

٢/ ٣/ ٢) القدوة والتقليد المذموم:

التقليد يمكن أنْ ينوّع إلَى نوعين: التقليد في الضلال، والتقليد في الهدى، والأوّل ذمّه القرآن الكريم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات]، وقال أيضاً: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، والثاني وهو التقليد في الهدى، ويرجع إلَى اتخاذ القدوة الحسنة، وهو أمرٌ ممدوح.

وما ذكرته في امتياز مفردة «الأسوة» على مفردة «القدوة» ينفع في التفريق بين ما نريده من الاقتداء والتأسّي وبين التقليد المذموم؛ ومن هذا المنطلق نلاحظ أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل مفردة «الاقتداء» إلَّا مع وجود ما يدلّ على الهداية، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

بينما استعملت المفردة الأخرى مع تأكيدها دائماً بوصف الحسن، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال أيضاً: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال كذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

٣) ضوابط اختيار القدوة:

الإنسان بطبعه موجود يبحث عن الكمال، غاية الأمر قد يتفاوت بنو البشر

فيما يعتبرونه كمالاً لهم، إلَّا أنَّه مِمّا لا يرتاب فيه أحدٌ أنَّه يوجد بعض الصّفات التي توافق عليها المجتمع البشري بكلّ طبقاته وتوجّهاته، توافق على كونها من الصفات الكمالية التي لكماليتها يسعى كُلّ فردٍ منّا أنْ يُظهر نفسه على أساس أنَّه يتحلّى بها، وهذه الصفات هي التي عبّر عنها فلاسفة الإسلام بـ «الآراء المحمودة» تارةً وبـ «التأديبات الصلاحية» تارةً أخرى(٤).

ومن هذا المنطلق، يمكن عدّ ضابطتين موضوعيتين لاختيار القدوة والأسوة الحسنة:

الضابطة الأُولى: الاختيار على أساس الصفات الكمالية التي توافق على كماليتها الرأي العام البشري. فالأسوة الحسنة على أساس هذه الضابطة هو ذلك الإنسان المشتمل على صفات الكمال التوافقية، من قبيل العدل والإحسان والشجاعة والإيثار والتواضع و...، وهي تلك الصفات التي أكّدها القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

مع الالتفات هنا إلَى لزوم التفريق بين الرأي العام التضليلي وبين الرأي العام الواقعي؛ إذ أنَّ الأعداء كثيراً ما يحاولون في مجال غزوهم الثقافي أنْ يزرعوا القدوة في نفوس شبابنا عن طريق إيجاد رأي عام وهميّ، يستفيدون من وسائل الإعلام المختلفة للترويج له وتسويقه.

وفي هذا المجال، يكون رجوع الإنسان إلَى قرارة نفسه وتجرّده عن كلّ أبواق الدعاية، والاستعانة بأهل الخبرة الموثوق بهم، من جملة العلاجات الناجعة للتفريق بين المثل العليا الواقعية والمثل العليا الوهمية.

الضابطة الثانية: الرُّجوع إلَى مَنْ عيّنه الدين لنا على أساس أنَّه قدوة وأسوة حسنة يجب التأسّي بها، وفي هذا المجال يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ صلى الله عليه وآله فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ وَالْمُقْتَصُّ لِأَثَرِه**»(٥).

ويتابع عليه السلام في بيان سبب أمره بالتأسّي برسول الله ' قائلاً: «**قَضَمَ الدنْيَا**

قَضْماً وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً أَهْضَمُ أَهْلِ الدنْيَا كَشْحاً وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ الدنْيَا بَطْناً عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا وَعَلِمَ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ الله وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ الله لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً لله وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ الله وَلَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وآله يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ غَيِّبِيهِ عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنْيَا وَزَخَارِفَهَا فَأَعْرَضَ عَنِ الدنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ»[٦].

وعلى شبابنا أنْ يتخذوا هذه الصفات المذكورة على لسان أمير المؤمنين عليه السلام مقياساً على أساسه يختاروا القدوة التي يتّبعونها.

٤) آثار القدوة في المجتمع:

الإسلام كدينٍ إلهي صادرٍ من علام الغيوب، الَّذِي لا يُشرّع تشريعاً يعود بالنفع عليه؛ لكونه هو الغني المطلق، وإنّما يشرّعه لمصلحة الإنسان، والمجتمع البشري ككل، هذا الدين ليس يدعو إِلَى اتّخاذ القدوة فحسب، بل يدعو إِلَى صناعة القدوة، وأنْ يسعى كُلّ إنسانٍ أنْ يصبح قدوةً لغيره، خصوصاً إذا كان في منصبٍ دنيوي أو أخروي.

فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول في وصيّته لمحمد بن أبي بكر لّما ولاّه مصر: **«وَاجْعَلْ نَفْسَكَ أُسْوَةً لِقَرِيبِ الْمُسْلِمِينَ وَبَعِيدِهِم»**[٧].

ويقول عليه السلام عن نفسه: **«أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أُشَارِكَهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغْلُهَا تَقَمُّمُهَا تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا أَوْ أُتْرَكَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثاً أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ**

الضَّلَالَةِ أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمُتَاهَة»[٨].

والذي أُريد أنْ أرمي إليه بهذا التقديم هو أنَّ تركيز الدين على بعدين يرتبطان بالاقتداء:

الأوّل: اتخاذ القدوة.

والآخر: صناعتها.

وهذا يعني أنَّ كلّ فردٍ من أفراد المجتمع سوف لا يخرج عن هذين البعدين، مع إمكان اجتماعهما في شخصٍ واحدٍ؛ فإنّ المُثُل الوسطى تكون قدوةً للمُثُل الدنيا، وفي الوقت نفسه تكون المُثُل العليا قدوةً لها.

وهذا سوف يؤدّي إِلَى تفعيل حركة الاقتداء في المجتمع، وبالتالي تصبح الآثار الحسنة المتوخاة من الاقتداء شاملةً وعامةً لكلّ أفراد المجتمع وفئاته.

وعلى نحو العجالة أُشير إِلَى أهمّ هذه الآثار المرجوة من تفعيل دور الاقتداء في كلا بعديه: اتخاذ القدوة، وصناعتها:

١. أنَّ تفعيل دور الاقتداء ينفع في بداية مرحلة الوعي الأولى لدى الإنسان، فيتلقّى الشمائل الخلقية والصفات الحسنة بطريقةٍ عملية؛ ولذا يؤكّد علماء النفس والتربية على أهمية التلقين من خلال تفعيل دور القدوة، وأنَّ نشأة الأطفال في أسر متوازنة مستقرّة من أهمّ عوامل التربية السليمة[٩]. فهذا الطفل الَّذِي يرى أبويه اللّذين يقدسهما يقومان بالأعمال الفاضلة، ويتصفان بالشمائل الحسنة، فإنّه في بداية مدركاته سوف يقوم بتقليدهما، وبالتالي يصبح ذلك عادةً وسجيةً يجري عليها عندما يصبح شاباً يافعاً.

٢. أنَّ معرفة صاحب المقام (الأب، الأم، المعلّم، صاحب المنصب الديني، صاحب المنصب السياسي، و...) بعد التفاته إِلَى كونه في مقام القدوة، سوف يحاول بطبيعة الحال أنْ يصلح أعماله، وتكون موافقة لأقواله؛ لكي لا يقع في حالة من النفاق. ولا يخفى ما لهذا من الأثر المهم على إصلاح المجتمع.

٥) السبل العملية لتنمية موقعية القدوة:

لّما كان مبدأ كلّ عمل اختياري في الوجود هو الفكر، بمعنى أنَّ كلّ عمل اختياري يقوم به الإنسان لا بدّ أنْ يكون مسبوقاً بالفكر، فيتصوّر الفعل وفائدته أوّلاً، ثُمّ إذا حصل له القناعة بذلك يقدِم على العمل، وإلا فيحجم عنه. وعليه فلا يمكن لأيّ باحثٍ أنْ يضع خطّةً عملية لأيّ عملٍ اختياري من دون أنْ يحسب حساباً للفكرة والقناعة العقلية.

ومن هذا المنطلق، نرى أنَّه إذا أردنا تجذير مسألة القدوة في المجتمع وتركيزها في النفوس فلا بدّ في مجال ذكر التوصيات العملية المساعدة على ذلك أنْ نُدخل في الحسبان مسألة التلقين الفكري والذهني، ولا تكون توصياتنا في معزلٍ عن ذلك.

وفي ختام هذا المقال، أقدّم بين أيدي النُّخب جملةً من التوصيات والاقتراحات المساعدة على تنمية موقعية القدوة في مجتمعاتنا، من دون أنْ ادّعي استيعاب الموضوع، بل هو مجرّد إثارةٍ بحاجةٍ إِلَى متابعةٍ وجهودٍ مجتمعة، والكمال لله الواحد القهار...

وهذه التوصيات والمقترحات أذكرها في ضمن عناوين ثلاثة:

٥/ ١) التلقين الفكري:

إِنَّ التلقين الفكري له دوره الفعال في اكتساب الإنسان للسجايا والأفعال، سواء المحمود منها أم المذموم؛ لما عرفت من مبدئيته لكُلّ فعلٍ اختياريٍّ، وقد ورد في الخبر عن مولانا الصادق عليه السلام:

«اجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ إِلَى عِيسَى عليه السلام فَقَالُوا لَهُ يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ أَرْشِدْنَا فَقَالَ لَهُمْ... إِنَّ مُوسَى نَبِيَّ اللهِ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَزْنُوا وَأَنَا آمُرُكُمْ أَنْ لَا تُحَدِّثُوا أَنْفُسَكُمْ بِالزِّنَا فَضْلًا عَنْ أَنْ تَزْنُوا فَإِنَّ مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالزِّنَا كَانَ كَمَنْ أَوْقَدَ فِي بَيْتٍ مُزَوَّقٍ فَأَفْسَدَ التَّزَاوِيقَ الدخَانُ وَإِنْ لَمْ يَحْتَرِقِ الْبَيْت»[١٠].

ما أجمل هذا التشبيه للتفكير وتحديث النفس بالدخان الَّذِي يضرب البيت الَّذِي صُبغت جدرانه حديثاً، فكما أنَّ الدخان سوف يلوّث هذه التزاويق، كذلك الحال في (حديث النفس) فإنّه سوف يلوّث قلب الإنسان ويجعله أقرب إِلَى الانحراف عن جادة الصواب. هذا إذا كان (حديث النفس) يدور حول الأُمور السّيّئة والقبيحة، وأمّا إذا كان في الأُمور الحسنة والخيّرة فسوف يكون تأثيره لصالح الخير والإحسان.

وهذا التلقين تارةً ينبع من الذات، وأُخرى يحتاج إِلَى إرشادٍ من الغير.

ففي البعد الأوّل ينبغي الاستعانة بطرق التوجيه الفكري الحديثة، ونحتاج في هذا المجال إِلَى تنمية القدرة على التدبّر في حقائق الأُمور وخواتيمها؛ لنصل من خلال ذلك إِلَى قدرةٍ على إقناع النفس على أهمية الاقتداء من جهةٍ، وإلى الصفات الكمالية المتواجدة في المثل العليا، وأنّه مِمّا علينا أن نسعى إِلَى تحصيلها والاتصاف بها لذاتها حتّى على تقدير عدم وجود رقيب وعتيد، وجنّة ونار. وليس ذلك إِلَّا لأنّ فطرة الإنسان مجبولة على حبّ الكمال والترقي به.

ولو تفكّرنا في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لوجدنا أنَّ الاقتداء والتأسّي من صفات من يتميّز بخصالٍ ثلاث:

ـ الثقة بالله.

ـ الإيمان بالمعاد.

ـ المداومة على ذكر الله.

فإنّ الثقة بالله تعالى تقتضي أنْ يكون من ينصّبه الله تعالى للأمّة والإنسانية مثلاً أعلى واقعياً، لا كالمثل التي تنصّب نفسها في هذه الدنيا، والتي تحاول أن تسير على خلاف فطرة الإنسان وجبلّته، قال الله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا

أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٤ - ٢٩]. وليس ذلك إِلَّا لأنّ الله الَّذِي نثق به هو الكمال المطلق، ومن كان هذا صفته لا ينصّب مُثُلاً إِلَّا من سنخه، بخلاف المُثُل الأرضية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

كما أنَّ الإيمان بالمعاد يُعطي الإنسان الإحساس بالمسؤولية، ويضع البوصلة بالاتجاه الصحيح، فلا يقلّد ولا يقتدي إِلَّا بقدوةٍ يستطيع في المستقبل وفي يوم الآخرة أنْ يقدّم الجواب المقنع عندما يأتيه النداء: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

وعليه فالإيمان بالمبدأ والثقة به، والاعتقاد باليوم الآخر سببٌ وباعثٌ في الحركة نحو الاقتداء.

وأمّا الخصلة الثالثة ـ وهي المداومة على ذكر الله تعالى ـ فهي العامل على استمرار هذا الأمر.

فلا شكّ أنّ من لم يمتلئ قلبه بهكذا إيمان لا يقدر أن يضع قدمه موضع قدم الأنبياء والأوصياء والأولياء، و إذا لم يدم ذكر الله ويعمّر قلبه به أثناء استمراره في هذا الطريق، ويبعد الشياطين عنه، فسوف لا يكون قادراً على إدامة التأسّي والاقتداء.

وفي البعد الثاني ـ أعني: التلقين الَّذِي يحتاج إِلَى إرشادٍ من الغير ـ يكون الاعتماد الأكبر فيه على النُّخب المثقفة والواعية في كُلّ مجتمع.

٥/ ٢) التلقين العملي والمحاكاة:

إِنَّ الإنسان في مراحله الأُولى، قد لا ينتفع من التلقين الفكري ولو من خلال إرشاد الغير وتوجيهه؛ وليس ذلك إِلَّا لأنّ الاستفادة من هذه الوسيلة بحاجةٍ إِلَى استعداد ذهنيٍّ معيّنٍ، قد لا يتوفّر في الإنسان في مراحله الأُولى (مرحلة الطفولة). فلا بدّ حينئذٍ من استبدال هذه العملية بعمليّةٍ أُخرى تتلاءم مع

الاستعداد الذهني والوظيفي لتلك المرحلة.

وهذه العملية الجديدة عبارة عن التلقين العملي والسلوكي أمام مرآة الذهن، وتكرار ذلك ليدخل في اللاوعي الذهني للطفل في مراحله الأُولى؛ ليبدأ بعد ذلك بعملية المحاكاة.

والفرق بين هذا النوع من التلقين والنوع السابق، أنَّ التلقين في نوعه السابق كان أشبه بعملية تعليمٍ مباشرة، بينما هذا يشكّل عملية غير مباشرة للتعليم.

وعلى هذا الأساس، لا بدّ للآباء والأُمهات أنْ يُدخلوا في برنامجهم التربوي هذا التعليم غير المباشر، والمعتمد على التلقين العملي، من خلال اتصافهم بالأخلاق الحسنة وقيامهم بالأعمال الخيّرة أمام مرأى ومسمع الطفل؛ ليكتسب هذه الفضائل من خلال ما أودع الخالق في فطرته وجبلّته من حبّ الاقتداء.

وذكرنا للطفل في مراحله الأُولى لا يعني أنَّ هذه التوصية تختصّ بتلك المرحلة، بل كثيراً ما يستفاد منها في مراحل أكثر وعياً وتقدّماً؛ لما للتلقين العملي من دور فعال ومؤثّر أمام اللاوعي الذهني. وفكرة (اللاوعي الذهني) تتواجد عند الكثير من الناس في جميع مراحلهم.

وعلى هذا الأساس نفهم النُّصوص الواردة عن أئمّة أهل البيت ^ الآمرة بالدعوة إِلَى الله عن غير طريق اللسان.

ـ نقل الكليني بإسناده عن أَبِي أُسَامَةَ، قَالَ: «**سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهعليه السلام يَقُولُ عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالْوَرَعِ وَالِاجْتِهَادِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَكُونُوا دُعَاةً إِلَى أَنْفُسِكُمْ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ وَكُونُوا زَيْناً وَلَا تَكُونُوا شَيْنا**»[11].

ـ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهعليه السلام: «**كُونُوا دُعَاةً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِكُمْ لِيَرَوْا مِنْكُمُ الْوَرَعَ وَالِاجْتِهَادَ وَالصَّلَاةَ وَالْخَيْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ**»[12].

ـ عن أمير المؤمنينعليه السلام قوله: «**إِنَّ الوعظ الَّذِي لا يمجّه سمعٌ ولا يعدله نفعٌ**

ما سكت عنه لسان القول ونطق به لسان العمل [العقل]»[١٣].

٥/ ٣) الاستتار حين المعصية:

لا شكّ أنَّ تمثيل الجريمة أمام الناس وإشاعتها له الدور الفاعل في تقليل دور (التهيُّب) الموجود عندنا في اقتراف الجرائم والذنوب.

ولأجل ذلك أكّدت النُّصوص الدينية على عملية الستر والتستُّر وعدم إشاعة الفاحشة بين المؤمنين.

ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

ـ واشتهر في الخبر: «**إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا**».

فلو حاولنا جهدنا في إبعاد أطفالنا وأولادنا عن مواطن الفساد، وأخفيناها عنهم، مع عدم نسياننا لضرورة ترشيدهم عند الوقوع فيها، لو حاولنا كلّ ذلك لاستطعنا أن نوصل فلذات أكبادنا إِلَى شطّ الأمان، ولبقي عندهم (التهيّب) الفطري الَّذِي يُشكّل حاجزاً ومانعاً عن جموح النفس وميلها نحو الممنوعات.

الخاتمة:

ـ أوجد الله سبحانه وتعالى من يصلح ليقتدى به حتى لا يكون منهجه الأخلاقي والتربوي يعيش في المثل التي لا تقبل التطبيق، وليعرف الإنسان أنَّ الله تعالى لا يُشرّع منهجاً وقانوناً إِلَّا وهو قابل للتطبيق.

ـ القدوة عند علماء التربية والأخلاق والاجتماع لم تخرج عن معناها اللغوي والعرفي الَّذِي يتضمن معنى المحاكاة، المقتضي لوجود عناصر ثلاثة: المحاكي، والمحاكى، والصفة التي يراد محاكاتها.

ـ استعمل القرآن الكريم والنصوص الواردة عن أئمة الدين ^ ألفاظاً مشابهة من قبيل مفردة «الأسوة» المستبطنة لمعنى الإصلاح والمداواة.

ـ القدوة والأسوة تتميّز عن التقليد المذموم بكونها في سبيل الهداية والخير، دون أن يتضمن التقليد هذا النوع من التوجّه.

ـ لاختيار القدوة ضوابط، أهمها اثنتان:

١. الاختيار على أساس كمالية المنتخب.

٢. الاختيار على أساس التعيين ممّن بيده أمر تعيين القدوة.

ـ اهتم الدين الإسلامي باتخاذ القدوة من جهةٍ وصناعتها من جهةٍ أخرى، مِمّا يؤدي إِلَى تفعيل دور القدوة في المجتمع البشري، وهذا يجعل النفع عميماً في المجتمع.

ـ التوصيات النهائية لتفعيل دور القدوة عند الشباب تكمن في الثلاثية التالية:

١. التلقين الفكري.

٢. التلقين العملي المؤدي إِلَى المحاكاة.

٣. الاستتار حين المعصية.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾...

* * *

الهوامش:

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين ٥: ١٩٥، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الطّبعة الثّانية ١٤١٠، نشر: مؤسسة دار الهجرة.

(٢) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللُّغة ٥: ٦٦، تحقيق وضبط: عبد السَّلام مُحَمَّد هارون، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، قم.

(٣) المصدر نفسه ١: ١٠٥.

(٤) قال الشَّيْخ محمد رضا المظفّر﵀ في كتاب المنطق: «التأديبات الصلاحية: وتسمى المحمودات

والآراء المحمودة، وهي ما تطابق عليها الآراء من أجل قضاء المصلحة العامة للحكم بها باعتبار أَنَّ بها حفظ النظام وبقاء النوع، كقضية حسن العدل وقبح الظلم. ومعنى حسن العدل: أن فاعله ممدوح لدى العقلاء، ومعنى قبح الظلم: أَنَّ فاعله مذمومٌ لديهم».

(٥) الشريف الرضي، نهج البلاغة: ١٨٦، تحقيق: عزيز الله العطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأُولى ١٤١٤، قم المقدسة.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ١٠١: ٢٧٦، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(٨) نهج البلاغة: ٣٥٩، مرجع سابق.

(٩) موقع أُمهات بلا حدود....

(١٠) الكُلَيْني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٥: ٥٤٢، كتاب النكاح، باب: الزانية، الحديث: (٧)، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطَّبعة الثّالثة ١٣٦٧ش، دار الكتب الإسلاميَّة، طهران.

(١١) المصدر نفسه ٢: ٧٧، باب: الورع، الحديث: (٩).

(١٢) المصدر نفسه: الحديث: (١٤).

(١٣) اللَّيثي الواسطي، علي بن مُحَمَّد، عيون الحكم والمواعظ: ١٥٥، تحقيق الشَّيْخ حسين الحسني، الطَّبعة الأُولى ١٣٧٦ش، دار الحديث، قم.

الحكّام العرب بين الإسلام واليهوديّة

جدار غزّة نموذجاً

الشيخ علي ناصر (*)

أوّلاً: الأبعاد التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة:

إنّ الدراسة الصحيحة للماضي والحاضر والمستقبل، في الأبعاد التاريخيّة والدينيّة والسياسيّة، يجب أن ترتكز على تفكير استراتيجي واقعيّ يحدِّد نقاط القوّة والضعف على المستوى الداخليّ، والفرص والتهديدات على مستوى البيئة الوسطى والخارجيّة، كي نحدِّد القضايا الاستراتيجيّة التي ينبغي التركيز عليها، واستنتاج الأهداف الاستراتيجيّة منها، والتي ينبغي العمل على تحقيقها وترجمتها على أرض الواقع عبر خططٍ تتضمّن الأهداف المرحليّة والتكتيكيّة والسياسات والبرامج العمليّة التي تلحظ عنصري الزمان والمكان، والتي ينبغي تحديد الموارد المطلوبة لتنفيذها، وتأمين هذه الموارد. وتبرز أهمّيّة هذا النمط من التفكير في مجتمعاتنا الإسلاميّة، ولا سيما إذا تعلّق الأمر بصراع عربي ـ صهيوني،

(*) باحث إسلاميّ/ لبنان.

وإسلامي ـ يهودي، دام زمناً طويلاً.

أ. البعد التاريخيّ

يتّضح البعد التاريخي في هذا البحث حيث إنّ اليهودية ديانة سماوية سابقة على الإسلام، كما أنّ اليهود تواجدوا في شبه الجزيرة العربية قبل هجرة النبي الأعظم محمد بن عبد الله ' إلى يثرب التي أصبح اسمها بعد الهجرة النبوية «المدينة». ويتساءل البعض عن علاقة ما يجري من نزاعات دينية، أو مذهبية، أو سياسية في عصرنا الحاضر مع أحداث عايشها العرب والمسلمون في زمن النبي محمد ' . والواقع أنّ التاريخ ذاكرة الجنس البشري ومستودع تجاربه، وهو ينطوي على مجموعة قوانين وسنن ثابتة. فالتاريخ له أهمّيّته وتأثيره في حياة الشعوب والأمم، وفيه عبرة لأولي الألباب. بل إنّه مختبر الحياة العظيم، الذي يمكننا من خلاله تقييم مختلف القضايا الاجتماعيّة ودراستها واستخلاص النتائج والعبر منها. والإسلام يدفعنا إلى الإفادة من تجارب الأمم والشعوب، وفهم سنن الحياة، فكيف إذا كنّا نأخذ العبر من تجارب أمتنا أيضاً؟

إنّ القرآن الكريم قد فتح الباب على مصراعيه أمام عموم المسلمين لتدارس حياة الأمم السالفة، وتلافي موارد العطب، ومواضع الهلكة. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٧]، وقوله أيضاً: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[الحجّ: ٤٦]، وغير ذلك من الآيات الكريمة، فقد أوقد القرآن في مخيلة المسلم المتدبر في آياته فكرة البحث والتنقيب عن حياة الأمم السالفة.

وها هو الإمام علي عليه السلام يؤكّد في وصيّته لابنه الإمام الحسن عليه السلام على أهمّيّة التاريخ والاستفادة من تجارب الآخرين حيث يقول: «**أي بني إنّي وإن لم أكن**

عمّرت عمر من كان قبلي فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم. بل كأنّي بما انتهى إليّ من أمورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيله[1]، وتوخّيت[2] لك جميله، وصرفت عنك مجهوله»[3].

ولكنّ المؤسف أنّ كتب التاريخ تعاني من نقص كبير من حيث الإشارة إلى العِبر، وإبراز العلل الحقيقية الكامنة وراء الحوادث المتنوعة والوقائع المختلفة. فدراسة التاريخ تكتسب أهمية حياتية وحضارية بالغة، فهو علم عميق الأغوار له أدواته ووسائله، ويستلزم كسائر العلوم تجرّداً وحياداً ووعياً بالمقاصد. وإذا كانت أمّة (اقرأ) لا تقرأ التاريخ فلتقرأ الحاضر الذي تعيشه يوماً بيوم ولحظةً بلحظة، ولتأخذ العِبر من الماضي القريب، وممّا آلت إليه الأمور من سوء الأحوال بسبب تَرَبُّعِ حُكّامٍ مستبدين، وطغاة، على عروش مملكتنا العربية.

زد على ذلك أنّه لا بد من المقارنة غير المباشرة بين وجهة النظر الإسلامية لهذا الصراع التاريخي ووجهة النظر الغربية فيه، والتدقيق في كلمات المستشرقين التي فيها الغث والسّمين، وفي كلمات بعض الباحثين الإسلاميين، الذين يشاركون المستشرقين في بعض أخطائهم.

ويمكننا القول بأنّ الاستشراق هو الرؤى الغربية الأوروبية المتكونة عن الإسلام، تحديداً في القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرين. لقد كانت الولايات المتحدة الأميركية تنظر إلى الشرق الأوسط حتى الحرب العالمية الثانية على أنّه محمية أوروبية، ولذلك كانت تنزل عند إرادة حلفائها الأوروبيين في تعاملها مع المنطقة. ولكن منذ الحرب العالمية الثانية، وبروز الولايات المتحدة كقوة عظمى ذات مصالح أساسية في المنطقة، نظرت الولايات المتحدة إلى العرب والعروبة كتهديدٍ لمصالحها؛ لذلك تمّ تشويه سمعة العرب كجماعة دينية أو ثقافية أو قومية، وبشكل مركّز ومنظّم. وبناءاً عليه فقد تمّ الخلط بين الدول

جغرافيّاً وسياسيّاً، بحيث أصبحت «إسرائيل» دولةً عربية، ومدينة إيلات هي الآن مدينة مصرية! كما تمّ نشر الصورة الذهنية السيئة عن العرب والمسلمين في الكتب التي يدرسها الطلاب الأميركيون في المدارس الابتدائية أو الثانوية، ونقل الصورة السيئة والبغيضة من اليهودي الذي يرتدي القلنسوة ونجمة داود، والغد العالمي، والمراوغ، والفاسد، والمرتشي، والفوضوي، والشرِه للمال، إلى العربي الذي يرتدي العباءة والكوفية، البدوي، المُغرم بالغزو والنهب والسلب، الوثني الكافر، ورمز الشرّ، الثري الذي يشتري أميركا ويتسبّب في ارتفاع الأسعار، ولاسيّما العقارات، وصاحب آبار النفط، وسيارات (الليموزين) الطويلة، واللحية السوداء الضخمة، والنظارات الشمسيّة السوداء. ولم يقتصر الأمر على العرب، بل طال المسلمين أيضاً، فالمسلمون يكرهون المسيحيين، والإسلام ديانة غير متسامحة، انتشرت بحدِّ السيف فقط[٤].

ب. البعد الديني:

لا شكّ أنّ للدين تأثيره العميق في حركة التاريخ سواء من ناحية المفاهيم العامّة، أو القناعات العقدية، أو الاندفاعات العاطفية، والنفسية، والمعيشية، أو النظرة إلى الحكّام وطبيعة التعامل معهم، وبالتالي تأثيرات ذلك على نشأة الحرب، ثمّ على مسارها ونتائجها. وفي ذلك يقول العلامة المحقق في التاريخ الإسلامي السيد جعفر مرتضى: «**فلا محيص إذاً عن الاستفادة من العامل الديني لكشف الكثير من جوانب وخلفيات وظروف الحدث التاريخي موضع البحث**»[٥].

ويبرز البعد الديني في هذا البحث أيضاً، فالعنوان يوحي بأن بعض العرب كانوا متحالفين مع اليهود في يثرب، منبهرين بأحبارهم، ومتأثرين بتعاليم كتبهم التي يعتبرونها مقدسة، بل إنّ معظمهم كانوا يعبدون الأصنام، ولكن الله

تعالى بعث فيهم نبيّاً منهم يتلو عليهم آيات القرآن الكريم، الذي نزل باللغة العربية الفصيحة، والبليغة، ويزكّيهم، ويعلمهم الحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وقد آمن معظم العرب بالرسالة السماوية الخاتمة، والمتكاملة، والقادرة على مواكبة العصر، والإجابة عن تساؤلات البشرية، وتقديم الحلول العملية والعادلة للمشاكل الإنسانية، والاجتماعية، والفكرية، وتلك المتعلقة بالحكم والحكومة وإدارة شؤون العباد والبلاد.

ويدّعي البعض أنّ سرّ تأخّر الشرق هو التمسّك بالدين، والواقع أنّ السبب هو الابتعاد عن الإسلام المحمدي الأصيل، ووجود ملوك ورؤساء لا يتمتعون بالصفات الشرعية، واللياقة الشخصية المطلوبة في الحاكم الإسلامي، حكّام يخضعون لسياسات الغرب وأطماع الأعداء، ويعتمدون على حلول مستوردة تحت شعار التنمية، والإعمار، والنهوض العلمي.

والحلّ موجود في الشريعة الإسلاميّة على أساس الحاكم الفقيه الجامع للشرائط، أي: العالم بدين الله، العادل، والبصير بشؤون العصر، والشجاع، والقادر على القيام بالأمر، وإدارة الدولة، وصيانة المسار الصحيح لأداء المؤسسات الدستوريّة والأجهزة الحكوميّة المختلفة، وذلك عن طريق الآليات التي ينصّ عليها دستور الجمهورية الإسلامية الذي كُتِب من قبل مجتهدين عدول، وتمّ تأييده من قبل الولي الفقيه، وجرى الاستفتاء الشعبي العامّ عليه.

ج. البعد السياسي:

إنّ تنبيه الأمّة من مؤامرات الأعداء الثقافيّة والاقتصادية والسياسية والعسكرية والأمنية واستنهاضها وإخراجها من الغفوة والسبات، من المهمات الرئيسية للحاكم الإسلامي، وهو غير قادر على تحقيقها دون وجود سلطة لديه تخوله القيام بالمهام الملقاة على عاتقه، فلا بدّ من تناسب الصلاحيات والسلطات

المخوّلة إليه مع المهامّ المطلوبة منه. فالإسلام هو دين الحكم وإدارة شؤون المجتمع، ولذلك لا بدّ أن يكون للمجتمع الإسلامي بكلّ طبقاته وليّ أمر عادل، وحاكم شرع عليم، وقائد خبير حكيم؛ ليحفظ الأمة الإسلامية ونظامها من شرّ الأعداء، وليقوم بالعدل ومنع تعدي القوي على الضعيف، وتأمين وسائل التقدّم والتطوّر الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والأمنية، والعسكرية.

وهكذا يدخل البُعد السياسي في هذا البحث من ناحية عدم فصل الدين عن السياسة لدى القائلين أو المؤمنين بهذا المبدأ، وهم أغلب المسلمين الفاهمين للإسلام المحمدي الأصيل، الواعين لمصالح الأمة الإسلامية، ومحاولات الغرب لاستعمارها، والسيطرة على سياساتها الخارجية، والعسكرية، والأمنية، وعلى مواردها البشريّة ولا سيما قادتها، وزعمائها، ورؤسائها، بل ومفكريها، ومثقفيها، وإعلاميّيها، وضباطها الأمنيّين والعسكريين، والمدراء العامين لوزاراتها، وكلّ من هو جاهز للتعامل مع الأجنبي الراغب بالسيطرة على مواردنا المعنويّة كالخطط والسياسات والبرامج العملية والاختراعات، ومواردنا المادية سواء كانت مالية، أو تراثية كالآثار التاريخية، أو طبيعية كالنفط واليورانيوم ولا سيما إذا كان مخصّباً، أو تجهيزات حسّاسة.

ويستلهم المسلمون بكافّة مذاهبهم الدروس السياسية والجهادية من سيرة الرسول الأعظم ' ، فبعد أن وفّق الله تعالى نبيّه ' والذين هاجروا معه إلى بناء دولة إسلامية في المدينة المنورة في شبه الجزيرة العربية، ركَّز ' في سياساته الداخلية على أمرين أساسيين هما:

١. **مراعاة العرف**: لم يتدخّل النبي ' في الأمور التفصيليّة الخاصّة بكلّ قبيلة، كمسألة الزعامة، وقضايا حقوق الملكية، والتركيب الداخلي للعشيرة، وهذا المقصود من عبارة (على ربعتهم)، أي بقاؤهم على وضعهم السابق.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الديات، والتسويات المتبعة في جنايات القتل والجرح التي كانت تُدفع حسب العرف السائد؛ إذ لم يكن قد شرَّع حين وضع الصحيفة حكماً إسلامياً خاصاً في شأن الديات، وهذا هو المقصود بعبارة (يتعاقلون معاقلهم الأولى). لكنّه ' لم يترك العرف السائد كما كان تماماً، بل هذّبه بمعيار مستمرٍّ من روح الإيمان الجديد، نصّت عليه عبارة: (بالمعروف والقسط بين المؤمنين)، التي تكرّرت أكثر من مرة في الصحيفة.

٢. **الحفاظ على السلم الأهلي**: فمن جهة أراد النبي ' أن يحافظ على التوازنات العشائرية القائمة، ولكن ليس على حساب السلام الأهلي الذي حلّ بين الأوس والخزرج بدخولهم جميعاً في الإسلام. فوضع بعض البنود التي تحول دون استمرار بعض الولاء والتحالفات التي كانت سائدة في الجاهلية بين جماعات يهودية وعشائر من الأوس والخزرج، ولم يسمح لها أن تعبث بحالة السلام الجديدة وتؤدي إلى فساد وفتنة بين المؤمنين؛ إذ أنّ هذا الولاء كان له مضمون سياسي لم يعد من الجائز استمراره بعد الإسلام. ومن جهة أُخرى لم يعمل ' على المستوى الداخلي على إلغاء الآخرين، بل بادر إلى عقد معاهدة سياسية، تاريخية، تضمن حقوق وحريات العرب غير المحاربين للمسلمين، وكذلك حقوق وحريات اليهود، حيث اعتبر أنّ جميع سكان المدينة مواطنين فيها، ولهم من الحقوق والواجبات بما يساعد على تكريس العدالة الاجتماعية، ورفع الظلم، وإرساء قواعد الأمن الداخلي، والسلم الأهلي، ليتفرغ إلى الدعوة إلى دين التوحيد. فاعتبر أنّ مسؤولية دفع الظلم تقع على عاتق الجميع، فعلى جميع المؤمنين أن يلاحقوا القاتل مثلاً.

٣. الحرية الدينية: كما أعطى النبي ' اليهود الحرية في اعتناق الإسلام، أو البقاء على دينهم[٦]. فالأقلّيّات الدينية داخل المجتمع والدولة الإسلامية محترمو المال، والدم، والعرض، والكرامة، بل هم كالمسلمين في داخل الدولة

الإسلامية. ولم يثبت من سيرة النبي ' أنّه أجبر أحداً على الإسلام، بل هم أحرار في أن يقتنعوا بالإسلام أو لا يقتنعوا به، وذلك لا يؤثّر إطلاقاً على حقوقهم المدنية والدينية ما داموا يلتزمون القوانين، ولم يخونوا، ولم يتآمروا، ولم يجاهروا بالعداء. قال تعالى: { لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ }[البقرة: ٢٥٦]، أضف إلى ذلك أنّه ' أعطى اليهود الحرية الاقتصادية، كما أنّه لم يُحَمِّلهم إلا نفقتهم(٧).

أمّا على مستوى العلاقات الخارجية فقد ركَّز النبي الأعظم ' على أساس يحكم العلاقات الخارجية في تلك الحقبة من الزمن، وهو أنّ العدو الأول هو الكفر والوثنية المتمثل في ذلك الزمان بكفار قريش، الذين حاربوا الذين آمنوا برسالته ' ، ونكَّلوا بهم، ووقفوا في وجه الدعوة إلى الإسلام، فاعتبر العلاقات مع قريش محكومة بحالة الحرب، لذلك لا يملك أحد إعطاء الحماية والإجارة لقريش، سواء في ذلك الأموال والأنفس. وعلى هذا الأساس فإذا أراد مؤمن مسلم أن يُصادر مالاً قرشياً، أو يَقتل، أو يَأسر قرشياً، فليس لأحد أن يحول دون المؤمن ودون ما يبغي. كما ينبغي أن تكون علاقات اليهود مع قريش مقطوعة تماماً، وأنّ على المسلمين واليهود معاً أن يدافعوا عن يثرب ويقاتلوا في سبيل وطنهم إذا دهمهم أحد. فالنبي ' لم يُعفِ اليهود من المسؤوليات الدفاعية والعسكرية، وذلك بمقتضى كونهم جزءاً من المجتمع السياسي الذي أنشئ بموجب الصحيفة(٨)، سواء تمّ الاعتداء على المسلمين أم على اليهود. وبالتالي كانت المعاهدة تقضي بالدفاع المشترك بين اليهود والمسلمين، كما أنّه ' عقد أحلافاً مع الكثير من القبائل العربية التي كانت متواجدة في شبه الجزيرة العربية، ولا سيما على طرق القوافل التجارية.

ولكنّ اليهود خانوا الأمانة، ونقضوا العهد، وعملوا على خلق الفتنة وبثّ الفرقة بين المسلمين، سواء بين الأوس والخزرج، أم بين المهاجرين والأنصار،

وبشكل مباشر، أم عبر تحريض عملائهم من المنافقين، فكان موقف النبي الأكرم ' منهم حازماً حيث اتضح لدى المسلمين أنّ أيّ تراجع أمام التحديات الكبيرة الراهنة، لسوف تلحقه تراجعات أعظم، ويستتبع انحساراً أكبر عن كثير من المواقع الحساسة لصالح كلّ الأعداء والطامعين، كما كان موقفه تصاعديّاً بدءاً بالوعظ ولفت النظر، إلى التنبيه والتحذير، إلى محاصرة رؤوس الفتنة ومحاسبتهم وإنزال العقوبة العادلة بحقهم، مروراً بضرب أي تجمع أو تحرك ضدّ المسلمين قبل أن يشتد عوده، ويستفحل أمره ووصولاً إلى الحرب الشاملة.

وقد نتج عن ذلك إجلاء بني قينقاع عن المدينة، وأنّ لهم نساءهم والذرية، وللرسول ' الأموال والسلاح، فأخذ أموالهم وأسلحتهم، وفرّقها بين المسلمين بعد أن أخرج منها الخمس، وأجلاهم عن المدينة إلى أذرعات[٩].

أمّا بنو النضير، أهل الزهو والخيلاء والعزة، فكانوا يحسّون في أنفسهم شيئاً من القوة والمِنعة في قبال المسلمين، ويجدون أنّ بإمكانهم مواجهة التحدّي فيما لو أتيح لهم إطالة أمد المواجهة {وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ }[الحشر: ٢]، فقد زحف إليهم رسول الله ' فحاصرهم خمسة عشر يوماً حتى صالحوه على أن يحقن لهم دماءهم وله الأموال والحلقة[١٠]، فأعطوه ما أراد منهم. فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يُخرجهم من أرضهم، ويُسَيِّرهم إلى أذرعات الشام. أما بنو قريظة فقد غدروا بمحمّدٍ ' في لحظة حساسة ومصيرية، وتآمروا مع الأحزاب عليه[١١]، فحاصروا المدينة شهراً، وبلغ جيشهم عشرة آلاف مقاتل في قبال ثلاثة آلاف للمسلمين، وأرادوا استئصال الإسلام والقضاء عليه في المدينة. وبعد هزيمة الأحزاب، حاصر الرسول بني قريظة وأنزل الجزاء العادل بهم، حيث نزلوا على حكم سعد بن معاذ، الذي حكم فيهم بقتل المقاتلة من الرجال، وسبي النساء والذراري، وأخذ الأموال[١٢].

أضف إلى ذلك أوجه الشبه بين سيرة معلِّم البشرية محمد بن عبد الله ' الذي أسَّس أول دولة إسلامية في تاريخ البشرية في المدينة المنورة، والصراع العربي الإسرائيلي في عصرنا الراهن، حيث احتلّ اليهود الصهاينة فلسطين تحت مزاعم توراتية، وأطماع سياسية، وتآمر ودعم غربي، ومحاولات الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية اللعب على وتر المذهبية، ومحاولات التفريق بين المسلمين، عملاً بسياسة فرِّق تسد، وكذلك تصويرهم الجمهورية الإسلامية في إيران كأنّها عدو العرب الأول!

كما تتشابه وجوه الصراع بين الرسول ' ويهود المدينة ولاسيما بني قريظة منهم، مع الصراع الحالي بين العرب والمسلمين من جهة، ويهود فلسطين الذين اغتصبوا الأرض، وهتكوا العرض، ونقضوا العهود والمواثيق الدولية، وكادوا المؤامرات للإسلام والمسلمين، من جهة أخرى. فالصراع مع اليهود ونقض العهود والمواثيق لا يزال قائماً إلى يومنا هذا، حيث اتخذ شكل صراع مع حركة دينية سياسية تدعى الصهيونية العالمية.

ونسأل: هل يمكن التفريق بين اليهودية كدين سماوي يعتقد المسلمون أنّه تمّ تحريفه عبر الزمن، وبالتالي خرج عن مبادئ الديانة السمحاء إلى نطاق العنصرية، إلى الصهيونية التي تشكّل وجه اليهود السياسي والأمني والعسكري ليكون أداةً للاستعمار المعاصر؟ أضف إلى ذلك أنّ اليهود اليوم مدعومون من الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية، كما كان يهود المدينة، مدعومين من رأس الكفر والشرك قريش. أمّا يهود بني قريظة بالتحديد، فقد وصل صراعهم مع الرسول ' إلى القمة، كما وصل الصراع اليوم مع يهود فلسطين إلى القمة.

د. العلاقة بين العروبة والإسلام

العلاقة بين العروبة والإسلام ليست وليدة هذه اللحظة، بل هي علاقة امتدت على مدى ما لا يقل عن ألف وأربعمائة سنة، فقد بُعث محمد بن عبد الله ' بالنبوّة والرسالة الخاتمة وبلسان عربي لهداية البشرية جمعاء، فالإسلام دين عامّ للبشر كافّةً من غير اختصاص دعوته بقوم دون قوم، ولا بمكان دون مكان، ولا بزمان دون زمان، قال تعالى: { وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ }[سبأ: ٢٨]. وقال أيضاً: { قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ }[الأعراف: ١٥٨].

ولا بدّ من قراءة ودراسة ونقد المنهج الاستشراقي في دراسة الثقافات غير الأوروبية وعلى رأسها الثقافة الإسلامية. فالشرق في الاستشراق هو الإسلام، والعربي هو المسلم، مع أنّ هناك عرباً غير مسلمين، وشرقيّين غير مسلمين، وهناك فرق أحياناً بين تعاليم وقيم الإسلام، وبين ممارسات المسلمين في غير زمان ومكان!

ومحمد ' هو نبي عربي اختصه الله تعالى واصطفاه ليكون مبلِّغ رسالته، وقائماً بالقسط بين الناس، يحكم فيهم بما أنزل الله تعالى على رسله وأنبيائه منذ آدم إلى قيام يوم الدين، وقد سمَّاه جده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف باسم ليس لأحد من آبائه وقومه، أعني: (مُحَمَّداً)؛ لأنّه كان يرجو أن يحمده أهل الأرض كلّهم، ويحمده أهل السماء. وكان اصطفاء الله لمحمد أحد العوامل الرئيسية التي جعلت اليهود يعيشون حالةً من الكبت، والغيظ، حيث كانوا يعتقدون بأن النبي (أحمد) سيكون عبرانياً من يهود شبه الجزيرة العربية.

ثانياً- العرب وأزمة الدولة الشرعية:

يمكننا أن نعتبر أن العرب يعيشون أزمة شرعيّة الدولة، وبُنيتها، ودورها الحضاري، كما يعيشون تشرذم المجتمع المُنَمَّط للتبعية في مساره السياسي، وللاستهلاك الترفي في مساره الاقتصادي، فالدولة والمجتمع كلاهما يعيشان حالة من التسيّب والضياع وانعدام الوزن، وقد أشار إِلَى ذلك بعض الكتاب قائلاً: «**الإخفاق التاريخي الذي نعانيه، ليس وليد الدولة الظالمة، والمستبدة، والبعيدة عن خيارات الشعب فحسب، بل هو أيضاً وليد المجتمع الضعيف، الجامد، الذي فقد المبادرة، وتوقفت مسيرة البناء والتأسيس لديه**»[١٣].

أما اليوم، وبعد هذا النهوض الشعبي العارم، بل الثورة[١٤] الشعبيّة الكبيرة التي آتت أكلها في تونس الحبيبة، وتؤتي أكلها في جمهورية مصر العرَبية، وليس العِبرية، وربما تنسحب على دول عربية أخرى كاليمن، والأردن، والسعودية، وليبيا، فإنّنا نجد أنّ المارد العربي انتفض في وجه طغاته، الذين يشكلون الوجه الآخر للاحتلال المُبَطَّن، كي يثأر لكرامته، ولحقوقه الاجتماعية المسلوبة، وكي يثأر من الأنظمة وحكامها الذين ضحكوا عليه سنين طويلة، وخانوا الأمانة التي وضعها الشعب بين أيديهم، ورفعوا رؤوسهم بعد سُباتٍ عميق، لينظروا إلى أقصى القوم، فلا يرضون بإصلاحات سطحيّة، وبشعارات كاذبة أطلقها الحُكّام في يوم غضب الشعب، وبعدما أحسّوا بلهيب النار يصل إلى قصورهم الفاخرة، وسيوف المظلومين، المحرومين، المضطهدين، والمستضعفين، تصل إلى أعناقهم. ولكنّ الشعوب العربية قرأت في الرسالة الإلهية الخاتمة، قوله تعالى: { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ }[يونس: ٩٠]، ولكنّ إيمانه كان خوفاً لا قناعةً، وبعد فوات الأوان.

ثمّ تُطلّ علينا إدارة الولايات المتحدة الأميركية، لتطلب من الرئيس المصري حُسني مبارك أن يقوم بجملة إصلاحات في البلد، ولتعلن أنها مع حقوق الإنسان، وأنّها تدعم المتظاهرين في مطالبهم المحقة! ونسأل: أليست هذه محاولة

من الولايات المتحدة لاستيعاب الحركات والثورات الشعبية العربية عبر كلمات حقٍّ يُراد منها باطل؟ ألم تكن هذه الأنظمة العربية البائدة مدعومة بقوة من قِبَل الولايات المتحدة التي تقيم معها تحالفات استراتيجية، وتسميها بدول الاعتدال العربي، وتمسح عنها عار التسوية مع المحتلّ الصهيوني؟ الحقيقة أنّ الولايات المتحدة بسياستها البراغماتية، تقف إلى جانب القويّ الذي يحقّق لها مصالحها الاقتصادية، والسيطرة على مصادر الطاقة، ونهب ثروات الشعوب، وكذلك مصالحها السياسيّة القائمة على إنهاك وإفقار الدول والشعوب العربية، والحفاظ على اقتصاد (إسرائيل) وأمنها، حتى لو كانت تختلف معه في العقيدة السياسية، فهل تعي شعوبنا العربية ذلك؟

فالدولة العربية بنمطها العنيف في مواجهة مجتمعها، اختزلت الجميع في دائرة الملك، أو السلطان، أو الرئيس، ومن يلوذ به من أبنائه، أو أصهرته، أو أقربائه، أو حاشيته. فازدادت الخلافات والهواجس والحساسيات الحضارية والسياسيّة والأمنيّة، ممّا أدّى إلى هدر الموارد البشرية والمعنوية والمادية والوقت، وإلى هجرة الكفاءات والعقول والطاقات من العالم العربي إلى العالم الغربي. ولا شكّ أنّ هذه الحالة من الصراعات المفتوحة تُرهق الدولة والمجتمع معاً، وتُصَدِّع أسس الحياة الديمقراطية والقانونية. وبالتالي فإنّ الوضع العربي برمته يعيش حالة الاحتقان على كل المستويات وصولاً إلى حدِّ الانفجار.

ولم تُحقق التكنولوجيا والتقنيات الحديثة تطوراً على المستوى السياسي أو الثقافي، وإنما قامت الدولة بالاستفادة من هذا التطور لإخضاع هذه الحقائق لمنطقها الأمني، حتى قال البعض فيها: «**ولهذا نجد أن التكنولوجيا الحديثة والتقنية المعاصرة، دخلت إلى البلدان العربية من البوابة الأمنية، أي أن المؤسسات الأمنية هي التي استفادت من هذه التقنية لتنظيم عملها وتركيز نشاطها وتضييق الخناق**»[15].

إنّ سياسة استعباد الناس، واستبعادهم عن الحياة العامة، وتسخير الدين لهوى الحاكم الذي ينجح في الانتخابات بنسبة ٩٩،٩٩٪ في كلّ مرة من دون منافس، أو مع وجود مُنافس مصطنع وصوري، لا تزيد الحاكم المتسلِّط إلا بُعداً، فهي تزيد في الانقسام الحاصل، وتُعَمِّق حالة القطيعة بين الشعب العربي المسلم وحُكَّامه.

وبالتالي، فإن الحاكم العربي إذا كان ديكتاتوراً[١٦]،متسلِّطاً على شعبه، قاهراً له، ناهباً لثرواته، لا يفقه من الدين شيئاً، محترفاً للكذب والنفاق، مسلِّماً لأعداء الله ثروات البلاد والعباد، آمراً بالمنكر وناهياً عن المعروف، مفضِّلاً حاشيته وعائلته والمقربين منه على عامة الناس، فهو مصداق لقوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[المنافقون: ٤]. وفي هذه الحالة لا بدّ للشعب من الثورة على هذا الطاغية وتخليص البلاد والعباد من استكباره وإفساده في الأرض.

أمّا إن كان الشعب يرى بعض الأمل في إصلاح الحاكم، وإن كانت إيجابياته أكبر من سلبياته، فالحاجة اليوم ماسَّة إلى إيجاد صيغة حضارية تضبط العلاقة بين الدولة والمجتمع، بحيث تكون علاقة تفاعل وتكامل، لا علاقة قطيعة وصدام. وبالتالي لا بدّ من تسوية تاريخية ودينية وسياسية داخلية على مستوى العلاقة بين الحاكم والرعية، إن كان الحاكم يعتبر نفسه راعياً لشعبه.

ولا شكّ أنّ لعلماء الدين دوراً أساسيّاً في توعية الشعوب واستنهاضها وتوجيهها ورعاية شؤونها الدنيوية والأخروية. ولكن للأسف فإنّ بعضهم بل أغلبهم قد خضع في عالمنا العربي للحاكم المتسلط، سواء كان ذلك ناجماً عن الخوف من لمعان السيف، أو عن الطمع في لمعان الذهب، فمنهم من يفبرك الفتاوى بما يُرضي الحاكم المتغرِّب عن دينه وشعبه، دون أن يكون في موقع

الإفتاء، ومنهم من هو في موقع الإفتاء ولكنه باع دينه لدنانيره، وآخرته لدنياه، فلم يقل كلمة الحقِّ في وجه السلطان الجائر، ولم يفتِ بحرمة معونة الظالمين، ولم يدافع عن مقدسات المسلمين التي تُنتهك في كل حال وفي كل حين، فهو يرى المؤامرات تُحاك حول المسجد الأقصى، والمجازر تُرتكب بحق الشعب الفلسطيني الأعزل يومياً، ومع ذلك يُبادر للسلام على رئيس الكيان الصهيوني، ويُبارك لرئيس بلاده استسلامه لإرادة التحالف الصهيو ـ أمريكي. ولا أعرف كيف يستدلّ نقلاً، أو عقلاً، أو إجماعاً، على فتواه! أو كيف يقف في اليوم التالي ليخطب في شعبه، أو يشرح له تعاليم الإسلام المحمدي الأصيل؟!

إنّ بعض العلماء من أصحاب المواقع الرسمية في الدولة، لا يكتفون بعدم نصرة أخوتهم المسلمين، وبالاستسلام لأعداء الأمة، بل يتآمرون على الإسلام والمسلمين، ويكيدون لهم، ويقيمون جداراً فولاذياً بينهم وبين المسلمين في غزة المحاصرين من قبل إسرائيل، هذا الجدار الذي يقف عائقاً أمام لقمة الخبز والدواء والماء والسلاح الخفيف، أي أمام مقومات عيش شعب مسلم أعزل كالشعب الفلسطيني.

ثالثاً: الجدار الفولاذي بين الدين والسياسة:

نحن نقف أمام قضية مُعاصِرة تُشَكِّل مثالاً ساطعاً على ما نقول، فقد أَيَّدَ مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر برئاسة شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي بشكل رسمي موقف الحكومة المصرية بناء جدار فولاذي[١٧] مع قطاع غزّة بحجة منع التهريب عبر الحدود. وجاء البيان الذي يتضمن فتوى شرعية تؤيد بناء الجدار بعد موافقة ٢٥ عضواً من أعضاء المجمع، فأكَّد على حقّ الدولة في أن تقيم على أرضها من المنشآت والسدود ما يصون أمنها وحدودها وحقوقها. وقال البيان: من الحقوق الشرعية لمصر أن تضع الحواجز

التى تمنع أضرار الأنفاق التى أقيمت تحت أرض رفح المصرية، والتي يتمّ استخدامها ـ بحسب ادّعاء النظام المصري ـ في تهريب المخدرات وغيرها مما يهدِّد ويزعزع أمن واستقرار مصر ومصالحها. وانتقد المجمع معارضي الجدار بقوله: إنّ الذين يعارضون بناء هذا الجدار يخالفون بذلك ما أمرت به الشريعة الإسلاميّة[١٨]!

ويرد عليه أنّ الحركة التجارية عبر هذه الأنفاق تنعش أسواق رفح والعريش، وتغطي نسبة كبيرة من الاحتياجات المعيشية للقطاع من مواد البناء، والزجاج، والأخشاب، والألمينيوم، والمواد البلاستيكية، ومواد التنظيف، ومستلزمات المدارس من كتب وغيرها، وبنزين، وقطع غيار للسيارات، والمواد الغذائية.

الإرهاب الذي يتحدثون عن ضرورة إيقافه، ويصورونه مصدراً لتهديد الأمن المصري؟! هم يدَّعون أن هذه الأنفاق تُستخدم في تهريب الإرهابين، وأدوات العنف، والسلاح. ولو سلَّمنا جدلاً بذلك، نسأل عن أي إرهابيين يتحدثون؟ هل أنّ المقاومين للاحتلال الإسرائيلي، المدافعين عن دينهم ونفوسهم وأموالهم وأعراضهم وأرضهم، بل وحتى عن عقولهم التي باتوا يفقدونها تحت وطأة السجن والتعذيب والقتل والتشريد وفقدان الأحبة، هم إرهابيّون؟! ثمّ كيف يدافعون عن أنفسهم؟ هل يستخدمون مسدسات الأطفال البلاستيكية، أو يستخدمون بندقية الصيد في مواجهة دبابات العدو وطائراته المتطورة جداً؟! أما إذا كان بعض الضالين يستغل وجود هذه الأنفاق ليقوم بتهريب المخدرات فبإمكان الشرطة المصرية أن تضع حواجز تفتيش عن المخدرات، وتشدِّد الرقابة على من يفعل ذلك وتنزل به أشدَّ العقاب.

واستنكر هذه الفتوى السياسية عدد كبير من المفتين، والقضاة، والعلماء، حيث صَدَّرَ أكثر من ١٤٧ عالماً مسلماً من دول عربية وإسلامية متعددة، بيانات

للتنديد ببناء مصر للجدار الفولاذي على الحدود مع قطاع غزة وإغلاق معبر رفح في وجوه الفلسطينيين، مؤكدين حرمة هذا الفعل، لما سيترتب على ذلك من إحكام الخناق على إخواننا في الإنسانية والإسلام والعروبة والجوار والجهاد. وأكد العلماء المسلمون في بياناتهم أنّ المشاركة في الحصار وبناء الجدار، يدخل في الفقه الإسلامي في باب القتل بالتسبّب، وهو يوجب عند فقهائنا القصاص أو الدية، خاصة إذا كان مع سبق العلم والعمد، وأنّ هذا الحصار والجدار سيضاعف قتل النساء والأطفال والرجال، كما أنَّ المشاركة تعني بكل وضوح أننا أذلة على الكافرين أعزة على المؤمنين؛ بما قد يدخلنا في الولاء والنصرة للمحتلين الظالمين، والبراءة والخذلان للمؤمنين المجاهدين.

واعتبروا أنَّ فتوى مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر باطلة من الناحية الشكلية حيث لم تقدم فيها بحوث، ولم يُدعَ كلّ أعضاء المجمع، ولم تُناقَش باستفاضة، ولم يُعرف الموافق من المخالف، وهذا كلّه يخالف لوائح مجمع البحوث الإسلامية، وأصول المجامع الفقهية في اتخاذ القرارات والاجتهادات الشرعية.

كما أنّ الفتوى تجعل مجمع البحوث الإسلاميّة يناقض نفسه في فتاواه السابقة التي أكّدت على أنَّ الخطر الأكبر على الأمّة ومقدساتها هو الكيان الصهيوني. وشدَّدوا على وجوب جهاد الصهاينة وتحرير فلسطين كاملة وتحرير المسجد الأقصى، والمساندة بالمال والسلاح للعمل الفدائي، وأنّ ذلك واجب الأمة كلّها[١٩].

ويرى العلماء أنّ الفتوى تخالف النصوص الشرعية القطعية دلالةً وثبوتاً الموجبة لدعم ـ لا خنق ـ الجهاد بالنفس والمال لتحرير الأرض والمقدسات، وإنقاذ الأسرى، والانتصار لإخواننا في الدين والعروبة والإنسانية، ضدّ ما يقوم به الكيان الصهيوني من جرائم حرب هزّت أحرار العالم أجمع.

كما أنّ الفتوى مخالفة لاتفاق العلماء الأثبات ذوي الخشية القلبية والحجة الشرعية على وجوب قتال كلّ من غزا ديار الإسلام.

ويؤكّد العلماء أنّ الفتوى لم تراعِ الجانب الإنساني في حقّ إخواننا في غزة في الحياة الكريمة، ولا حقّ الإخاء الإسلامي الذي يوجب كفالتهم شرعاً، وليس حصارهم قهراً، ولا حقّهم في الجوار الذي يوجب لهم منّا غاية الإحسان، فلا يجوز إمداد العدوّ بالغاز والحديد والإسمنت ببخس الأثمان، ونفتح الأسواق لمنتجاته بأعلى الأسعار، ونغلق أسواقنا أمام المسلمين المهدّدين بالموت.

ولم تراعِ الفتوى حقّ إخواننا في غزّة في ميدان الجهاد والمقاومة الذي يجب تجهيزهم على الأمّة عامة ومن جاورهم خاصّة، كما لم يراعِ أنّ أهل غزة أهل اضطرار، ويجب بذل الفضل لهم، وأنّهم في الحقيقة صمام أمان للأمن القومي المصري، ويجب التحالف معهم، لا المشاركة في حصارهم، والتحالف مع أعدائهم[٢٠].

وكان من بين العلماء الإسلاميين البارزين الذين أفتوا بتحريم بناء الجدار الفولاذي العازل بين مصر وغزة وطالبوا السلطات المصرية بوقفه، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، الذي اعتبر دفاع مصر عن أهل غزة وفلسطين فرضاً وواجباً شرعياً بإجماع الأمة؛ لأنّها الجار الأدنى أو ذو القربى، مشيراً إلى أنّ فتواه بحرمة بناء الجدار الفولاذي بين مصر وغزة ليست مجرد بيان سياسي، وتساءل: كيف يقف هذا الجار الأدنى ذو القربى الموقف المضادّ تماماً، ويعمل عملاً لا يستفيد منه إلّا المحتل، ولا يضرّ إلا الجار المسلم. وردّاً على الانتقادات التى وُجِّهَت إليه بسبب فتواه بتحريم بناء الجدار الفولاذي، قال القرضاوي لصحيفة الشروق المستقلة: «لست أنا الوحيد الذى أفتى بحرمة بناء الجدار الفولاذي على الحدود بين مصر وغزَّة، فشاركني كثيرون، منهم عدد كبير من علماء الأزهر، وجمعية العلماء بالجزائر، ورابطة علماء

الشام، ورابطة علماء فلسطين، واتحاد علماء السودان، ورابطة علماء الخليج، إلى جانب الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.. حتى لو كنت وحدي لا يضرّني ذلك؛ لأنّ العبرة بالأدلة الشرعية التي تؤيد الفتوى، وهى أدلة واضحة وضوح الشمس، تعتمد على القرآن والسنة والإجماع وأقوال علماء الأمّة». وأشار القرضاوي إلى أنّ الفقهاء من كلّ المذاهب والمدارس مجمعون على أنّ العدو الكافر إذا احتلّ أرضاً أو جزءاً من أرض إسلامية، يجب على أهل الأرض أن يقاوموه ويجاهدوه حتى يطردوه ويحرِروا أرضهم. فإذا عجز هؤلاء أو تقاعسوا وجب على جيرانهم الأقرب أن يساعدوهم أو يقوموا بدلاً منهم بتحرير الأرض الإسلامية من احتلال الأعداء الكفَّار لها، فإن عجزوا أو جبنوا انتقلت إلى من يليهم، حتى تشمل المسلمين كافَّةً[٢١].

ويؤيّد الفقه الشيعي ما قاله علماء المسلمين السنّة المعترضين على بناء الجدار الفولاذي، بل إنّ إمام الفقه الشيعي والسياسي المعاصر الإمام الخميني رضوان الله عليه قد أفتى بـ (وجوب الدفاع) عن بيضة الإسلام وحوزته (بأيّة وسيلة ممكنة)، في حال كان العدوّ يغزو بلادنا أو يحاول الاستيلاء عليها عسكريّاً وأمنياً. أمّا لو كانت وسائل العدو التي يستعملها ضدّنا سياسيّة أو اقتصاديّة فيجب مواجهته بنفس الوسائل.

كما يُحَرِّم الإمام الخميني أيّة رابطة سياسية مع دولة أجنبية طامعة بخيراتنا، فكيف بدولة إسرائيل الغاصبة لفلسطين العربية الإسلامية، والهاتكة لحرمات المسلمين، والمسيلة لدمائهم ودموعهم، فيقول: «**لو كانت الروابط السياسية بين الدول الإسلامية والأجانب موجبة لاستيلائهم على بلادهم، أو نفوسهم، أو أموالهم، أو موجبة لأسرهم السياسي، يحرم على رؤساء الدول تلك الروابط والمناسبات، وبطلت عقودها، ويجب على المسلمين إرشادهم وإلزامهم بتركها ولو بالمقاومات المنفية**»[٢٢].

ولا شكّ في مشروعيّة الدفاع عن النفس، فإنّه أمر عقلائي فيما يجري عليه بناء العقلاء الذي لم يأتِ الردع عنه، وإطلاق أدلّة الجهاد يُبيح ما يتوقّف عليه حفظ الإسلام والمسلمين من العدوان. ويؤكد على ذلك علماء المسلمين الشيعة، ومنهم العلامة فضل الله[٢٣]،الذي تناول قضية الدفاع عن الوطن، فهو يعتبر أنّ الدفاع عن المسلمين، سواء تواجدوا بكثافة في إقليم جغرافي محدد، أو كانت لهم دولة يعيشون فيها منذ القدم، واجب على أبنائها بالدرجة الأولى، فإن لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم وتحرير بلدهم، وجب على المسلمين، أو الدولة المسلمة التي في جوارهم أن تعمل على مساندتهم بكل قوة ممكنة، ولا يجوز التخلف عن هذا التكليف الإلهي، قائلاً: «**في ظلّ الأعراف الدولية السائدة تعتبر كلّ دولة مسلمة وطناً لأبنائها، وكذا كلّ دولة يسكنها المسلمون بشكل كثيف، بحيث يكون الاعتداء عليها بالاحتلال ونحوه اعتداءاً عليهم، فإذا تعرضت للغزو من العدوّ الخارجي الكافر وجب على أبنائها بالدرجة الأولى بالوجوب الكفائي التصدي لتحرير الأرض ودفع العدو، فإن عجزوا وجب على الأقرب إليهم فالأقرب، على نحو الكفاية أيضاً مع القدرة والإمكان.. الكيان الصهيوني المحتل لأرض فلسطين وغيرها كيان غاصب ومعتدٍ، فيجب قتاله حتى تحرير كامل الأراضي المغتصبة، ولا تجوز مهادنته، ومسالمته، وإقرار احتلاله لأراضي المسلمين، كذلك لا يجوز التعامل معه بأي نحو من المعاملة. وكذا كل غاصب محتل لأرض المسلمين**»[٢٤].

وأجاب سماحته عن مسألة السيادة معتبراً أنها متصلة بالكرامة العربية والإسلامية الكبرى، وأنّها مسألة غير قابلة للتجزئة. ويضيف أنّ سقوط القضيّة الفلسطينية بيد العدو، سيتيح له التقدم على كلّ الخطوط والمحاور داخل الوطن العربي والإسلامي. كما أصدر سماحته فتوى بتحريم الجدار الفولاذي معتبراً أنّ النظام المصري يريد من خلال بنائه للجدار الفولاذي أن يؤمّن أوسع حماية

تُعطى للكيان الصهيوني، وأن يعطي الشرعية السياسيّة للكيان الصهيوني في بنائه لجدار الفصل العنصري داخل الضفّة الغربية، فيُعمل على تصفية القضية الفلسطينية داخل الجدارين، قائلاً: «**إِنَّ الاستمرار في بناء الجدار الفولاذي هو كاستمرار البناء في الجدار العنصري في الضفة الغربية.. فكلاهما يمثِّل حالة من حالات الظلم والقهر والتضييق على الشعب الفلسطيني**»[٢٥].

ولا شكّ أنّ من شارك في بناء الجدار بالكلمة، أو التخطيط والدراسات، أو المجهود البدني، شريك في تكريس الحصار، وسدِّ المنافذ على المسلمين في فلسطين لتجويعهم وإذلالهم والضغط عليهم حتى يركعوا ويستسلموا للعدوّ المحتل. والجدار الفولاذي يأتي كنموذج للخدمات التي تقدّمها لإسرائيل بعض الأنظمة العربية، ولاسيما النظام المصري الحالي.

ويمكن أن نسأل: هل إنّ هذا التعاون بين القاهرة وتل أبيب يأتي كنتيجة لعقيدة سياسية مشتركة تعتبر حركة المقاومة الإسلامية (حماس) منظمة إرهابية يجب استئصالها والقضاء عليها بقوة الذراع؟! وهل إِنَّ المطلوب من النظام المصري اتخاذ خطوات تمنع حماس من تثبيت حكمها وسلطتها في قطاع غزة كثمن لقبول توريث الحكم لجمال مبارك في وقتها؟!

رابعاً: واقع العرب والمسلمين في عصرنا الراهن:

يبدو واضحاً على المستوى التاريخي ولاسيما المعاصر، أنَّ من أهم أسباب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨م)، "التنافس الاستعماري"، حيث عُرِفَ القرن التاسع عشر بقرن الاستعمار. فقد اندلعت حديثاً حرب لم يشهد تاريخ البشرية قبلها مثيلاً لها، لا من حيث مساحة رقعة عملياتها، ولا من حيث نوع الأسلحة المستخدمة فيها، ولا من حيث عدد القتلى والجرحى الذين سقطوا فيها، ولا من حيث الدمار الهائل الذي حلَّ بالأراضي الزراعية،

والتجمعات السكنية. فشُلَّت الحركة الاقتصادية في العالم كله.. لذلك أطلق عليها بحق اسم الحرب الكبرى. وقد سعت الدول الصناعية الكبرى خلالها إلى مزيد من المستعمرات للحصول على المواد الأولية، والأيدي العاملة، والأسواق الاستهلاكية لمنتجاتها. فنشأ بينها سباق محموم إلى التسلح.

وعلى الصعيد السياسي أدت هذه الحرب إلى تغيير جذري في خريطة أوروبا السياسية، إذ قامت فيها دول جديدة على حساب امبراطوريات ألمانيا، والنمسا، وروسيا الشيوعية. وكادت الشعوب المستضعفة أن تأمل خيراً غير أنَّ مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس عام ١٩١٩م أعطى الدول المنتصرة مكاسب استعماريّة جديدة[٢٦].

كما أدّت هذه الحرب أيضاً إلى تغيير جذري في خريطة الوطن العربي السياسية، فتخلص من السيطرة التركية ليقع في قبضة الاستعمار الأوروبي، أو ما سمي بالانتداب، فتم تقسيم العالم العربي إلى دويلات يحاولون الآن العمل على شق صفها، وإثارة المشاكل الحدودية فيما بينها، وقد نجحوا في إخضاعها لهم سياسياً.

أما في القرن الواحد والعشرين، فواقع أمتنا العربية والإسلامية مؤسف أيضاً، حيث إنّ الدول المستكبرة والمعادية، طامعة بخيرات العرب والمسلمين، ولا سيما أنَّ هذه الدول لمالكة لشتى أنواع أسلحة الدمار الشامل، وتتعامل مع العرب والمسلمين باحتقار، وتهديد، وهتك للحرمات والمقدَّسات، بل تهجم علينا بالأسلحة المحرَّمة دولياً، كما حدث في العراق، وأفغانستان، وفلسطين، ولبنان، وليس هناك ما يمنعها من ذلك، ولا سيما أنهم رأوا أنَّ العرب لا عدَّة لهم، ولا عتاد، أو لا قدرة لهم على استعمال ما لديهم من أسلحة متطورة، وبالتالي لا قدرة لديهم على ردِّ الأعداء، فأغراهم ذلك بقتالنا.

ولا بدّ لأمتنا من التمييز بين العدو والصديق، وبيان معنى العدو بعد أن

ضَعُفَت معاني اللغة العربية في أذهاننا. ولا بد لنا في هذا البحث من تأصيل مفهوم كلمة نطلقها مراراً، وتشكل جزءً من واقعنا حيث يحيط بأمتنا الأعداء والطامعون من كل حدبٍ وصوب، فـعلى المستوى اللغوي: «أصل العدو التجاوز ومنافاة الالتئام، فتارة يعتبر بالمشي فيقال له العدو، وتارة بالقلب فيقال له العداوة.. وعدوى، بالضم فقط: ظلمه ظلماً جاوز فيه القدر، وهذا تجاوز في الإخلال بالعدالة فهو عاد؛ ومنه قولهم: لا أشمت الله بك عاديك أي الظالم لك.. وقيل: العدوان أسوأ الاعتداء في قوة أو فعل أو حال.. قال الراغب: الاعتداء مجاوزة الحق قد يكون على سبيل الابتداء، وهو المنهى عنه.. والعدوى: الفساد.. وعدا اللص على القماش عداء .. أي سرقه؛ وهذا أيضاً تجاوز فيما يخل بالعدالة. وذئب عدوان.. دينه الظلم والعدوان.. وعدا عليه عدوا : وثب.. والتعدي : مجاوزة الشيء إلى غيره.. والعداء، كسماء وغلواء: البعد. وفي الصحاح: بُعْد الدار.. المكان المتعادي غير المستوي. والعِدى، كإلى: المتباعدون.. وأيضاً: الغرباء والأجانب.. وقوله: كالأعداء.. وقيل الغرباء، وهم الأعداء أيضا لأن الغريب بعيد.. والعدوة، بالضم: المكان المتباعد.. والعدواء، كالغلواء: الأرض اليابسة الصلبة.. ويقال: أرض ذات عدواء إذا لم تكن مستقيمة.. وقيل: هو المكان الخشن الغليظ.. وفي الصحاح: قال الأصمعي: العدواء المكان الذي لا يطمئن من قعد عليه.. والعدو: ضد الصديق.. والعادي: العدو. قالت امرأة من العرب أشمت رب العالمين عاديك، أي عدوك، ج عداة، كقاض وقضاة. وقد عاداه معاداة.. وتعادى : تباعد.. وتعادى ما بينهم: اختلف. وفي الصحاح: فسد. وتعادى القوم: عادى بعضهم بعضاً، من العداوة. وعديت له، كرضيت: أبغضته.. والعادي: الأسد لظلمه وافتراسه الناس.. وتعدى مهر فلانة: أخذه.. والعادية: الخيل المغيرة.. وعدى عليه، كعنى: سرق ماله وظلم. والاعتداء في الدعاء: الخروج عن السنة

المأثورة. والعادي المختلس.. وتعدى الحق واعتداه: جاوزه.. وجئتك على فرس ذي عدواء: غير مجرى إذا لم يكن ذا طمأنينة وسهولة.. والعادية: الحدة والغضب. وأيضاً: الظلم والشر، وهو مصدر كالعاقبة. وعادية الرجل: عدوه عليك بالمكروه.. وفلان قد أعدى الناس بشرٍّ: أي ألزق بهم شراً وفعل كذا عدواً بدواً: أي ظاهراً جهاراً»[٢٧].

أما على المستوى الثقافي فكلّنا يعرف من يعمل على غزو أمتنا ثقافياً، وزرع مفاهيم الغرب الثقافي في قلوب وعقول أجيالنا وأبنائنا من الفتيان والفتيات، ويُسَعِّر نار الغريزة في أجسادهم فيعطِّل عقولهم ويشوِّه فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها، ولا سيما في عصر التكنولوجيا، والانترنت، والفضائيات، وغيرها. فالعدو يعمد على التخطيط لإضعاف ثقافتنا المحمدية الأصيلة، وتسطيح مفاهيمنا، وتشويه قيمنا، وكسر الحواجز النفسية بين الإنسان المؤمن بالله وبأنبيائه ورسله ول اسيما حامل رسالته السماوية الخاتمة محمد بن عبد الله ' .

أما على المستوى السياسي فأعداء أمتنا هم من يحاربها في الدِّين، أو يطمع في خيراتها ومصادرها الطبيعية اقتصادياً، أو من يعمل على احتلال بلادنا عسكرياً، أو من يعمل على إخضاعها لمخططاته سياسياً. أضف إلى العدو الخارجي أعداء الداخل الذين يُظهرون الإسلام ويُبطنون الكفر، أو الذين يخضعون لسياسات العدو الخارجي ويعملون على تنفيذها سواء من خلال الكتابة والتأليف ونشر الكتب، أو وسائل الصحافة ونشر المقالات في الصحف المختلفة، فـ «الصحافة في الواقع لها موقع هام جداً، والناس بحاجة ماسّة إليها، وهي عماد ثقافة البلاد وقوام حضارتها»[٢٨].

وخير دليل على ذلك ثقافة الاستعمار التي كان يروِّج لها الغرب، فتقوم الدولة القوية باستعمار الدولة الضعيفة، ولعلّ كلمة (استعمار) خطأ شائع الاستعمال؛ لأنّ هذه الكلمة تعني إعمار الأرض[٢٩]، بينما يقوم الاستعمار

بتخريب الديار وقتل الأخيار، فيقتل كلّ من يقف في وجهه من المقاومين الشرفاء، وكلّ من يتظاهر ضدَّه من المواطنين الأبرياء، ونهب ثروات البلاد، وخيرات العباد. ونحن نعيش اليوم هيمنة الدول القوية عبر أساليب أكثر حنكةً وذكاءً من الأساليب القديمة، فبدل التواجد العسكري المباشر على أرض الدولة المغتصبة، أخذوا يسيطرون على قرارها السياسي عبر زرع حُكّام تابعين لهم، ينفذون سياساتهم عن بُعد، ويحققون لهم أهدافهم على حساب مصالح البلاد والعباد.

كيف لا يطمع العدوّ فينا والعرب يتجاوزون بعضهم؟ ولا يُنَسِّقون فيما بينهم إلا بشكل ثنائي أو ثلاثي حسب ما تقتضيه مصالحهم الآنية؟ وإذا قرروا الاجتماع عبر رئاسة الجامعة العربية مثلاً، يبدأ التدخل الأجنبي وشدُّ الحبال، حيث يريد الغرب أن يفرض وجهات نظره، ويضمن مصالحه في كل مشروع قرار، ويساوم العرب على مستوى تمثيلهم في الإجتماع، فيغيب هذا الرئيس، ويعتذر آخر، ويكتفي ثالث بوزير خارجيته، ويتعارك الوزراء في الجلسة فيخرج فلان، ويركض الباقون لإعادته إلى طاولة الاجتماعات فيكون الهدف الأقصى هو أن يجلسوا صامدين على طاولة واحدة، ثم يأتي دور الكلمات التي تنطلق من أزمات داخلية لا من قضايا مصيرية تحقق استقلال القرار العربي وسيادته، أو مشاريع تنموية استراتيجية تحقق الاكتفاء الذاتي والنمو الاقتصادي على مستوى العالم العربي بأكمله، بل تحاول الدولة الغنية فرض رأيها وسياستها على الدولة الفقيرة.

وإذا اجتمع رؤساء العرب فهم متباعدون كالغرباء والأجانب، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، هَمُّ كل رئيس منهم كيف يحفظ كرسيه إلى اللقاء الصوري القادم، وكيف يظهر أمام شعبه كالبطل والشجاع الذي يُلقي كلمته دون أن يرتبك، أو كالمُثَقَّف الذي يقرأ كلمته باللغة العربية دون أخطاء إملائية أو لفظية

أو مطبعية، أو كالحريص على مصلحة بلده في وجه مصالح سائر البلاد العربية، أو كالمُحِبِّ لشعبه حتى لو كرهته سائر الشعوب العربية والإسلامية، أو كالحامل لهموم فريق كرة القدم المُمَثِّلِ لبلده في مواجهة فريق كرة القدم المُمَثِّلِ لبلد عربي شقيق، فالمهم هو تحقيق الأهداف في المرمى حتى لو انشغل العالم العربي بأسره بمباراة الملاكمة بين اللاعبين أو الجماهير المشجعة لهذا الفريق أو ذاك، فالمهم عنده هو الجمهور الأمريكي، أو البريطاني، أو الفرنسي الذي يشاهد المباريات فرحاً مستبشراً بمستقبل بلده وشعبه، يشاهد المباريات بكل حماسة عبر الشاشات العربية التي تنقل الحدث مباشرة على الهواء، وتقوم بتغطية لكامل وقائعه عبر الأقمار الاصطناعية، ولا سيما تصريحات الرؤساء التي تواكب أو تلي المباراة!!

أمّا على المستوى العسكري فكلّنا يعرف من يشنّ الحروب ضد بلادنا وشعوبنا بدءاً بفلسطين ومصر وسوريا ولبنان وأفغانستان والعراق. وبالتالي: فإنّ عدو أمتنا واضح ومعلوم وواحد! وها هو الإمام الخميني ﷺ يخاطب الشعوب والدول الإسلامية قائلاً: «**ثمة موضوع أشعر أنّه يشكل لغزاً بالنسبة لي وهو أنّ جميع البلدان الإسلامية والشعوب المسلمة تعلم ما هي المشكلة، وتعلم أنّ يد الأجنبي تريد زرع الفرقة بين صفوفها، وتشاهد أنّ دولة "إسرائيل" التافهة، تقف بوجه المسلمين، ولو كان المسلمون مجتمعين وألقى كلّ واحد منهم دلواً من الماء على "إسرائيل" لقضى عليها السيل، ومع ذلك يقفون أذلّاء أمامها**»[٣٠].

خامساً: العرب وأزمة الشرعية الدولية:

في العصر الراهن، التاريخ يعيد نفسه والمشهد يتكرر، فهناك من العرب من عصى الله ولم يعمل برسالته الخاتمة، وتعامل مع اليهود المغتصبين للأرض

والعرض، ومع من زرع ما يُسمى بدولة "إسرائيل" في قلب أمتنا، وتآمر على القضية الفلسطينية التي تشكل محور الصراع العربي الإسرائيلي، وعمل على تصفية حركات المقاومة الإسلامية في لبنان وفلسطين والعراق، واستسلم للحرب النفسية والسياسية والاقتصادية والأمنية التي يشنها الغرب، على أمتنا العربية والإسلامية.

وقد استفاد الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، من سيطرته على المؤسسات الدولية، ولا سيما منظمة الأمم المتحدة، ومجلس الأمن التابع لها، وعمل على قلب المفاهيم، وإثارة الجدل حول مفهوم الإرهاب، بل وفرض مفهوماً واحداً له، فكل من يعارض السياسة والإرادة الأمريكية فهو إرهابي، حتى لو كان مظلوماً يدافع عن حقوقه، أو عن وجوده. وقد عملت أمريكا، عبر شعار مكافحة الإرهاب، على محاصرة العالم العربي والإسلامي المُقاوم، فكان احتلال أفغانستان والعراق، ثمّ التحرك لإيجاد الفوضى في السودان، ثمّ تقسيمه، والثأر من الصومال، وإثارة الجدل المذهبي في لبنان، وإيجاد المشاكل بين بلد عربي وآخر كالعراق وسوريا، والسعودية وسوريا، كون سوريا هي الدولة العربية الوحيدة المتحالفة مع الجمهورية الإسلامية في إيران، في مواجهة أطماع الغرب، والاحتلال الصهيو ـ أمريكي لجزء من بلادنا الإسلامية والعربية.

وبديهي أنَّ الغرب وربيبته "إسرائيل" لا يريدان للعرب أن يجتمعوا بشكل فاعل، ويتحالفوا بشكل واقعي، ويتحدوا بشكل عملي، وأن يشخصوا مصلحة الأمة الإسلامية ويدافعوا عن قضاياها الكبرى بشكل حقيقي، وأن ينهض العالم العربي، ويتطور، ويستثمر ثرواته الطبيعية ليكون عالماً إنتاجياً لا استهلاكياً. فيعمل العدو عبر ما يُسمى بـ "الفوضى البناءة أو الخلاقة" على إعادة إنتاج نقاط الضعف لدى العرب والمسلمين ومنها المسألة المذهبية، بعدما

تضاءل استغلال المسألة الطائفية بالمعنى الإسلامي ـ المسيحي.

إنّ العدو لا يريد للعرب أن يجتمعوا ويتوحَّدوا على القضية الفلسطينية، ولا على غيرها من القضايا، فيُرَوِّج لشعارات الاستسلام تحت عنوان السلام، كما يُرَوِّجون لشعارات الاعتدال فيسمي الدول العربية التي تتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية دول عربية "معتدلة"، بينما يسمي الدول العربية التي لا تتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولا تخضع لإرادتها السياسية، ولا تُرَوِّج لثقافتها الانحلالية، دول عربية "متطرفة". ويحقّ لنا أن نسأل: هل يسالم الإنسان من يحتلّ بيته، ويهتك عرضه، ويدمِّر مقدساته؟!

وأخيراً.. نلفت إلى أنّه مهما انصاع العرب والمسلمون للقرارات الدولية غير العادلة، ورضخوا لإرادة الولايات المتحدة الأمريكية، وربيبتها "إسرائيل"، فإنّ ذلك لن يحقق لهم العزَّة، والكرامة، والاستقلال، والعيش الكريم، وها هو الإمام الخميني قدس سره[٣١] يخاطب الحكومات العربية قائلاً: «**أما تعلم الحكومات العربية والساكتون من المسلمين في هذه المناطق، أنه مع القضاء على هذا الجهاد[٣٢]، فسوف لا تشاهد سائر الدول العربية وجه الأمن والأمان من شرِّ هذا العدوّ القذر**»[٣٣].

وأختم بأبيات من رائعة الشاعر العربي أبي القاسم الشابي «إرادة الحياة»:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلا بدّ أنْ يستجيب القدر
ولا بدّ لليل أنْ ينجلي ... ولا بدّ للقيد أنْ ينكسر

* * *

الهوامش:

(١) النخيل: المختار، المصفَّى.

(٢) توخيت: تحريت.

(٣) عبده، محمد، نهج البلاغة، ط٥، بيروت، دار البلاغة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص: ٥٦٠-٥٦١.

(٤) قناوي، سليمان، صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم- الدراسات تؤكد الصورة قاصرة..سطحية..متحيِّزة..سلبية، ط١، الرياض-السعودية، مجلة المعرفة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص: ١١-١٤.

(٥) مرتضى، جعفر، منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية، ط١، بيروت، المركز الإسلامي للدراسات، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، ص:٤١.

(٦) لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.

(٧) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

(٨) وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. راجع: ناصر، علي، الصحيفة أو دستور المدينة- التأسيس للعلاقة مع الآخر، مجلة المنهاج، العدد ٥٣، بيروت، ربيع ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص: ١٦٦-١٩٢.

(٩) بلد بالشام.

(١٠) أي: السلاح.

(١١) الأحزاب من كفار قريش ومن دار في فلكهم، ومن يهود بني قينقاع والنضير الذين أجلاهم الرسول ' عن المدينة.

(١٢) ناصر، علي، العنف الديني في سياسة الجهاد، مجلة الاجتهاد والتجديد، العددان التاسع والعاشر، بيروت-لبنان، مؤسسة دلتا، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص: ١٧٣-٢٠٥.

(١٣) محفوظ، محمد، العرب من دولة المشروع إلى مشروع الدولة- تجديد الفكر الديني، ط١، بيروت-لبنان، مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر للدراسات والبحوث، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م، ص: ١٩٢.

(١٤) الثورة هي عملية تغيير جذرية في الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية للنظام السياسي، أو عبارة عن تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية تحدث في إطار الدولة نتيجة لتغيير الهيئة الحاكمة. ويقترن مفهوم الثورة بوجود انتفاضة شعبية عارمة، واستخدام العنف والقوة ضد النخبة الحاكمة. راجع: خشيم، مصطفى، موسوعة علم السياسة، ط١، بنغازي-ليبيا، دار الكتب الوطنية، ١٤٢٥هـ، ص: ١٢١.

(١٥) محفوظ، محمد، العرب من دولة المشروع إلى مشروع الدولة، المصدر نفسه، ص: ٢٠١.

(١٦) الديكتاتورية هي منتظم سياسي، يُتخذ فيه القرار من قِبل أقلية ضئيلة، ويُفرض على الشعب بحيث تمارس السلطة بشكل استبدادي مطلق، وعن طريق الإرهاب والقمع، وفي غياب الشرعية. والديكتاتورية هي نقيض الشرعية. راجع: سليمان، عصام، مدخل إلى علم السياسة، ط٣، بيروت-لبنان، ١٩٩٦م، ص: ٢٨٨.

(١٧) الجدار يتضمن تقنية جديدة لضخ مياه البحر عبر مواسير خاصة، بما يؤدي إلى إغراق من يحاول حفر نفق. ومن المتوقع أن يبلغ طول الجدار عشرة كيلومترات. ويتضمن المشروع غرس صفائح فولاذية في باطن الأرض يبلغ طولها ١٨ متراً، وسمكها ٥٠ سنتمتراً، وستكون مزودة بمجسّات تنبه إلى محاولات اختراق الجدار. راجع: الجدار الفولاذي من منظور شرعي، إعداد: مركز دراسات الوحدة الإسلامية في تجمع العلماء المسلمين في لبنان، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص: ٨-٩.

(١٨)-http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=latest/data/٢٠١٠
٠١-٠١-٠٩-٢٦-٤٤.htm&storytitle

(١٩) راجع: الجدار الفولاذي من منظور شرعي، مصدر سابق، ص: ٦٥-٨٤.

(٢٠)

http://www.alquds.co.uk/index.asp?fname=today\٢٦qpt٣١.htm&s
torytitle=fffff&storytitleb= &storytitlec=

(٢١)

http://www.elmvata.org/vb/showthread.php?s=e٠٩ae٦ad٨c٢a١٠٤
٧٨d٥٣٤٠٨defc٦a٥٣٧&p=٢٣٠٦٨٠post٢٣٠٦٨٠

(٢٢) الخميني، روح الله الموسوي، تحرير الوسيلة، ط٥، إيران-قم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، ١٤١٦هـ، ص:٤٤٥-٤٤٦.

(٢٣) مرجع تقليد، ومفكر شيعي بارز، ومؤسس جمعية المبرات الخيرية، وأستاذ مادة الفقه الإسلامي في مرحلة بحث الخارج في المعهد الشرعي الإسلامي في لبنان-بيروت، توفي بتاريخ ٤-٧-٢٠١٠م.

(٢٤) فضل الله، محمد حسين، أحكام الشريعة- العبادات والمعاملات، ط٢، بيروت- لبنان، دار الملاك، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص: ٢٥١-٢٥٣.

(٢٥) راجع: الجدار الفولاذي من منظور شرعي، مصدر سابق، ص: ٢٧-٢٩.

(٢٦)www.voob.net/vb/t٨٦٣٢٧.htmlhttp://

(٢٧) راجع: الزبيدي، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، لا ط، بيروت- لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ج١٩، ص: ٦٥٨-٦٦٧.

(٢٨) الكلمات القصار لآية الله العظمى السيد علي الحسيني الخامنئي(دام ظله)، ط١، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص: ١٤٨.

(٢٩) الاستعمار: امتلاك دولة أراضي دولة أخرى واستغلالها. واستعمر شخصاً في المكان: جعله يعمره. ويُقال: استعمرت دولة بلاد غيرها: أي جعلتها مستعمرة لها، والاستعمار بغيض، وقد استعمر الأوروبيون كثيراً من بلاد آسيا. راجع: عبد الساتر، جوزيف، الجديد في قاموس اللغة العربية، ط١، بيروت-لبنان، دار ماهر، ص:٥٧.

(٣٠) في رحاب الولاية، قم-إيران، دار الولاية للثقافة والإعلام، العدد: ٤٦٦، ص: ٣٣.

(٣١) آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران، ومرجع تقليد، وفيلسوف، وعارف، وهو من طبَّق نظرية ولاية الفقيه في عصرنا الراهن، وأطلق شعارات كبرى توقظ الأمة الإسلامية، وتستنهض المستضعفين في العالم في مواجهة المستكبرين.

(٣٢) ويقصد جهاد المناضلين الفلسطينيين من أجل أن يكون مصير فلسطين بيد الفلسطينيين.

(٣٣) في رحاب الولاية، مصدر سابق، ص: ٣٣.

الأحداث في سوريا

إلى أين؟

الأستاذ: أحمد فارع الحاشدي (*)

أصبح من الواضح، والواضح جدّاً أنّ ما تشهده الساحة السورية من أحداثٍ عصفت بها، لا يمتّ إلى إرادةٍ شعبيةٍ للإصلاح والتغيير نحو الأحسن، بل ولا بإرادة فئةٍ خاصّةٍ للإصلاح ورفع الظلم عنها. وهذا لا يعني أنّه لا يوجد في سوريا وفي خارجها معارضون منصفون على مستويات فردية.

ونحن وإن كنّا نؤمن أنّ النظام الحاكم في سوريا بحاجةٍ إلى إعادة النظر في كثير من برامجه على أصعدةٍ مختلفة، من سياسيةٍ واقتصاديةٍ واجتماعيةٍ وغيرها، وأنّ الإصلاح الجذري أمرٌ لا بدّ منه، لكن هذا شيءٌ، والعمل على وفق أجندةٍ خارجية ترتبط بشكلٍ واضح بمحور أطباء الولادة في الشرق الأوسط الجديد على الطريقة الصهيو ـ أمريكية شيءٌ آخر.

(*) كاتب وصحافيّ يمنيّ.

وليس هذا مجرّد ادّعاء يتلفّظ به كلّ حالمٍ عربيّ في استعادة أمجاد الأُمة المسلوبة، أو مجرّد تعبير يتفوّه به كاتب صحافيّ موالٍ لخطّ الممانعة.

بل هو أمرٌ واضحٌ صرّح به المسؤولون الأمريكيون في أكثر من مناسبة، وأعلنوا أنّ استمرار الوضع في سوريا على ما هو عليه أو هدوءه يرتبط ببقاء الارتباط بين النظام السوري والقوى الممانعة في المنطقة ـ وعلى رأسها الجمهورية الإسلامية في إيران، وحزب الله في لبنان، وقوى المقاومة في فلسطين ـ وفكّ هذا الارتباط.

وإذا أردنا أن نحلّل ما يحصل في هذه الأيام على الساحة السورية وما يطبخ لها في مطابخ صناعة القرار، فلا يحتاج المنصف البصير إلى مزيد عناء وتجشّم ليفهم اللّعبة على حقيقتها.

وسوف أصوّر الصورة للقارئ النبيه في ضمن النقاط التالية:

الأُولى: قد أصبح من الواضحات أنّ محور السياسة الغربية، وعلى رأسها أمريكا، في رضاها وغضبها على نظام من الأنظمة، أو حزب من الأحزاب، أو مؤسسةٍ من المؤسسات، بل وفرد من الأفراد في منطقة الشرق الأوسط عموماً ودول الطوق العربي خصوصاً، قد أصبح من الواضح أنّ هذا الرضا والغضب يخضع لقرب هذا النظام أو الحزب أو المؤسسة أو الفرد وبعده من الكيان الغاصب المسمّى بـ«إسرائيل».

بمعنى أنّ النظام والحكم والحزب والمؤسسة والفرد الذي يعمل بما يصبّ في خانة المصلحة الإسرائيلية فهو مرضيٌّ عنه عند الغرب وأمريكا، ويوصف في أبواقهم الإعلامية بالمعتدل تارةً، وبالحليف والصديق تارةً أُخرى، وبالساعي نحو الإصلاح ثالثةً.

وكلّ من يعمل من هؤلاء بما يصبّ في خانة مصلحة الأمّة الإسلامية ويبتعد

عن المصالح الصهيونية، فهو عندهم إرهابيٌّ تارةً، وفي محور الشرّ تارةً أخرى، وغير ديمقراطي ثالثةً.

وكما أشرت في الابتداء، فإنّ هذا الأمر يعدّ من المسلمات، كما أنّ الغرب لا ينكره ولو على مستوى القول، بل وصلت الوقاحة والعهر السياسي ببعض المسؤولين الأمريكيين إلى التفاخر والتجاهر به.

الثانية: أنّه من خلال استقراء سريع للأنظمة والأحزاب والجهات والأفراد في منطقة الشرق الأوسط، يستطيع المنصف أن يصنّفها إلى أصناف ثلاثة:

ـ صنفٌ بات يعرف في الاستعمالات السياسية المعاصرة بـ: (محور الممانعة)، أو ما بات يعرف على ألسنة بعض السياسيين الأمريكيين بـ: (محور الشرّ). وهؤلاء هم الذين لا يقال في حقّهم إنّهم لا يخدمون المصالح الإسرائيلية فحسب، بل يخدمون مصالح الأمّة الإسلامية، وباتت سياساتهم وأفعالهم تصبّ في خانة إضعاف إسرائيل على أقلّ التقادير.

ـ وآخر بات يُعرف بـ: (محور الاعتدال)، وهم أولئك الذين أقلّ ما يُقال في حقّهم: إنّهم أنظمة الهرولة نحو ما يخدم الكيان الصهيوني الغاصب. بل لو كان نزار قباني حياً لأبدل مصطلح الهرولة إلى مصطلح (العدو السريع).

ـ وثالثٌ منعه الانشغال بنفسه من التموضع في ضمن أحد الصنفين السابقين، بمعنى أنّه لولا انشغاله بأحداثه الداخلية لكان قد انحاز إلى أحد الصنفين السابقين.

الثالثة: إذا أردنا أنْ نلتفت إلى المسلّمتين السابقتين ونوازن بينهما لكانت النتيجة أنّ المرضيّ عنه عند أمريكا والغرب هم الصنف الثاني، والمشنوء عندهم والمبغوض هم أتباع الصنف الأوّل. وأمّا الصنف الثالث، فلو كان ظاهر حاله أنّه لو استتبّ أمره لمال إلى الصنف الأوّل لأعانته أمريكا على نفسه، وأبقته غارقاً

في أوحاله الداخلية، ولو ظهر العكس لأسرعت في انتشاله من رماله المتحركة.

الرابعة: بات يُعرف لكلّ حيٍّ أنّ ما يندمج في الصنف الأوّل من الصنفين السالفي الذكر على مستوى الأنظمة والدول هما إيران وسوريا، وعلى مستوى الأحزاب والحركات هم: حزب الله لبنان والحركات المقاومة في فلسطين.

الخامسة: نلاحظ في العقد الأخير أنّ محور المقاومة والممانعة قد أخذ في النمو السريع على المستوى الشعبي والجماهيري، خصوصاً بعد الانتصار الربّاني في لبنان عام ٢٠٠٦، وفي غزّة عام ٢٠٠٨. بل قد بدا تأثيرها واضحاً حتى على بعض الأنظمة البعيدة عن منطقة النار، كبعض دول أمريكا الجنوبية واللاتينية.

السادسة: لا بدّ ـ بناء على ما تقدّم ـ للغرب وأمريكا من إيقاف حالة التنامي والعداء للكيان الغاصب ومن ورائه أمريكا وقوى الغرب الاستكباري. وقد قاموا بمحاولاتٍ متعددة في هذا السبيل ليس آخرها الفتن الطائفية التي يذكونها هنا وهناك.

ولكنّهم في الأخير وصل بهم الأمر إلى لزوم التحرّك بطريقةٍ مدروسةٍ لتوجيه ضربة موجعةٍ إلى محور الشرّ بنظرهم.

السابعة: أنّ صنّاع القرارات في العالم، قد وضعوا أمام أعينهم خارطة ما يُسمّى بمحور الممانعة، وكانت نتيجة التأمّل فيها أنّه من اللازم علينا التحرّك السريع لضرب حلقةٍ من حلقات هذا المحور بحيث نشلّه أو نضعفه على أقل تقدير.

وهذه الحلقة التي عليهم أنْ يضربوها لا بدّ أن تمتاز بميزتين:

ـ أن تكون هي الحلقة الأضعف في محور الممانعة، ولو بنظرهم؛ ليكون لهم قدرة في هذا الظرف العالمي على تحقيق أهدافهم من خلال ضربها، من دون أن يحصل حالة ارتداد عليهم.

ـ أن يكون إسقاط هذه الحلقة يحقّق لهم الأهداف التي يريدونها؛ وليس ذلك إلّا لكون العراق القريب نصب أعينهم.

وبما أنّ محور الممانعة ينقسم إلى أنظمةٍ ودول، وإلى أحزاب وحركات، فقد يبدو للوهلة الأُولى أنّ الحلقة الأضعف هي الأحزاب والحركات. ولكنّ التكتيك والتجربة سرعان ما يكذّبان ذلك.

أمّا التجربة، فحرب الـ ٢٠٠٦ و ٢٠٠٨ ليست عنهم ببعيدة.

وأمّا التكتيك، فإنّه يشهد بأنّ إضعاف الدولة التي لها وجود مشخص أسهل من إضعاف الحركة التي لا تكون كذلك، فإنّ الأولى لها عملٌ مترابط مع شعبها على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فبضرب تشخّصها سوف يتضرر ذلك الترابط، بخلاف الأحزاب والحركات.

ومخطّط ضرب الحلقة الأضعف ليس وليد هذه المرحلة، بل قد بدأ وجرّب في الحربين الأخيرين: لبنان وغزة.

وبعد تجربتهم الماضية انتهوا إلى ضرورة ضرب الدولة والنظام، ودار الأمر عندهم بين إيران وسوريا. ولما امتازت سوريا عن إيران في مجموعةٍ من الخصائص وقع الاختيار عليها، وهذه الخصائص هي:

ـ أنّ النظام الحاكم في سوريا ينتمي إلى أقليّةٍ طائفية، بينما النظام الحاكم في إيران ينتمي إلى أكثريةٍ طائفية.

ـ أنّ النظام الحاكم في سوريا هو نظام الحزب الواحد، بينما النظام الحاكم في إيران هو نظام ينتمي إلى عقيدةٍ تتمثّلها الأكثرية الساحقة.

ـ أنّ الدول التي تحدّ سوريا لها قدرة على أن يكون لها دور فعال فيما لو أُريد إسقاط النظام فيها، من قبيل الأردن وتركيا وفلسطين المحتلة عن طريق الجولان وشمال لبنان الخاضع في غالبيته إلى من كان بيده السلطة حتى الأمس

القريب فيه. بينما الأمر على العكس من ذلك تماماً في إيران، فأفغانستان دولة ضعيفة، وباكستان مشغولة بنفسها والعراق أقرب ولاء إلى إيران منه إلى الغرب مضافاً إلى الاشتراك في الانتماء إلى عقيدةٍ واحدة. وبقيت تركيا هي العنصر المشترك بين إيران وسوريا، ولوحدها لا تستطيع أن تؤثّر في الجمهورية الإسلامية.

ـ أنّ المتأففين من النظام الحاكم في سوريا والمخالفين له لهم وجود جماعي، قد نما وتزايد على أخطاء النظام السابقة، بينما المخالف للنظام في إيران ليس له هذا الكيان، ومن يُعرف بـ (منافقي خلق) أثبتت التجربة للغرب أنّه لا يمكن الاعتماد عليه؛ لعدم وجود جسور متماسكة بينهم وبين الداخل الإيراني.

ـ إنّ الاقتصاد الإيراني أقوى من الاقتصاد السوري بمراحل، فيكون أقدر على الصمود في وجه الضغوطات الخارجية، خصوصاً مع كون النظام الإسلامي في إيران قد نشأ وترعرع في ظلّ المقاطعات الاقتصادية المتنوّعة، ممّا أكسبه تجربة على المناورة وإيجاد البدائل.

ـ إنّ إيران أبعد من الناحية الجغرافية عن «إسرائيل» بخلاف سوريا؛ فلذا يكون التأثير السوري القريب الأمد على مصالح «إسرائيل» أوضح، مع كون التأثير الإيراني والدعم المتنوع لحركات المقاومة يحتاج إلى جسور تمرّ في الغالب من سوريا.

كلّ ذلك يقتضي أن يكون النظام السوري هو الحلقة الأضعف في محور الممانعة. فتمّ اتخاذ القرار بضربها.

وهذا القرار لا تراجع عنه إلّا بتحقّق واحدٍ من أمور ثلاثة:

١) سقوط النظام، والإتيان ببديل موالٍ لهم.

٢) تراجع النظام، وخروجه من محور الممانعة، ودخوله في محور الاعتدال

بتعبيرهم.

٣) إضعاف النظام؛ بإبقائه في حالةٍ من الانشغال الداخلي بعلاج الفتن التي تشعل له في أماكن متفرقة؛ بحيث لا يبقى له وجود فعالّ في محور الممانعة.

وكلّ واحد من هذه الأمور، على تقدير تحقّقها، فإنّ محور المقاومة سوف يضعف؛ لأنّ سوريا وإن كانت هي الحلقة الأضعف، لكنّها الأضعف في تأثّرها بما يحاك ضدّها، ولكن لها وجود قويّ وفعال في محور المقاومة لا يخفى على أحد.

ويبقى السؤال التالي يكمن في جوابه الحلّ لصالح أحد المحورين: محور الممانعة، ومحور الإرهاب الدولي.

وهذا السؤال هو:

هل لمحور الممانعة أوراق متنوعة يمكن أن يلعبها ليُفشل هذا المخطط الصهيو ـ أمريكي أم لا؟

هذا ما يحتاج إلَى دراسةٍ دقيقةٍ لنقاط القوّة الموجودة عند محور الممانعة، وكيفية تفعيلها، وممارسة الأولويات بدقّة، وهو ما نرجو أنْ لا يكون مغفولاً عنه عند أصحاب الحلّ والعقد.

* * *

الجزيرة والجزرة

نسرين عزّ الدين

خلال ثورة مصر، حصلت قناة الجزيرة على ما كانت تسعى إليه: تهنئة الإدارة الأميركية على تغطيتها للأحداث. إذن، وأخيراً، وجدت قناة الجزيرة الإنكليزية جمهوراً لها بعد طول مقاطعة.

كتبت الصحيفة الأميركية التي نقلت الخبر حينها أنّه لا يمكن أن يكون هناك شخص أكثر سعادة من عبد الرحمن فقرا مدير مكتب الجزيرة في واشنطن. وعلّق فقرا على (الحدث الجلل) بقوله: «من يسعى من الأميركيين إلى فهم الوضع في المنطقة، عليه أن يتوجه إلى القناة».

حققت الجزيرة ما حققته خلال ثورتي تونس ومصر، وفجأة أصيبت بالعمى حين وصلت الأحداث إلى البحرين. وفي الوقت الذي كانت تهلّل فيه لضربات الناتو في ليبيا، كانت تتغاضى عن الضربات التي تنهال على المتظاهرين في البحرين بلا هوادة.

شخصيّاً كنت من أولئك الذين آمنوا بهذه القناة، وكنت من أشدّ المدافعين عنها، حالي حال عدد كبير من العرب الذين ظنّوا في مرحلة ما أنّهم وجدوا فيها صوتاً للشعوب. لكنّ الصورة تغيرت وانقلبت وتحوّلت الجزيرة إلى شيء آخر.

كثيرٌ من خيبة الأمل وقليل من المهنيّة...

لم تتحدّث القناة القطرية كثيراً عن البحرين، وحين تحدّثت في مناسبات قليلة جدّاً وحاولت أن تستضيف شخصيّات معارضة عبر الهاتف كان أسلوب مقدّمي النشرات (وقحاً)، استخفاف واستفزاز ومقاطعة دائمة، فالرأي الآخر لا وجود له في حالة البحرين.

وقاحة لم نلمسها حين قررت الجزيرة استضافة ناطق باسم الجيش الإسرائيلي خلال أحداث يوم النكبة الأسبوع الفائت. حينها أعطت القناة لهذا الرجل (١٥) دقيقة كاملة للحديث بلا مقاطعة تذكر، وبلا استفزاز.

مهلاً! قالت الجزيرة يومها: سنسمعكم في هذا اليوم تحديداً (الرأي الآخر)؛ لأنّ شعارنا يقول: (إنّنا الرأي والرأي الآخر)، وبينما يطلق رصاص الجيش الإسرائيلي على رؤوسكم وصدوركم، سنسمعكم الرأي الإسرائيلي؛ لأنّه ليس برأي ثابت وليس برأي يعرفه العرب، ولن يكون كلاماً مكرّراً سمعه العرب ملايين المرات.

وحينما خرج أوباما بخطابه الموجّه إِلَى العالم العربي، قرّرت القناة أن تقوم (بتغطية خاصة) قبل وبعد وما بعد بعد الخطاب..

تحدّث الرئيس الأميركي وبشكل مباغت عن البحرين، وإن كانت (افتتاحية) الحديث انطلقت من مبدأ ملتوٍ، إلّا أنّه تحدّث في دقائق معدودة أكثر ممّا تحدثت الجزيرة خلال الأسابيع الماضية. صحيح أنّه تحدث عن (شرعيّة قانونيّة) وحقّ لبقاء الحكم رغم كلّ ما يحدث، إلّا أنّه أشار أيضاً إلى الاعتقالات والعنف..

فماذا حصل للقناة القطرية في تلك اللحظة؟!!

ما حصل أنّها تلقّفت سريعاً جملة (إيران حاولت استغلال الأوضاع في البحرين) ووضعتها في شريطها الإخباري، أمّا بقية الحديث فلم يجد له طريقاً

لينضمّ إلى عواجل الجزيرة.

انتهى أوباما من حديثه عن البحرين وانتقل إلى نقاط أُخرى، دقائق طويلة مرّت قبل أن تضع الجزيرة خبراً عاجلاً (متأخّراً جدّاً) يتحدّث عن ضرورة الحوار الجدّي بين المعارضة والحكومة البحرينيّة.. تأخير قد يكون مردّه إلى بلبلةٍ ما اضطرّ خلالها المسؤول عن اختيار العواجل إلى العودة إلى من هو أعلى مرتبة منه كي يقرّر ماذا سيختار؟ وماذا سيهمل من حديث الرئيس الأميركي عن البحرين؟ أو إلى مداولة ونقاش حول ما قاله، وحول ماذا ستختار القناة من أقوال لن تخرجها عن خطّها المعتمد في تغطية أحداث البحرين والمتمثّل بالانتقائية حيناً وبالتجاهل التامّ في أحيان أخرى.

هذا ما تمّ اختياره عن البحرين، فلا كلمة (اعتقالات)، ولا كلمة (عنف)، ولا كلمة (سجون)، وجدت آذاناً صاغية في القناة، بينما كلّ شاردة وواردة عن سوريا في الخطاب كان تخرّج بشكل عاجل على الشاشة، وتبقى لوقت طويل.

نظرية المؤامرة التي تمّ الترويج لها بقوة خلال التظاهرات البحرينيّة، استخفت بها الجزيرة حين وصل الأمر إلى سوريا. وتحوّلت التقارير الإخباريّة عن سوريا إلى (ميني دراما) يؤديها المقدّم بصوت بكائي حيناً وغاضب في أحيان أخرى. وبعيداً عما يحدث فعليّاً سياسيّاً وعسكريّاً في سوريا، دخلت الجزيرة في معركة مع التلفزيون الرسمي السوري. وليس انتقاصاً من قيمة أيّ وسيلة إعلاميّة، لكن أن تدخل قناة (بحجم الجزيرة) في صراع مع وسيلة إعلامية حكومية، فهذا إخبار لنا، نحن الذين كنا نؤمن بهذه القناة، بأنّهم يرون أنفسهم هكذا..محطة إخبارية عليها أن تتصارع مع إعلام حكومي لتثبت نفسها!!!

تقول الجزيرة: إنّها تتعرّض لهجوم عنيف ولانتقادات لاذعة، لا وبل تشعر في أحيان عدّة بأنها معنيّة بالدفاع عن نفسها ولو بشكل غير مباشر، فتقوم

بوضع خبر في شريطها الإخباري عن ارتفاع عدد المتتبّعين لها على صفحة فايسبوك إلى مليون.. صحيح أنّها تتعرض لهجوم، وصحيح أنّه هجوم عنيف، لكنّه يأتي من جهةٍ تشعر بأنّه تمّت خيانتها.. من جمهور يشعر بأنّه تمّ خداعه وتضليله، جمهور لجأ إلى هذه القناة بعد أن شعر باليأس من قنوات محلّيّة وأُخرى عربيّة تنتهج علناً سياسة الأحزاب والدول المموّلة لهم. جمهور رأى فيها، رغم الشوائب الظاهرة في أحيان كثيرة، بعضاً من الأمل في إعلام يسير بين التبعيّة السياسيّة وبين نبض الشارع..

وفجأة انهار كلّ شيء.

أصبحت ـ وبشكل علني ـ العصا التي تضرب بها قطر على رؤوس من تريد إزاحتهم من دربها، وعلى رؤوس من تريد قطر حشرهم في الزاوية من أجل مفاوضات حول ملفّات، ومن أجل مكانة سياسيّة عربيّة وعالميّة.

تحبّ أميركا سياسة العصا والجزرة، وباتت قطر بدورها مغرمة بهذه السياسة، فها هي الجزيرة تتحول إلى عصا، بينما تبقى الجزرة معلّقة في مكان ما.

يرى البعض أنّه كان للعرب نصيب في ثورة واحدة وهي ثورة الياسمين، وفي ثورة ممزوجة بالسياسة في مصر، أمّا بقية الأحداث في اليمن وليبيا وسوريا فهي حرب سياسيّة وقودها الشارع. وكان لنا نحن الجمهور العربي نصيبٌ في إعلام جميل في ثورتين...

وجزيرة بوجهها الحقيقي في البقيّة...

وجه ليتنا لم نره، ولم نعرف له ملامح، ولم نسمع له صوتاً...

* * *

المدارس الفقهية والتكامل الحضاري

تمظهر النص والواقع

□ الدكتور نضير الخزرجي (*)

تمهيد

من طبيعة الإنسان أن يسرع فيها إذا أصابته بلية أو مرض إلى مراجعة الحكيم الحاذق للاستشفاء وتلافي مضاعفات المرض، وهذه مسألة يحكم بها العقل السليم، ولكن الاختلاف يقع في رؤية الناس نحو شخصية الطبيب، صحيح أنَّ هناك مظاهر خارجية تحكم بأفضلية طبيب على آخر من قبيل كثرة الاستشفاء على يدي هذا الطبيب دون غيره، لكنّ الناس بطبيعة اختلاف أمزجتهم ونفسياتهم لهم رؤيتهم الخاصة بكل طبيب، فضلاً عن كون عامل الاستشفاء على يد طبيب معين قد نجده عند طبيب ثان وثالث، فكلّ مجموعة تحكم بأفضلية طبيب على آخر، وإذا توسّع المجتمع وتعددت المدن، فإنّ التنوع سيزداد، وبالتالي يصعب حصر الأفضلية بطبيب واحد دون غيره.

ربما يعترض البعض: بأنّ فقدان عامل حصر الأفضلية بطبيب واحد

(*) إعلامي وباحث عراقي/ لندن.

يضعّف من مناعة الصحة العامة، ولكن هذا التنوع والتعدد يناسب رغبات المريض النفسية والروحية، فقد لا يجد المريض الراحة النفسية عند مراجعة طبيب معين وإنْ بزغ اسمه وطار في الآفاق صيته، ويرتاح لآخر رغم كسوف شمس اسمه وخسوف قمر شهرته، فالاطمئنان النفسي له أثره البالغ في مراحل الاستشفاء.

منشأ الاجتهاد

وفي مجال تقليد الفقيه فإنّ أهمية معرفة الأعلم والأصلح للفتيا أكبر وأعظم؛ لأنّ المقلِّد (بكسر اللام) إنما يريد بعبادته والعمل وفق الشريعة الإسلامية سعادة الدنيا والآخرة، حتى تكون طاعته وعبادته منجزة عند الله، ولكن في هذه الأثناء يقفز إلى الذهن السؤال التالي: ما الذي يدعو إلى تعدد الاجتهادات وتعدد الفقهاء وتعدد المراجع الدينية في مجال الفتيا، وتعدد المدارس الفقهية، مادام الفقهاء يستنبطون الأحكام من مصادر تشريعية واحدة هي الكتاب والسنة؟!

في الواقع إنّ الاختلاف وقع في موارد عدة، وعلى ضوء ذلك وقع التعدد والاختلاف في المدارس الاجتهادية، فقد وقع الاختلاف في تحديد الأسس والمباني الأولية للاجتهاد، وفي تشخيص الأصول العامة للفتيا من نقلية وعقلية، وفي تعيين ضوابط وحدود السنّة، كما وقع الاختلاف في البيئة الاجتماعية وأثرها على شخص المفتي.

وأوّل ما وقع من الاختلاف هو في تشخيص أسس ومعدات الاجتهاد المعبر عنها بشروط الاجتهاد، والتي يرجّح الدكتور الميلاني تسميتها بـ «المواد الأولية»، وقسّمها من وجهة منهجية بلحاظ مواقع الالتقاء بينها إلى قسمين:

الأوّل: ما يعود منها إلى أصول الاجتهاد ـ أيْ: المصادر التشريعية ـ التي

تصلح أن تكون كبرى لقياس الاستنباط، وهي: الكتاب، والسنّة، والإجماع، والعقل، وغيرها.

الثاني: ما يعود منها إلى معرفة كيفية الاستنباط من هذه الأصول، أيْ: ما يقع موقع الصغرى في عملية الاستنباط ويرتبط بها ارتباطاً[1]، وقد حصر الأصولي الحكيم (ت ٢٠٠٢م) أسباب الاختلاف بين الفقهاء في قسمين:

ـ الخلاف في الأصول والمباني العامة التي يعتمدونها في استنباطهم، كالخلاف في حجية أصالة الظهور الكتابي، أو الإجماع، أو القياس، أو الاستصحاب، أو غيرها من المباني مما يقع الكبرى من قياس الاستنباط.

ـ واختلافهم في مدى انطباق هذه الكبريات على صغرياتها بعد اتفاقهم على الكبرى، سواء كان منشأ الاختلاف اختلافاً في الضوابط التي تعطى لتشخيص الصغريات بوجهة عامة أم ادّعاء وجود قرائن خاصة، لها مدخلية في التشخيص لدى بعض وإنكارها لدى آخرين[2].

ولا شكّ أنّ معرفة حدود السنّة توسعة أو تضييقاً، تعدّ عاملاً مهماً من عوامل التعددية الاجتهادية، ففي حين تقصر المدرسة السنية الاجتهادية السنّة على سنّة الرسول ' وتوسّعها إلى القبول بعمل الصحابة، فإنّ المدرسة الفقهية الشيعية وبخاصة الشيعة الإمامية الاثني عشرية، توسّع من مديات السنّة لتشمل سنة الأئمة الاثني عشر الذين هم عترة النبي وأهل بيته بضميمة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، ولا ترى حجيةً في عمل الصحابة إلا إذا تمّ إقراره من قبل الرسول ' أو من قبل أئمة الشيعة الإمامية، إذن فإنهم: «اختلفوا في مدلولها من حيث السعة والضيق مع اتفاقهم على صدقها على ما صدر عن النبي ' من قول أو فعل أو تقرير... وموضع الاختلاف في التحديد توسعة الشاطبي لها إلى ما تشمل الصحابة حيث اعتبر ما يصدر عنهم سنّة يجري عليها أحكامها الخاصة من حيث الحجية، وربما

وافقه بعضهم على ذلك، بينما وسّعها الشيعة إلى ما يصدر عن أئمتهم ^ .

فهي عندهم كلّ ما يصدر عن المعصوم قولاً وفعلاً وتقريرا»[٣]، وقد أشبع الحكيم هذه النقطة الخلافية بحثاً واستدلالاً ومقارنة، وخلص إلى عدم نهوض الأدلة التي ذكرها الشاطبي إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ) لإثبات سنّة الصحابة كجزء من أصل السنّة في الاجتهاد.

ويشخِّص الشيخ كاشف الغطاء: (المعصوم) وهو في مقام الحديث عن الخلاف بين المدرسة الإمامية والسنّية في باب الاجتهاد مؤكّداً أنّ الإمامية: «لا يعتبرون من السنّة ـ أعني: الأحاديث النبوية ـ إلّا ما صحّ لهم من طرق أهل البيت عن جدّهم، يعني: ما رواه الصادق جعفر، عن أبيه الباقر محمد، عن أبيه زين العابدين علي، عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله سلام الله عليهم جميعاً، أمّا ما يرويه مثل أبي هريرة عبد الرحمن الدوسي (ت ٥٧هـ)، وسمرة بن جندب (الفزاري، ت٦٠هـ)، ومروان بن الحكم (الأموي ت٦٥هـ)، وعمران بن حطان الخارجي (ت٨٤هـ)، وعمرو بن العاص (السهمي، ت٤٣هـ) ونظائرهم، فليس لهم عند الإمامية من الاعتبار مقدار بعوضة، وأمرهم أشهر من أن يذكر، كيف! وقد صرّح كثير من علماء السنّة بمطاعنهم ودلّ على جائفة جروحهم»[٤].

ربما يظهر من كلام الشيخ كاشف الغطاء محمد حسين (ت ١٣٧٣هـ) اقتصار السنّة على ما أوردهم من المعصومين ^ بدءاً بالإمام جعفر الصادق، ولكنّ الشيخ باقتصاره على الإمام الصادق عليه السلام إنما هو في معرض ردّ المذاهب الإسلامية إلى ما اشتهرت به، ومن ذلك المذهب الجعفري، وإلّا فإنّ سنّة أهل البيت ^ تضمّ بين دفّتيها ما ورد عن فاطمة الزهراء، وما ورد عن الإمام المجتبى الحسن بن علي بن أبي طالب (ت ٥٠هـ)، وما ورد عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر (ت ١٨٣هـ)، ومن ثمّ الإمام الرضا علي بن موسى (ت

٢٠٣هـ)، والإمام الجواد محمد بن على (ت ٢٦٠هـ)، والإمام الهادي علي بن محمد (ت ٢٥٤هـ)، والإمام العسكري الحسن بن علي (ت ٢٦٠هـ)، والإمام المنتظر المهدي بن الحسن العسكري المولود عام ٢٥٥هـ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن مظاهر الاختلاف وتعدّد المدارس الاجتهادية الاختلاف في الأصول العقلية كالقياس والاستحسان وسدّ الذرائع والمصالح المرسلة، وما إذا كان للبشر القدرة الكافية على فهم وإدراك المصالح والمفاسد للأحكام الشرعية، أو ما يعبّر عنها مجازاً بعلل الشرائع أو علل الأحكام، وقد أفاض السيد الحكيم في أصوله في كشف قصور مثل هذه الأصول العقلية عن القيام بالمراد.

بل إنّ كلمة الاجتهاد بحدّ ذاتها كما يقول السيد الصدر (ت ١٩٨٠م)، كسبت لوناً مقيتاً وطابعاً من الكراهية والاشمئزاز في الذهنية الفقهية الإمامية في القرون الأولى التي أعقبت عصر الغيبة الكبرى للإمام المهدي المنتظر (بدأت مع وفاة آخر سفراء الإمام المهدي عليه السلام الشيخ علي بن محمد السمري السفير العام (ت: ٣٢٩هـ)، ناهيك عن الأصول العقلية، فالشيخ الطوسي أبو جعفر محمد بن (ت٤٦٠هـ) يذكر في كتاب العدة: «أما القياس والاجتهاد فعندنا أنّهما ليسا بدليلين، بل محظور في الشريعة استعمالهما».

وفي أواخر القرن السادس يستعرض ابن إدريس محمد بن أحمد الحلي (ت ٥٩٨هـ) في مسألة تعارض البينتين في كتابه السرائر عدداً من المرجحات لإحدى البينتين على الأخرى، ثم يعقب ذلك قائلاً: «ولا ترجيح بغير ذلك عند أصحابنا، والقياس والاستحسان والاجتهاد باطل عندنا»[٥].

البيئة والفتيا

وهناك ضوابط ذاتية تدخل عاملاً مهماً في اختلاف الفتيا من فقيه إلى آخر

ومن مدرسة إلى أخرى، فنجد فقيهاً كثير الاحتياط في الفتيا، وهذه الحيطة لها علاقة بشخصية الفقيه نفسه، فهو شديد الحيطة والاحتياط حتى في حياته اليومية، وعندما يكبر وتنشأ معه ملكة الفتيا والاجتهاد تصاحبه الشدّة في الاحتياط في باب الفتيا، كما أنّ للبيئة تأثيراً واضحاً في الفتيا، فالفقيه الذي يعيش في حاضرة إسلامية كالنجف وكربلاء والقاهرة وقم ومشهد ومكة والمدينة، تختلف نظرته للمحيط عن الفقيه الذي يعيش في مدينة غربية أو غير مسلمة كلندن أو واشنطن أو باريس أو موسكو أو نيوزلندا أو سدني، فالفقيه في البلدان الأخيرة لمّا كان على احتكاك مباشر مع مستجدات فقهية نابعة من بيئة وظروف المجتمع والبلد الذي يعيش فيه، ربما سيكون أقدر على الإلمام بكلّ جوانب الفتيا، فعلى سبيل المثال وقع الاختلاف في تحديد الفجر الصادق في لندن وذلك لانعدامه في الصيف في البلدان التي تقع بين خطي عرض (٤٨ و٦٦) ولندن منها، وعندما تمّ استفتاء عدد من فقهاء السنّة والشيعة في عدد من الحواضر الإسلامية حول المسألة، لم تأتِ الأجوبة متطابقة، وقد وقع الخلاف في نشرات مواقيت الصلاة والصوم التي تصدرها المراكز الإسلامية في لندن قبل الاستفتاء ومن بعده[٦].

بل وربما لم يفت الفقيه بمسألة؛ لأنّه من الأصل لا يرى إمكان حصولها ووقوعها، يقول الشيخ محمد علي گرامي وهو من أساتذة الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة: «لا أنسى مسألة وردت في ... عن كيفية الصلاة في الأماكن التي تعادل فيها الليل والنهار، وكذا في مسائل الصوم. أحد العلماء الفحول رحمه الله ذكر تعليقاً على هذه المسألة بأنّها كاذبة لعدم إمكان ذلك، في حين أنّ الجامعيّين يعلمون إمكان ذلك، فهذه هفوة من مرجع دقيق النظر بسبب انقطاعه عن العالم وعدم اطّلاعه عن وجود هكذا موارد في الكرة الأرضية»[٧].

فالبيئة والمكان والزمان على علاقة مباشرة بالفقيه والإفتاء، ويرى البعض أنّ

للبيئة مدخلية في نشوء المدارس الفقهية الأولى، فقد: «ظهرت في تاريخ الفقه الإسلامي مدرستان مختلفتان، هما: مدرسة أهل الرأي ومدرسة أهل الحديث، وكان في مقدمة الأسباب التي أدّت إلى قيام ما بينهما من وجوه الاختلاف هو اختلاف ظروف البيئة، فقد كانت بيئة العراق، حيث نشأت مدرسة أهل الرأي مغايرة لبيئة الحجاز، حيث ظهرت مدرسة أهل الحديث»[٨]، وإلى هذا يشير الشيخ محمد أبو زهرة (ت ١٩٧٤م) بقوله: «وأهل هذا الإقليم ـ العراق ـ أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد، وشبه معترضي المذاهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل: ماني وديصان ومزدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة، ولا لأذهان أهل الحجاز هذه الأذهان»[٩]. ولقد أفتى الشافعي محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ) في مصر بغير ما أفتاه في العراق رغم وحدة المسألة الفقهية.

المدرسة الفقهية وتعددها

ولا يتوقف التنوع والاختلاف في المدارس الفقهية الإسلامية ككل، فهناك تنوع حتى في المدرسة الفقهية الواحدة، فعلى سبيل المثال نلحظ في المدرسة الفقهيّة الإمامية، الحركة الأخبارية والحركة الأصولية، ففي حين توقفت الأولى عند الخبر وجمعه (الحديث المروي عن المعصومين)، وقاومت دور العقل في مجال الاجتهاد والفتيا، أخذت الثانية بأصول الاجتهاد الأربعة (القرآن، الحديث، الإجماع، العقل)، وأعملت العقل. وبالطبع لا يمكن إلغاء دور العقل كلّيّاً، فحتى الذين يعيبون على الأصوليين من الأخباريين فإنّهم في ميدان الردّ والانتصار لعقيدتهم يستخدمون العقل، وكما يقول السيد الصدر: «كانت الحركة الأخبارية تستبطن ـ في رأي كثير من ناقديها ـ تناقضاً؛ لأنها شجبت العقل من ناحية لكي تخلي ميدان التشريع والفقه للبيان الشرعي، وظلّت من

ناحية أخرى متمسكة به لإثبات عقائدها الدينية؛ لأنّ إثبات الصانع والدين لا يمكن أن يكون عن طريق البيان الشرعي، بل يجب أن يكون عن طريق العقل»[١٠].

من الواضح أنّ الاختلاف في عقول الفقهاء وفهمهم وحدود توفرهم على ملكة الاجتهاد ومفرداته والتبحر في المصادر، يخلق مثل هذا الاختلاف في الاجتهادات، رغم أنّ الحق واحد، فربما ينطلق مجتهدان في البحث عن قضية فقهية واحدة في فترة زمنية واحدة، يصل الأول في إبراز معالمها وحكمها الشرعي قبل الآخر وفقاً لما يملكه المتفوق من أدوات اجتهادية وخلفية فقهية وأصولية ورجالية وحديثية جعلته أسبق من غيره، وربما خرج الاثنان باجتهاد في زمن واحد، ولكن بنتيجة قد تبدو متخالفة، وهذا خاضع لما لدى الاثنين من مفردات تعينهم على الاجتهاد، وهذه مسألة قائمة في كلّ علم، فالاختلاف والتنوّع قائم في كل شيء، وهي مسألة ملموسة ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار، وإلّا على سبيل المثال ما احتاج المعلم إلى إجراء اختبار وامتحان لطلبته رغم أنّ الأستاذ واحد وهو يقوم بتدريسهم في مكان واحد وزمان واحد، لكنّ الكفاءات والقدرات والأذهان تختلف من طالب لآخر.

في هذا الإطار يقول الباحث الإسلامي عاطف الزين: «ثمّ إنّ الإسلام جعل المسلمين يجتهدون في استنباط الأحكام، وبطبيعة تفاوت الأفهام حصل الاختلاف في فهم الأفكار المتعلقة بالعقائد وفي كيفية الاستنباط، وفي الأحكام والآراء المستنبطة، فأدّى ذلك إلى وجود الفرق والمذاهب، وقد حثّ الرسول ' على الاجتهاد، وبيّن أنّ الحاكم إذا اجتهد وأخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران اثنان»[١١] ، ومن الثابت أنّ الاجتهاد قائم في الفروع؛ إذ ليس هناك اجتهاد في مجال العقائد، أو اجتهاد في دائرة التشريعات القطعية، وما حصل هو اختلاف في فهم النصّ.

ولا شكّ أنّ في عملية الاجتهاد طرفين، أحدهما المقلَّد (الفقيه المجتهد)، والثاني المقلِّد (عموم الناس)، ولما استحال وقوف المكلفين على معرفة كامل الأحكام الإسلامية (فروع الدين)، وقع وجوب التقليد حتى يستطيع المسلم: «امتثال التكاليف الإلزامية الموجهة إليه في الشريعة المقدسة»[١٢]، وألزم المسلم بالاجتهاد إلزاما كفائياً: «فإذا تصدى للاجتهاد من يكتفى به سقط التكليف عن الباقين، وإذا تركه الجميع استحقوا العقاب جميعاً»[١٣].

وبذلك تحقّق تعدد المجتهدين، خصوصاً وأنّ المسلم مكلّف بتقليد الأعلم منهم، ولم يقع أنْ قلَّد جميع المسلمين مجتهداً واحداً في مدرسة مذهبية واحدة في فترة زمنية واحدة، نعم يتحقق ميل كفة مجتهد أو مرجع أكثر من آخر في مجال الرجوع الناس إليه في التقليد، وإذا أطلق على فقيه لقب شيخ الطائفة أو زعيم الطائفة أو المرجع الأعلى، فهي إطلاقات مجازية، تتحقق مصاديقها في الخارج بزيادة عدد المقلّدين والأتباع، بخاصة وأنّه في مذهب الشيعة الإمامية قد فوّض المعصوم للناس الرجوع إلى كلّ فقيه يحمل مواصفات العدل والعلم والنزاهة وطهارة المولد، ولم يخصّص أحداً بعينه أو حصر الناس به، نعم وقع التخصيص في الصفات. ولما كانت المواصفات المذكورة واقعة في دائرة الإمكان، ويستطيع أكثر من فقيه أن يحقّقها في نفسه، فقد تعدّد الفقهاء وتعددت الاجتهادات والمدارس الاجتهادية، حيث ورد عن الإمام المهدي المنتظرعليه السلام قوله: «وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنّهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»[١٤]، ففي الوقت الذي يُرجع الإمام الناسَ إلى الفقهاء في مجال التشريع وبخاصة في المستجدات، فإنّ الإمام الحسن العسكريعليه السلام يحدّد صفات الفقيه الجامع للشرائط، بقوله: «أمّا مَن كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه»[١٥]، وهذه صفات وملكات نجدها بالقطع في أكثر من فقيه مجتهد عادل وفي ظرف زماني

ومكاني واحد.

والملاحظة الطريفة التي تلفت الانتباه في هذا الحديث قولهعليه السلام: (فللعوامّ)، إذ لم يقل (على العوامّ)، أو أيّ تعبير آخر يستلزم الوجوب، فالحديث يومئ لمن يخاطبه بأنّه مخيّر وله الحرية التامّة في اختيار مرجعه، وإن لم يشأ التقليد فليس بإمكان أحد أن يجبره؛ لأنّ حسابه يبقى مع الله تعالى غداً يوم القيامة، فحرية اختيار المرجع مكفولة في الإسلام، فترى أنّ فلاناً يقلد المرجع الفلاني؛ لأنّ لديه القناعة التامّة به، فهو يراه أهلاً للتقليد بعد أن وجد المواصفات التي يذكرها الخبر منطبقة عليه، وقد لا يقتنع به وتتجه قناعته إلى مرجع آخر وهكذا[١٦]. فحرية الاختيار مشروعة تفضي بشكل طبيعي إلى تعدّدية في المرجعيات الدينية المؤهلة للفتيا.

التعددية المحمودة

ويرى بعضهم أنّ تعدّد الاجتهاد من العوامل الأساسية للتعددية التي شهدها المجتمع الإسلامي، والذي يربط بين التأويل والسياسة: «فالسياسة بما هي اهتمام بالشأن العامّ الذي هـو ساحة للاختلاف وتعدد المواقف تقوم على تعدد التأويلات وتكثر مناهج التفسير للنص المقدس»[١٧]، ففي المجتمع المسلم يسمح بتعدد القناعات الفقهية: «ويُعطي الإسلام فرصاً رحبة لنموّ الاجتهادات الفقهية المقبولة على الأصول العملية» [١٨].

من هنا، فإنّ الاجتهاد باب مفتوح لكلّ فقيه واجد الشرائط المذكورة في كتب الفقه والأصول، والاختلاف في الفتيا أمر قائم، ذلك أنّ الاختلاف في الرأي طبيعة بشرية، ومن أجل هذا لاحظنا ما قرّره الفقهاء من مبدأ: «إنّ رأي المجتهد يلزم المجتهد وحده دون غيره، يدلّل على أنّ الاجتهاد نفسه صيغة أُخرى للاختلاف في الرأي، ويعدّ من باب الخلاف المحمود»[١٩]، وإلى هذا يشير

الدكتور محمد عمارة: «فإذا كان الاجتهاد فريضة دائمة؛ لأنّه أداة استنباط الأحكام الشرعية الجزئية، من مصادر الوحي الإلهي، والبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، وعليه يتوقّف بقاء الشريعة الإسلامية، خاتمة وخالدة ومستجيبة أحكامها لمستجدات الزمان والمكان والمصالح والعادات والأعراف، وهو بعبارة السيوطي (ت ٩١١هـ): (فرض من فروض الكفايات في كلّ عصر، وواجب على أهل كلّ زمان أن يقوم به طائفة من كلّ قطر)، فإنّ فريضة الاجتهاد هذه لا تتأتّى إلّا مع التعدّدية والاختلاف في الاجتهاد. ثم إنّ الإقرار بشرعيّة الاجتهاد هو إقرار بشرعية الاختلاف، فمن حقّ كلّ مجتهد جامع لشرائط الاجتهاد أن يعبّر عمّا توصل إليه من فتاوى وآراء واجتهاد، وليس من حقّ أحد أن ينكر على مجتهد رأيه، ما دام هذا الرأي ضمن الأطر الشرعيّة»، مؤكّداً في الوقت نفسه: «أنّ الاختلاف في الفروع هو المجال الطبيعي لتعددية الاجتهادات والمذاهب والمدارس الفكرية، سياسية وغير سياسيّة، وهو اختلاف غير مذموم، وإذا كان الاجتهاد مشروعاً، هو كذلك بإجماع الأمة، فإنّ الاختلاف في الرأي هو الآخر يكون مشروعاً، وهذا بدوره إقرار بشرعية التعددية وحق الآخر في الاختلاف مع غيره»[٢٠].

ويقرّر الشيخ الغنوشي حقيقة ثابتة هي: «أنّه رغم ما عرفته تجربتنا التاريخية في ظلّ الإسلام من ضروب صراع واختلاف، وصل أحياناً حدّ الاتّهام في الدين، فإنّ السياق العامّ لهذه التجربة الحضارية الرائدة، كانت سمته البارزة وحظه العريض مطبوعين بطابع التسامح والقبول بحقّ التنوّع والاختلاف والتعدّد، ومن أجل إحاطة هذا الصراع بمقوّماته، والنموّ والإخصاب نشأت حوله آدابٌ سُميت بآداب الاختلاف»[٢١].

ومن جانبه، يعلّل الشيخ محمد الغزالي (ت: ١٩٩٦م) شرعية تعددية مراجع الفتيا بكون: «الاختلاف في وجهات النظر في التشريعات الفرعية حقيقة إنسانية

وإسلامية لا محيص عنها، ونشوء مدارس كبرى وصغرى على محاور قانونية مختلفة أمر لا غضاضة فيه ولا شرّ منه، ولو أنّ القرآن أنزل أمس وبعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم به منذ البارحة لما كان هناك بدّ من تفاوت الأنظار في أحكام الوضوء والصلاة؛ لأنّ ذلك أمر طبيعي»[٢٢].

ثمرة التعدد

ومن ثمرة تعدّد المجتهدين حصول تعدّد وتنوّع واختلاف في الاجتهادات: «التي يمكن أن تتبلور في مذاهب ومدارس وتيارات، فالاجتهاد سبب للتعددية التي تعود فتصبح حافزة على تنمية الاجتهاد، وإذا كان اجتهاد المجتهد ملزماً له هو ولمن قلّده، وغير ملزم للمجتهد الآخر، ولا للذين قلّدوه، فلقد غدت هذه القاعدة من قواعد الفكر الإسلامي التقنين الأدق والأوضح لمبدأ التعدّدية في الفكر الديني»[٢٣]، ولهذا يعتبر الشيخ محمد أبو زهرة ما حصل من اختلاف في الفقه والاجتهاد إنّما هو ثروة فقهية غنية تركها علماء المسلمين للأجيال المسلمة: «فتح القرائح، فاتجهت إلى تدوين علم الإسلام، مجتهدة متبعة من غير جمود، وتركت بعد ذلك تركة مثرية من الدراسات الفقهية، لا نكون مغالين، ولا متجاوزين المعقول، إذا قلنا إنّها أعظم ثروة فقهية في العالم الإنساني، ولعلّ أعظم ثروة يدّعيها الأوروبيون هو القانون الروماني، ولو وزن ما جاء عن الرومان ما عدل عُشر معشار ما تركه الفقهاء من عيون الفقه ومسائله، وإنّها لتشمل من الحلول الجزئية، والقواعد الكلية، ما يغني الإنسانية إن بغت الخير لنفسها، واتجهت إلى ما ينفعها ويعلو بها»[٢٤].

فالتعددية والتنوّع الفقهي أمر قائم، وقد وقع في دائرة الإسلام فعلاً، ونلمس هذا في تعدّد خطوط اللاهوت والأصول، المعتزلة، الأشاعرة، الشيعة، والتعدّد في أصول الفقه وكذلك تعدد الاجتهادات الفقهية، والتعدد في الحقل

الفلسفي والصوفي وحقل التاريخ والسياسة أيضاً، ونجد ترابطاً قوياً بين اللاهوت والسياسة في تجربة الأمة الإسلامية، ولكن رغم ما حصل من تعدد الخطوط والاتجاهات تاريخياً تبقى التعدّدية كما جرت على الأرضية التاريخية وفق محدّدات الأطر السياسية والاجتماعية ضعيفة وقاصرة نظرياً إذا ما قورنت بمفهوم التعددية في الفكر المعاصر؛ لأنّها قامت بالأساس على مسلمات العقليّة الدوغمائية ومفاهيمها الأرثوذكسية[٢٥].

وتضاف التعددية الفقهية أو الاجتهادية إلى مجموعة المظاهر والمصاديق الخارجية الدالّة على رؤية تكوينية وتشريعية لشرعية التنوع والاختلاف المؤدي إلى التكافل بين أبناء البشر، وكما يقول الباحث الاجتماعي الدكتور الحيدري: «من هذه الوحدة والتعايش والتجانس والاختلاف يمكن للفرد فهم الحضارات والتنافس فيما بينها من أجل الأحسن والأفضل لبني الإنسان باعتباره (صراعاً) اجتماعياً من أجل استمرار الحياة على الأرض، ويتوقف هذا التعايش الاجتماعي على القدر الذي يدّعي فيه البعض أنهم متساوون أمام الله وأمام القانون ومتسامحون مع الآخرين، ومع الحضارات الأخرى»[٢٦].

خلاصة الأمر: إنّ الاجتهاد ـ وهو رحمة للمسلمين ـ واحد من عوامل قوة المجتمعات، ودلالة على حيوية الإسلام ومواكبة تشريعاته لمستجدات الحياة في المجالات كافة، فما يتوفر لدى علمي الفقه والأصول من أدوات استنباطية لا يعتريها الوهن والضعف على مرّ الزمان، تمكّن الفقيه الحاذق من استنباط الحكم وتذليل الصعوبات التشريعية للمسلمين وعلى مرّ الأجيال. كما أنّ مفردة الصراع التي يعبّر عنها القرآن بالتدافع أو التسابق نحو الخيرات، يمكن ملاحظتها في التعددية الدينية والمذهبية والفقهية والاجتهادية، تدافع يقتضي فيه نيل سبل التكامل والتفاضل.

* * *

الهوامش:

(١) الميلاني، د. فاضل، ضوابط الاجتهاد وشروط المجتهد (بحث مقدم إلى مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية المنعقد في البحرين ٢٠-٢٢/ ٩/ ٢٠٠٣م) ص١٥.

(٢) الحكيم، محمد تقي، الأصول العامة للفقه المقارن (بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر) ص١٨، ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) كاشف الغطاء، محمد حسين، أصل الشيعة وأصولها (لندن وروما، منشورات البزاز، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) ص٨٥.

(٥) الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول، الحلقة١ و٢ (بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م) ص٣١-٣١.

(٦) راجع: حوارنا مع الدكتور السيد فاضل الميلاني والدكتور السيد محمد علي الشهرستاني، والتحقيق الذي أجريناه بهذا الخصوص، (مجلة الرأي الآخر، لندن مركز التثقيف الإسلامي، السنة ٢، العدد ١٨، شوال ١٤١٨هـ/ يناير ١٩٩٨م) ص١٢-١٧.

(٧) مطارحات مع قادة الفكر الإسلامي، حوار مع الشيخ گرامي (المؤسسة العالمية للحضارة الإسلامية، بيروت، ط١) ص٧٧.

(٨) حسن، د. حسن عباس، الصياغة المنطقية للفكر السياسي الإسلامي (بيروت، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ص١٥١.

(٩) انظر: حسن، د. عباس حسن، الفكر السياسي الشيعي.. الأصول والمبادئ (بيروت، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٨م) ص٨١.

(١٠) دروس في علم الأصول، مصدر سابق، ص٥١.

(١١) عاطف الزين، د. سميح، الإسلام وأيديولوجية الإنسان (بيروت، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ط٣، ١٩٨٢م) ص٣٣١.

(١٢) السيستاني، علي الحسيني ، المسائل المنتخبة.. العبادات والمعاملات (قم إيران، مؤسسة المنار ومطبعة مهر، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) ص٩، ص١٠.

(١٣) المصدر نفسه.

(١٤) الشاهرودي، نور الدين، العلماء ومراجع التقليد (إيران، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م) ص١٧.

(١٥) المصدر نفسه.

(١٦) المدرسي، محمد تقي، هكذا نبني عراق الغد، إعداد: فالح الربيعي (طهران، انتشارات مدرسي، ط١، ١٤١٣هـ) ص٧٨.

(١٧) الربيعي، على حسن، «راهنية التأسيس النظري للتعددية في الفكر الإسلامي» مجلة المعهد (لندن، معهد الدراسات العربية والإسلامية، السنة ١، العدد ٢، ١٤٢٠هـ) ص٧٣.

(١٨) سليم، عز الدين، «الإسلام والديمقراطية نقاط الافتراق ومحاور الالتقاء» مجلة المعهد (مصدر سابق) ص٧٨.

(١٩) عبد المجيد، د. أحمد فؤاد عبد الجواد، البيعة عند مفكري أهل السنة والعقد الاجتماعي في الفكر السياسي الحديث (القاهرة، دار قباء للطباعة، ط١، ١٩٩٨م) ص٣٥.

(٢٠) انظر: اليوسف، عبد الله، «الاجتهاد وحق الاختلاف» صحيفة المسلم (بيروت، تجمع المسلم الحر، السنة ٣، العدد ٢٧، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص٣.

(٢١) درويش، قصي صالح، حوارات قصي درويش.. راشد الغنوشي (لندن، خدمة خالد الإعلامية، ١٩٩٢م) ص٢٤.

(٢٢) الاجتهاد وحق الاختلاف، مصدر سابق، ص٣.

(٢٣) الصفار، حسن، التنوع والتعايش.. بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية والوطنية (بيروت، دار الساقي، ط١، ١٩٩٩م) ص٨٦-٨٧، ص٨٤-٨٥.

(٢٤) المصدر نفسه.

(٢٥) انظر: راهنية التأسيس النظري للتعددية في الفكر الإسلامي، مصدر سابق، ص٧٢.

(٢٦) الحيدري، د. ابراهيم، «القرية الكونية والتعددية الحضارية»، نشرة إسلام ٢١ (لندن، المنبر الدولي للحوار الإسلامي، العدد ٢٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ص٦.

باسم الإله مخافتي ورجائي

قصيدة كتبتها الشاعرة آيات القرمزي من داخل زنزانتها

باسم الإله مخافتي ورجائي ... وبمحمدٍ والعترة النجباءِ
وإليك يا ربّ خضعت تضرُّعاً ... لتعينني في رحلة اللأواءِ
لا، لستُ أكتب بالدموع رسالتي ... دمعي يثير شماتة الأعداءِ
لا تسألوا عن وقت نظم قصيدتي ... فالشمس حلمٌ والصباح مسائي
يا يوسف الصديق فسّر محنتي ... ألمُ السياط وصعقةُ الأعضاءِ
أنثى ورعبٌ والعذاب ووحدتي ... زنزانتي كالجبّ بالظلماءِ
يا ليتني! مصلوبةٌ، منسيةٌ ... والطير تأكلني لعظم بلائي
أنا لستُ يائسة، فروحي حرّةٌ ... لكنّ جسمي لا يطيق عنائي
يا ليتني مسبيةٌ مع زينب ... فتعينني لو جاءني أعدائي
أنا لستُ مريم فالملاك يزورها ... يا ليتني... قالت بلا استحيائي
وهتفت: يا ربّاه من فرط الأسى ... أولستَ تسمع صرختي ودعائي
فكأنّما الملكوت أرسل نفحةً ... بتوسلي بروائع الأسماء
أبصرت في قلبي سماء طهارة ... العذراءِ، والزهراءِ، والحوراءِ

فاستيقظت روحي وكل جوانحي وجوارحي انتفضت على أرزائي
وتهجدت شفتاي بالآيات وابتهجت بشعر الثورة الغناءِ
أنا لستُ راكعةً لمخلوقٍ، بلى لله.. للشعب العظيم ولائي
إنْ أكرهوني باعتذار حسبهم الله يعلمُ نيّتي وبلائي
والشعب ثار ولن يصدّق مكرهم الله أكبر... ثورة بسمائي
زنزانتي ميدان لؤلؤتي، أنا أفديك يا حريتي بدمائي

* * *

منوعات

□ *إعداد: المحرر الثقافي*

دراسة أمريكية تؤكد حكمة إعجاز القرآن في «عِدة المرأة»:

أكّدت أحدثُ الدراساتِ والأبحاث العلمية التي أجراها فريق بحثي أمريكي، حكمةَ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وأحكام الشريعة الإسلامية المتعلِّقة بتحديد فترة العدة للمرأة (١٢٠ يوماً)، وتحريم زواج الأشقاء بالرضاعة.

ونقلت وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية، عن الدكتور جمال الدين إبراهيم أستاذ علم التسمُّم بجامعة كاليفورنيا ومدير معامل أبحاث الحياة بالولايات المتحدة الأمريكية قوله: إنَّ دراسة بحثية للجهاز المناعي للمرأة كشفت عن وجود خلايا مناعية متخصصة، لها «ذاكرة وراثية»، تتعرَّف على الأجسام التي تدخل جسم المرأة وتحافظ على صفاتها الوراثية، لافتاً إلى أنَّ تلك الخلايا تعيش لمدة (١٢٠) يوماً في الجهاز التناسلي للمرأة.

وأضاف أنَّ الدراسة أكّدت أنَّه إذا تغيّرت أيّ أجسامٍ دخيلة للمرأة، مثل (السائل المنوي) قبل هذه المدّة يحدث خللٌ في جهازها المناعي، ويتسبّب في تعرّضها للأورام السرطانية، موضحاً أنَّ هذا يفسّر علمياً زيادة نسبة الإصابة

بأورام الرحم والثدي عن السيّدات متعددة العلاقات الجنسية، وبالتالي حكمة الشريعة في تحريم تعدّد الأزواج للمرأة.

وكشف أنّ الدراسة أثبتت أيضاً أنّ تلك الخلايا المتخصصة تحتفظ بالمادة الوراثية للجسم الدخيل الأول لمدة (١٢٠ يوماً)، وبالتالي إذا حدث علاقة زواج قبل هذه الفترة ونتج عنها حدوث حمل فإنّ الجنين يحمل جزءاً من الصفات الوراثية للجسم الدخيل الأول والجسم الدخيل الثاني.

ومن ناحية أخرى، أشار الدكتور جمال الدين إبراهيم الذي يزور مصر حالياً إلى أنّ الدراسة للجهاز المناعي للمرأة كشفت أنَّ لبن الأم يتكون من خلايا جذعية تحمل الصفات الوراثية المشتركة للأب والأم، وبالتالِي تنتقل تلك الصفات للطفل الذي تقوم الأم بإرضاعه مما يعلّل حكمة التشريع في تحريم زواج الأشقاء بالرضاعة والذي يترتب عليه حدوث خلل في الجهاز المناعي للأطفال الناتجة عن تلك الزيجات، بالإضافة إلى الأمراض الوراثية الأخرى الخطيرة.

وذكر أنَّ تلك الدراسة استمرت لمدة عام كامل وأجراها فريق بحثي مكون من سبع متخصصين من الولايات المتحدة الأمريكية من بينهم مصريون، مشيراً إلى أنّه عرض نتائج تلك الدراسة التي أذهلت العلماء المتخصصين في المؤتمر الدولي للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والشريعة الذي عُقِد في تركيا مؤخراً.

وأكد أنَّ الشريعة الإسلامية تتسم أحكامها بالشمولية في تنظيم حياة الإنسان، فهي شريعة شاملة ودستور حياة كامل، ووضعت أحكاماً لتحرّر المجتمعات من الأمراض والانحلال الأخلاقي، وتحرص على سلامة أفراد الأسرة جميعاً صحياً ونفسياً وجسدياً وعقليا.

نداء الشيْخ ماهر حمود إلى علماء السعودية في موقفهم من قيادة المرأة

للسيارة:

يؤسفنا أن تكون بعض النسوة في السعودية أقدر على فهم حقوقهنّ، بل أقدر على فهم الإسلام أو بعض الإسلام من جهابذة العلماء الذين يدّعون أنهم قادرون على فهم الحلال والحرام أكثر من الآخرين... نعم هؤلاء النسوة اكتشفن بالفطرة السليمة والإسلام دين الفطرة أصلاً أنَّ تحريم قيادة السيارات لا يمكن أن يكون حكماً إسلامياً؛ لأنّه يتناقض مع أبسط حقوق الإنسان التي جاء الإسلام لتأكيدها:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

حقّ المرأة الطبيعي أن تقود سيارتها، وتذهب إِلَى عملها المتواضع، أو أنْ تتبضع من المحال القريبة من بيتها، أو أن تأخذ جاراتها في نزهةٍ في المدينة التي هي فيها، أو أنْ توصل زوجها إِلَى العمل مثلاً، أو تأتي بولدها من المطار...

ماذا في هذا الأمر أين الحرام؟ إذا كان المقصود الحفاظ على المرأة من الاعتداء فيمكن وضع بعض الضوابط، بأن تتجنب المرأة أن تكون وحيدة في سيارتها في الطرقات الصحراوية البعيدة عن السكن وإن كان المقصود تجنب أن تضطر إلى تغيير عجلة السيارة أو ما إلى ذلك فالهواتف موجودة وسيارات النقل جاهزة في كل الأوقات وإن كان المقصود أن نحدّ من خروجها من المنزل باعتبار: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾، فهذا ليس على المطلق، وليس في كل وقت لقد أذن رسول الله ' لخالة جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) بالعمل خلال عدتها وقال: «**اعملي عسى أن تتصدقي**» تعمل المرأة حتى في عدتها إن كانت مضطرة وبالتالي لا بد من أن تذهب إلى عملها على الدابة أو في السيارة. ثم أين نذهب بحديث رسول الله ' الذي بشر به عدي بن حاتم حين قال له: «**فإن طالت**

بك الحياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله» والظعينة هي المسافرة على الهودج فمن أين لكم التحريم يا أدعياء الفقه والعقيدة إنكم تقولون قولاً عظيماً...

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

عودوا عن غيّكم، وإياكم أن تجعلونا نخسر جولة أمام دعاة حقوق الإنسان وحقوق المرأة. يجب أن يرفع الحظر عن قيادة المرأة للسيارة بقرار شرعي، ولا ينبغي أن يفهم الناس أنَّ المرأة استعادت هذا الحق بسبب دعاة حقوق الانسان أو بسبب حتى قرار ملكي.

يجب أن تقود المرأة السيارة بقرار شرعي وبشكل واضح، وإلا فهي مهزلة لا تحتمل..

ولا بأس من ضوابط كما ذكرنا..

وإنْ تعدّوا جرائم أمريكا لا تحصوها:

فيما يلي إشارة مختصرة لأبرز جرائم أمريكا في القرن العشرين وإلى وقتنا الحاضر:

١) في أبريل عام ١٩١٦م: مشاة البحرية الأمريكية تقمع انتفاضة في الدومينكان، ثم تحتل البلاد بالكامل في بداية مايو، ويستمر الاحتلال ثماني سنوات.

٢) أوائل ديسمبر سنة ١٩٤٣م: البحرية الألمانية تغرق الباخرة الأمريكية

(S/S John Harvey) في عرض البحر، وتبين أنها كانت محملة بمائة وخمسين طناً من غاز الخردل.. فهلك من جراء انتشار هذا الغاز في جو المنطقة ومياهها خمسة وسبعون بحاراً إضافة إلى خمسة وأربعين طناً من الأسماك طفت على وجه المياه.

٣) في مايو ١٩٤٥م: قصف الطيران الأمريكي مدينة (درسدن) الألمانية، رغم أنَّ الزحف الروسي كان قد تجاوزها ولم تعد لهذا السبب تشكل هدفاً عسكريا.. وقد أدّى القصف إلى قتل ١٥٠ ألف شخص مدنياً كما خرّب ٦٠٪ من أبنيتها.

٤) ٦ أغسطس ١٩٤٥م: أمر الرئيس الأمريكي (ترومان) بإلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، التي أودت بحياة (٧٨١٥٠) شخصاً إضافة لعشرات المشوهين.

٥) ٩ أغسطس ١٩٤٥م: أمر الرئيس الأمريكي (ترومان) بإلقاء القنبلة الذرية الثانية على مدينة (ناكازاكي) اليابانية، فحصدت (٧٣٨٨٤) قتيلاً و(٦٠.٠٠٠) جريحا، مع إبادة كاملة لكل حيوان وحشرة ونبات.

الحرب الباردة:

ـ بدأَ في العالمِ عصرٌ جديدٌ بإلقاءِ القنبلتينِ النوويّتينِ على (هيروشيما) و(ناجازاكي)، خاصّةً بعدَ أن اخترعَ (الاتّحادُ السوفيتيُّ) قنبلتَه الذريّةَ عامَ ١٩٤٩، ولحقتْه (بريطانيا) عامَ ١٩٥٠، و(فرنسا) و(الصينُ) في الستينات.

ـ بدأَ سباقُ التسلّحِ والحربُ الباردةُ بينَ القوّتينِ العظميينِ الجديدتين: (الاتحادِ السوفيتي) و(أمريكا)، بعدَ انتهاءِ القوّتينِ السابقتينِ: (انجلترا) و(فرنسا).. هذه الحربُ التي دفعتْ ثمنَها شعوبٌ العالمِ النامي، وهي تتخبّطُ بينَ أقدامِ العملاقينِ المتصارعين!.. وقد دفعَ هذا (أمريكا) إلى التدخّلِ في

شؤونِ العديدِ من دولِ العالمِ النامي، لمقاومةِ المدِّ الشيوعيِّ فيها، مثلما تدخّلتْ في الحربِ بينَ (كوريا الشماليّةِ) و(كوريا الجنوبيّة)، وكما تدخّلتْ في (فيتنام).. وعملت المخابراتُ الأمريكيّةُ على إشعالِ الفتنِ والثوراتِ والحروبِ الأهليّةِ في أماكنَ عديدةٍ من العالم، وخاصّةً في (أمريكا الجنوبيّة) و(أفريقيا).. ولا ننسى بالطبعِ دورَ (أمريكا) الرئيسيَّ في زرعِ (إسرائيل) في منطقةِ الشرقِ الأوسط، والمساندةَ الدائمةَ لها ضدَّ العربِ والمسلمين.

ـ استخدمتْ (أمريكا) الحربَ الدعائيّةَ للوقوفِ ضدَّ الشيوعيّة، لتبدوَ في نظرِ العالمِ راعيةَ الحريّةِ والديمقراطيّةِ والعدالة، فهي التي قامتْ بها الحربُ الأهليّةُ بينَ الشمالِ والجنوبِ لتحريرِ عبيدِ الجنوب (وإنْ كانَ الزنوجُ لم يحصلوا على حقوقِهم الكاملةِ حتّى يومِنا هذا!)، وهي التي أعلنتْ حقوقَ الإنسان، ومبدأَ حقِّ تقريرِ المصير، وحقِّ كلِّ شعبٍ في الحرّيّةِ والاستقلال (ونحنَ نرى مواقفَها من الشعبِ الفلسطينيِّ والأفغانيّ والعراقيِّ!!).. وهي التي تمنحُ المساعداتِ الماليةَ والمنحَ والقمحَ لمساعدةِ الشعوبِ الفقيرة (وللسيطرةِ على سياستِها والتجسّسِ على بنيتِها الداخليّة!!).

وفيما يلي تفصيلِ ذلك:

٦) ٢٨ سبتمبر ١٩٤٥م: صادق الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان، على قرار إنشاء قاعدة جوية للقوات الأمريكية في الظهران، لتكون أول تواجد عسكري أمريكي في الجزيرة.

٧) سنة ١٩٤٦م: استولى الأمريكيون على مائتين وخمسين ألف طن من غاز (التابون) الفتاك في منطقة (جيورجيان) في النمسا وبدلاً من إتلافها تم نقلها سراً إلى الولايات المتحدة.

٨) عام ١٩٤٩م: الولايات المتحدة تشعل حرباً أهلية في اليونان، ذهب ضحيتها ١٥٤ ألف شخص وأودع حوالي ٤٠ ألف إنسان في

السجوناً و٦ آلاف أعدموا بموجب أحكام عسكرية. وقد اعترف السفير الأمريكي الأسبق في اليونان (ماكويغ)، بأنّ جميع الأعمال التكنيكية والتأديبية الكبيرة التي قامت بها الحكومة العسكرية في اليونان في الفترة ما بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٩م كانت مصدّقة ومهيأة من واشنطن مباشرة.

٩) ٣ مارس ١٩٤٩م: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تنفّذ انقلاباً عسكرياً في سوريا بقيادة حسني الزعيم.. وقد تمّ التخطيط للانقلاب في السفارة الأمريكية في دمشق.

١٠) ١٤ أغسطس ١٩٤٩م: قامت مجموعة من الضباط السوريين بتوجيه من السفارة الأمريكية في دمشق بمحاصرة بيت حسني زعيم وقتله بعد أن تمرد على أوامرهم.

١١) ٢٦ يونيو ١٩٥٠م: تدخلت الولايات المتحدة عسكرياً ضد كوريا الشمالية لصالح كوريا الجنوبية.

١٢) ١٠ مارس ١٩٥٢م: الولايات المتحدة تدعم الجنرال (باتيستا) للقيام بانقلاب ضد الحكم الجمهوري في كوبا.. وبعد استيلائه على السلطة فرض على البلاد حكماً دكتاتورياً متخلفاً ومرتبطاً بالولايات المتحدة.

١٣) ٩ أغسطس ١٩٥٣م: تنفذ وكالة المخابرات المركزية انقلاباً ضد حكومة (مصدق) الوطنية في إيران.. قام بالتخطيط والتنفيذ (كيم روزفلت) حفيد (تيودور روزفلت) رئيس الولايات المتحدة (١٩٠١ ـ ١٩٠٩م).

١٤) ٢٧ يونيو ١٩٥٤م: نفذت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً عسكرياً في غواتيمالا بعد أن قامت طائراتها بقصف العاصمة

وبعض المناطق بطائرات (ب ـ ٢٦).

١٥) ٢٥ يوليو ١٩٥٨م: تمّ احتلال لبنان عسكرياً من قبل الأسطول السادس الأمريكي، لتأييد حكومة (كميل شمعون)، على إثر قيام الانقلاب العراقي في اليوم السابق.

١٦) ١٦ أبريل ١٩٦١م: الولايات المتحدة تحاول غزو كوبا بواسطة بعض المنفيين الكوبيين، بمساندة الطائرات الأمريكية وبدعم مباشر.. والعملية سميت (معركة خليج الخنازير) وقد فشلت فشلاً ذريعا.

١٧) ١ نوفمبر ١٩٦٣م: قتلت المخابرات الأمريكية (نيجو دين ديم) رئيس وزراء فيتنام الجنوبية عميلها السابق.

١٨) عام ١٩٦٤م: قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالأعمال العدوانية المسلحة ضد لاوس بهدف دعم الحكومة الموالية لها.. شارك في هذا العدوان ٥٠ ألف جندي وضابط من الجيش الأمريكي و١٥٠٠ طائرةً و ٤٠ سفينة حربيةً واستخدمت أمريكا أيضا السلاح الكيماوي بصورة كبيرة.

١٩) ٣٠ يوليو ١٩٦٤م: قامت المخابرات المركزية الأمريكية بعملية في خليج (تونكين) الفيتنامي ضمن الخطة (٣٤أ)، لإيجاد مبرر للتدخل في فيتنام.. وضمن هذه الخطة شنت الولايات المتحدة ٦٤ غارة جوية على ٤ قواعد بحرية لزوارق الطوربيد الفيتنامية ومستودعات للوقود.. وعلى أثر ذلك أعطى الكونغرس الأمريكي صلاحيات للرئيس الأمريكي (جونسون) باستخدام القوة المسلحة في جنوب شرق آسيا إذا اقتضت الضرورة ذلك.. وبموجب هذا بدأت الولايات المتحدة حربها الجوية والبحرية والبرية ضد فيتنام.

٢٠) ٢٨ أبريل ١٩٦٥م: الولايات المتحدة تتدخل عسكرياً في

(الدومينكان)، على إثر قيام حركة ثورية في البلاد.

٢١) ١ مايو ١٩٦٥م: نقلت السفن والطائرات الأمريكية ١٧٠٠ من مشاة الأسطول و٢٥٠٠ من الجنود إلى الدومينيكان.

٢٢) ٤ مايو ١٩٦٥م: أمر جونسون بإرسال ١٤ ألف جندي لاحتلال (سان دو منجو) إلى أجل غير مسمى.

٢٣) ١٢ أبريل ١٩٦٦م: رفضت الولايات المتحدة الموعد النهائي (أول أبريل ١٩٦٧) الذي حدده الجنرال ديجول لسحب القوات الأمريكية ـ وعددها ٢٦ ألف جندي ـ من فرنسا.

٢٤) ٢٤ ديسمبر ١٩٦٦م: القوات الأمريكية تقتل ١٢٥ من المدنيين الفيتناميين، رغم أنها أعلنت عن وقف القتال لمدة ٤٨ ساعة بمناسبة أعياد الميلاد.

٢٥) عام ١٩٦٨م: دبرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً عسكريا يقوده (سوهارتو) ضد رئيس إندونيسيا (سوكارنو) ـ الذي قاد البلاد نحو التحرير من اليابانيين ومن ثم الهولنديين ـ وقد تبع هذا الانقلاب حفلات إعدام راح ضحيتها مليون شخص.

٢٦) ٤ أبريل ١٩٦٨م: المخابرات المركزية الأمريكية تقتل الثائر (مارتن لوثر كنج) المناضل من أجل حقوق المظلومين.

٢٧) عام ١٩٦٩م: وفق برنامج فينيكس (أي التصفية الجسدية)، قَتل (كولبي) ـ كبير ممثلي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في فيتنام شخصيا ـ ١٨٠٠ شخص شهرياً في فيتنام الجنوبية وبلغ مجموع ما قتله ٤٠ ألف شخص.

٢٨) ٢٠ أبريل ١٩٧٠م: هاجم (٣٢) ألف جندي من القوات الأمريكية مدعمة بـ (٥٠٠) طائرة أمريكية و ٤٠ سفينة حربية تابعة للأسطول

السابع الأمريكي الأراضي الكمبودية.

٢٩) ٥ سبتمبر ١٩٧٣م: وجّه الرئيس الأمريكي (نيكسون) تحذيراً إلى الدول المنتجة للبترول في الشرق الأوسط من أن (سياسة الربط بين زيادة أسعار البترول ومحاولتهم استخدام البترول لأغراض سياسية قد تؤدي إلى فقدهم أسواقهم).

٣٠) ١١ سبتمبر ١٩٧٣م: المخابرات المركزية الأمريكية تنفذ انقلاباً ضد (سلفادور الليندي) في تشيلي.. وكانت نتيجة الانقلاب مقتل (سلفادور الليندي) وإعدام ٣٠ ألفاً واعتقال ١٠٠ ألف.

٣١) ٨ سبتمبر ١٩٧٤م: كشف وليام كولب ـ مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ الدور الذي لعبته المخابرات الأمريكية للتخلص من الرئيس الليندي وذكر أنَّ حكومة نيكسون سمحت بإنفاق أكثر من ٨ ملايين دولار على أوجه نشاط المخابرات الأمريكية في شيلي في الفترة من عام ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣م، وذلك لعرقلة أعمال حكومة الليندي.

٣٢) منتصف عام ١٩٧٥م: الكونغرس الأمريكي يعدّ خطة لاحتلال آبار النفط في منطقة الخليج وقد تمثلت الخطة على خمس نقاط هي: الاستيلاء على المنشآت النفطية.. حماية هذه المنشآت بضعة أسابيع أو شهور أو سنوات.. ترميم الموجودات والمعدات المتضررة بسرعة.. تشغيل جميع المنشآت النفطية بدون مساعدة المالك.

٣٣) ٢٣ يونيو ١٩٧٧م: رفضت لجنة الاعتمادات بمجلس الشيوخ الأمريكي وقف إنتاج قنبلة (النيترون)، وهي قنبلة خطيرة تقتل البشر دون أن تلحق أضراراً بالمنشآت أو المباني.

٣٤) ١٤ يوليو ١٩٧٧م: وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على إنتاج قنابل

النيترون، التي أكّد الرئيس الأمريكي كارتر أن تطوير إنتاجها سيكلف الخزانة الأمريكية ٤٦ مليون دولار من ذلك الحين وحتى عام ١٩٨٠م.

٣٥) ٢٠ أكتوبر ١٩٧٧م: أعلن (جيمي شليزنجر) وزير الطاقة الأمريكي، أنَّ الولايات المتحدة ربما يتعين عليها اللجوء يوماً ما إلى حماية مصادر البترول في منطقة الشرق الأوسط، وأنّ على الشعب الأمريكي أن يقدر الحاجة بضمان نوع من الأمن الفعلي لهذه المصادر، وهي الحاجة التي يمكن وصفها بأنها ضرورة عسكرية.

٣٦) ٢ أكتوبر ١٩٧٨م: اعترف الرئيس الأمريكي لأول مرة باستخدام الولايات المتحدة للأقمار الصناعية في التجسس على الاتحاد السوفيتي وبعض الدول الأخرى.

٣٧) عام ١٩٧٨م: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقتل (٩١١) شخصاً في غايانا من جماعة (معبد الشمس)، في مذبحة مروعة ادعت وكالة المخابرات الأمريكية أنها حادث انتحار جماعي.

٣٨) ٢٠ يناير ١٩٧٩م: طلبت الحكومة الأمريكية من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إعداد دراسة شاملة حول الحركات الإسلامية في جميع أنحاء العالم.

٣٩) ٩ أغسطس ١٩٧٩م: صرح بريجنسكي مستشار الرئيس الأمريكي للأمن القومي، أن الولايات المتحدة بدأت منذ عامين في تشكيل قوة التدخل السريع، بهدف حماية مصالحها ومصالح حلفائها بصورة فعالة في المناطق التي تنشب فيها الاضطرابات.

٤٠) في أكتوبر عام ١٩٧٩م: قتلت المخابرات المركزية الأمريكية (باك جون في) رئيس جمهورية كوريا الجنوبية.

٤١) ١٢ نوفمبر ١٩٧٩م: الولايات المتحدة تُجمد الودائع الإيرانية في بنوك الولايات المتحدة الأمريكية، لغرض محاصرة الثورة الإسلامية الإيرانية.

٤٢) ٥ ديسمبر ١٩٧٩م: أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أنَّ حاملة الطائرات الأمريكية (كويتي هوك) ترافقها ٥ سفن حربية للحراسة، قد وصلت إلى منطقة الخليج، التي توجد فيها من قبل حاملة الطائرات الأمريكية (ميسواي)، على رأس قوة طوارئ.. ويوجد على ظهر الحاملتين ١٣٣ طائرة تستطيع الوصول إلى مدخل الخليج.

٤٣) ١٢ ديسمبر ١٩٧٩م: تتجمع في بحر عمان أضخم قوة بحرية أمريكية منذ الحرب العالمية الثانية.. وقالت وزارة الدفاع الأمريكية إنَّ سفينة إصلاح تابعة للبحرية الأمريكية قد انضمت للأسطول الأمريكي في بحر عمان.

٤٤) ١٣ ديسمبر ١٩٧٩م: اتخذت الإدارة الأمريكية قراراً بإبعاد الدبلوماسيين الإيرانيين من الولايات المتحدة.

٤٥) نهاية آذار ١٩٨٠م: زاد عدد السفن العسكرية الأمريكية عند سواحل إيران على الثلاثين.

٤٦) ٣٠ مارس ١٩٨٠م: اغتالت المخابرات المركزية الأمريكية (المونسينور روميرو) رئيس أساقفة السلفادور، بينما كان يرعى قداساً كنسيا.

٤٧) ٢٥ أبريل ١٩٨٠م: قامت مجموعة (دلتا) الأمريكية المكونة من القوات الخاصة، بعملية اعتداء على الأراضي الإيرانية بحجة تحرير الرهائن الأمريكيين في السفارة الأمريكية في طهران.. ولكن حسب الكثير من المعطيات كانت هذه العملية هي إشارة لتنفيذ انقلاب

يقوم به العملاء الذين أرسلوا مسبقاً إلى إيران، بما في ذلك أنصار الشاه الذين هربوا أثناء الثورة الإسلامية إلى الخارج.. وقد فشلت هذه العملية.

٤٨) ٢٨ أبريل ١٩٨٠م: أعلن جودي باول المتحدث باسم البيت الأبيض، أن الرئيس الأمريكي كارتر يدرس إمكانية القيام بعمليات عسكرية أخرى لإنقاذ الرهائن الخمسين في المدن الإيرانية.

٤٩) في نوفمبر ١٩٨٠م: نظمت المخابرات المركزية الأمريكية انقلاباً بقيادة الكولونيل أاكبر توناتوش).. وقد نظم الانقلاب ونفذه مجرم الحرب الألماني (كلاوس)، الذي احتضنته الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية.. وقد ذهب ضحية جرائمه ما يفوق بكثير ضحايا الجرائم التي ارتكبت في فرنسا أثناء الاحتلال الألماني.

٥٠) يونيو ١٩٨١م: وافقت الحكومة الأمريكية على استراتيجية عسكرية جديدة، تقضي بضرورة أن تكون القوات الأمريكية على استعداد لشن حربين كبيرتين في آن واحد، إحداهما في أوروبا والثانية في الشرق الأوسط مثلا.

٥١) آب ١٩٨١م: قامت طائرات الأسطول السادس الأمريكي في خليج سرت باعتداء على طائرتي حراسة ليبيتين أسقطتهما.

٥٢) أب ١٩٨١م: قام عميل المخابرات المركزية الأمريكية الجنرال (ب. اريانى) الرئيس السابق لأركان الجيش الإيراني في عهد الشاه، بسرقة سفينة الحراسة التي بنيت في فرنسا.

٥٣) ٢٦ نوفمبر ١٩٨١م: وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تجند المرتزقة، بالاشتراك مع المخابرات الأفريقية الجنوبية الذين تمولهم أمريكا وترسلهم تحت غطاء فريق لعبة الرجبي للقيام بانقلاب عسكري في

جزر سيشل.

٥٤) ديسمبر ١٩٨١م: قامت كتيبة (أتلاكاتل) المتوحشة والمرتبطة بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية بقتل ١٠٠٠ شخص مع عمليات اغتصاب وحرق في السلفادور.

٥٥) ٢٥ فبراير ١٩٨٢م: قررت الإدارة الأمريكية اتخاذ خطوات لمقاطعة البترول الليبي وفرض حظر على بيع المعدات البترولية والإلكترونية لليبيا.

٥٦) ٧ يونيو ١٩٨٢م: تتمكن الولايات المتحدة من إيصال دميتها حسين حبري إلى الحكم، بعد أن أنفقت أكثر من ١٠ مليارات دولار.. وعلى أثر ذلك تعرض الناس في تشاد إلى تنكيلات دامية.

٥٧) ٨ يوليو ١٩٨٢م: وصلت قطع الأسطول السادس الأمريكية إلى مسافة أقل من ٥٠ كيلومترا من السواحل اللبنانية، لإسناد القوات الصهيونية التي غزت لبنان يوم ٥ يونيو ١٩٨٢م.

٥٨) ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣م: أثناء التدريبات واسعة نطاق لقوات الانتشار السريع الأمريكية (برايت ستار)، قامت الطائرات الاستراتيجية القاذفة للقنابل ب٥٢ بالقصف (الإرهابي) على مقربة من الحدود الليبية.

٥٩) ٢٥ اكتوبر ١٩٨٣م: قامت القوات الأمريكية بهجوم على غرينادا إحدى أصغر دول العالم فقد انتهكت سيادتها بوحشية حاملةً الدمار والموت للسكان الآمنين، الذين نهضوا للدفاع عن وطنهم.. واحتلت القوات الأمريكية الجزيرة.. وقد أطلقت الإدارة الأمريكية كذبة تقول إنَّ الطلاب الأمريكيين تعرضوا للخطر؛ وذلك لتبرير عدوانها على الجزيرة.

٦٠) ٦ أبريل ١٩٨٤م: رفض مجلس الشيوخ الأمريكي مشروع قانون يلزم الحكومة الأمريكية بوقف العمل في إقامة قواعد حربية ومنشآت عسكرية في هندوراس، لاستخدامها ضد الثوار في السلفادور وضد حكومة نيكاراجوا التي تعترف بها الحكومة الأمريكية.

٦١) ٢٢ مايو ١٩٨٤م: أبلغ الرئيس الأمريكي ريغان (فهد بن عبد العزيز) أنَّ الولايات المتحدة تبحث القيام بعمل عسكري إذا دعت الضرورة، لحماية ناقلات البترول في الخليج، وأنه سيصبح ضرورياً حينئذ إعطاء أمريكا حق العمل من قواعد (سعودية).

٦٢) يوليو ١٩٨٤م: أعلن البنتاغون أنَّ طائرات أمريكية مقاتلة قامت بمناورات جوية فوق خليج سرت قرب الساحل الليبي، دون أي اعتراض من القوات الليبية!!

٦٣) ١٣ يونيو ١٩٨٥م: أكد تقرير للجنة تصفية الاستعمار التابعة للأمم المتحدة، أنَّ الولايات المتحدة ودولاً غربية أخرى تساعد جنوب أفريقيا في برنامجها الخاص بإنتاج أسلحة نووية.

٦٤) ١٣ يونيو ١٩٨٥م: وافق مجلس النواب الأمريكي على تقديم مساعدات للمتمردين في نيكاراجوا تقدر بحوالي ٢٧ مليون دولار.

٦٥) ٢٠ يونيو ١٩٨٥م: وافق مجلس النواب الأمريكي على استئناف إنتاج الأسلحة الكيماوية بعد حظر ١٦ عاما.

٦٦) ٢٨ يونيو ١٩٨٥م: وافق مجلس النواب الأمريكي على قانون يخول الرئيس ريغان الحق في التدخل عسكرياً ضد نيكاراجوا.

٦٧) ١١ أكتوبر ١٩٨٥م: اعترضت طائرة مقاتلة أمريكية طائرة مدنية مصرية تحمل مختطفي السفينة الإيطالية أشيلي لاورو، وأجبرتها على الهبوط بقاعدة عسكرية بجزيرة صقلية.

٦٨) ٧ يناير ١٩٨٦م: فرضت أمريكا مجموعة من العقوبات الاقتصادية ضد ليبيا، وأنهت العلاقات الاقتصادية معها.

٦٩) ٢٤ يناير ١٩٧٦م: أجرى الأسطول السادس الأمريكي مناورات استفزازية جوية وبحرية بالبحر المتوسط قبالة الساحل الليبي.

٧٠) ٢١ مارس ١٩٨٦م: أجرت الولايات المتحدة خامس جولة من مناوراتها الاستفزازية العسكرية أمام السواحل الليبية، وأعلنت عن إغراق سفينة حراسة ليبية وقصف قاعدة صواريخ سام ٥ ليبية قرب مدينة سرت الليبية ودمرت سفينتين أخريين.

٧١) مارس ١٩٨٦م: وافق مجلس الشيوخ الأمريكي على تقديم ١٠٠ مليون دولار مساعدات للمتمردين في نيكاراجوا.

٧٢) ٢٢ أبريل ١٩٨٦م: استخدمت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا حق (الفيتو) في مجلس الأمن ضد مشروع قرار لحركة عدم الانحياز يدين الغارة الأمريكية على ليبيا.

٧٣) ٢٣ أبريل ١٩٨٦م: هدد ريغان بضرب سوريا وإيران إذا ثبت تورطهما في (الأعمال الإرهابية).

٧٤) ٦ مايو ١٩٨٦م: أكد متحدث باسم البيت الأبيض احتمال قيام الولايات المتحدة بعملية عسكرية جديدة ضد ليبيا.

٧٥) ١٠ يوليو ١٩٨٦م: كشفت وزارة الدفاع الأمريكية عن اعتزامها إقامة منشآت جديدة لتخزين الأسلحة النووية في ٢٦ قاعدة جوية في أوروبا والشرق الأقصى.

٧٦) ٢٩ سبتمبر ١٩٨٦م: استخدمت الولايات المتحدة الفيتو في مجلس الأمن ضد مشروع قرار يطالبها بإنهاء مساعدتها للمتمردين في نيكاراجوا.

٧٧) ١٤ نوفمبر ١٩٨٦م: فرض الرئيس ريغان مجموعة من العقوبات الاقتصادية ضد سوريا بسبب ما وصفه باستيائه من تأييدها (للإرهاب = حماس وحزب الله).

٧٨) ٧ أبريل ١٩٨٧م: أعلن مساعد وزير الدفاع الأمريكي لشؤون الأمن الدولي، أنَّ القوات الأمريكية في هندوراس ستبقى هناك إلى أجل غير مسمى.

٧٩) ٦ يونيو ١٩٨٧م: انضمت حاملة الطائرات الأمريكية (ساراتوجا) وعدة سفن حربية إلى الأسطول الأمريكي في الخليج.

٨٠) يونيو ١٩٨٧: قررت الولايات المتحدة تعزيز وجودها العسكري في الخليج بست سفن حربية أخرى تقودها بارجة ضخمة.

٨١) ١١ مارس ١٩٨٨م: أصدر الرئيس الأمريكي ريغان قراراً بوقف المدفوعات الشهرية الأمريكية لبنما (وهي مقابل استخدام واشنطن لقناة بنما)، إلى جانب عقوبات تجارية أخرى، بهدف حرمان حكومة بنما من الأموال السائلة.

٨٢) ١٥ مارس ١٩٨٨م: أرسلت الولايات المتحدة وحدة عسكرية من قوات البحرية الأمريكية لحماية المؤسسات الأمريكية وأكثر من ٥٠ ألف أمريكي في بنما.

٨٣) ١٧ مارس ١٩٨٨م: أرسلت الولايات المتحدة أربع كتائب عسكرية قوامها ٣٢٠٠ جندي إلى هندوراس، بعد ساعات من إعلان واشنطن عن تعرض هندوراس لغزو من قبل نيكاراجوا.

٨٤) ٢ أبريل ١٩٨٨م: قررت وزارة الدفاع الأمريكية إرسال تعزيزات عسكرية إضافية إلى بنما لتوفير الأمن اللازم للقوات الأمريكية في منطقة قناة بنما ولحماية الرعايا المدنيين والمصالح الأمريكية.

٨٥) ١٨ أبريل ١٩٨٨م: دمرت السفن الحربية الأمريكية رصيفين بترولين عائمين تابعين لإيران في جنوب الخليج، وأغرقت للإيرانيين ٣ سفن حربية، وأصابت فرقاطتين أخريين.

٨٦) ٢٦ أبريل ١٩٨٨م: مدد الرئيس ريغان الحظر التجاري الذي فرضته على نيكاراجوا لمدة عام رابع.

٨٧) ٣ يوليو ١٩٨٨م: أسقطت وحدات الأسطول الأمريكي في الخليج طائرة ركاب مدنية إيرانية، ولقي ركابها جميعهم (٢٩٨) مصرعهم.

٨٨) ١١ يوليو ١٩٨٨م: عارض مشروع البرنامج السياسي للحزب الجمهوري قيام وطن قومي للفلسطينيين.

٨٩) ١٤ سبتمبر ١٩٨٨م: اتهمت الخارجية الأمريكية ليبيا بإنشاء مصنع لإنتاج الأسلحة الكيماوية وغازات قاتلة للأعصاب وغاز الخردل السام.

٩٠) ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩م: قامت القوات الأمريكية بغزو بنما بأمر من الرئيس الأمريكي جورج بوش، لاعتقال الجنرال مانويل نوريجا لمحاكمته في الولايات المتحدة.

٩١) ٧ مارس ١٩٩٠م: اتهمت الولايات المتحدة ليبيا بإنتاج وتصنيع أسلحة كيماوية في مصنع الرابطة.

٩٢) عام ١٩٩٠م: الولايات المتحدة توقف المساعدات العسكرية والاقتصادية عن الباكستان للاشتباه في أنَّ إسلام آباد تطور أسلحة نووية.

٩٣) ١٧ يناير ـ ٢٨ فبراير ١٩٩١م: دمرت القوات الأمريكية في العراق أكثر من ٨٤٣٧ داراً سكنياً و ١٥٧ جسراً وسكة حديداً و ١٣٠ محطة كهرباء رئيسية وفرعياً و٢٤٩ داراً لرياض الأطفال و١٣٩

داراً للرعاية الاجتماعية و١٠٠ مستشفى ومركزاً صحياً و ١٧٠٨ مدرسة ابتدائية.

٩٤) عام ١٩٩١م: الطائرات الأمريكية تقصف ملجأ العامرية في بغداد، مما أدى إلى قتل العشرات من الأطفال والنساء والشيوخ.

٩٥) ١٧ فبراير ١٩٩٣م: كشفت صحيفة (نيويورك تايمز) النقاب عن استخدام الطيران الأمريكي لقذائف تحوي اليورانيوم ضد الشعب العراقي.. وقد قتل الكثير من أطفال العراق بسببها. وكتبت الصحيفة أنَّ الأطفال كانوا أكثر تأثراً بهذه القذائف؛ لأنّ اليورانيوم الموجود فيها يترك آثاره بسرعة في الخلايا والهياكل العظمية للأطفال، ويقضي على الأجنة في أرحام الأمهات أيضا.

٩٦) يونيو ١٩٩٣م: صف صاروخي أمريكي وغارات جوية على العراق.

٩٧) ٣ سبتمبر ١٩٩٦م: قامت القوات الأمريكية بقصف صاروخي على بغداد.. وقد استخدمت صواريخ من نوع (كروز) الموجهة.

٩٨) في أغسطس عام ١٩٩٦م: وقّع الرئيس الأمريكي (بل كلنتون) القانون الذي صدقه الكونغرس الأمريكي حول العقوبات ضد إيران وليبيا والذي عرف بقانون (دماتو).. ويهدف هذا القانون إلى فرض عقوبات على الشركات النفطية الأجنبية التي تستثمر في إيران أو ليبيا أكثر من أربعين مليون دولار سنويا.

٩٩) عام ١٩٩٦م: الولايات المتحدة تنشئ صندوقا بـ (٢٠) مليون دولار لزعزعة النظام الإيراني.

١٠٠) ٢٨ سبتمبر ١٩٩٧م: أعلن العراق أنَّ أكثر من ١.٢ مليون شخص توفوا بسبب نقص الإمدادات الطبية منذ أن فرض الحصار على العراق.

١٠١) ١١ أكتوبر ١٩٩٧م: قال تقرير لبعثة وكالات غذاء دولية بعد زيارة للعراق: «وجدت البعثة دلائل واضحة على انتشار سوء التغذية ونقص عام في الغذاء وسوء وضع التغذية في البلاد نتيجة لنقص الامدادات المستمرة على مدى الأعوام السابقة الأخيرة».

١٠٢) عناقيد الغضب حرب شنها العدو الصهيوني بدعم وغطاء أمريكي على لبنان في نيسان ١٩٩٦حيث ارتكب العدو الصهوني العديد من المجاز كان أبرزها قصف مركزاً للأمم المتحدة لجأ إليه مئات اللبنانيين، فسقط أكثر من مئة قتيل بين طفل وامرأة وعجوز.

١٠٣) في ٢٢ أغسطس/ آب العام ١٩٩٨ قصفت أميركا بالصواريخ مصنع الشفاء للأدوية في الخرطوم، وهو المصنع الذي أنشئ بالتعاون مع ألمانيا، ... وبقصف المصنع حرم الملايين من السودانيين من دواء الكلوروكين (العلاج المعتاد ضد مرض الملاريا).

١٠٤) هذا وشنت قوات التحالف الغربي الغازية حرباً على أفغانستان، ولا تزال، بل وتعدت ذلك إِلَى وزيرستان الباكستانية منذ أكتوبر ٢٠٠١ حيث افتتح معتقل غوانتانامو غير الإنساني، كما وسقط مئات الآلاف من القتلى المدنيين وملايين الجرحى بواسطة القصف العشوائي وقصف طائرات بدون طيار العمياء.

١٠٥) وحدها أمريكا تخطت قرارات الأمم المتحدة وبذريعة المفاعلات النووية السرية شنت تلك الدولة الاستعمارية حرباً تحالفت فيها مع فرنسا وبريطانيا وبعض الدول الأخرى حرباً على العراق في آذار ٢٠٠٣ ولم تزل، وقد سقط حتى الآن أكثر من مليون شهيد عراقي وملايين الجرحى والمشردين ، فكانت وصمة العار التي لن ينساها التاريخ في سجن أبو غريب مع التعذيب والتنكيل بالعراقيين

والعرب بشكلٍ لا إنساني. هذا بالإضافة للتجارب التي أجرتها أمريكا على انتاجاتها الجديدة من الأسلحة على أهالي الفلوجة في العراق والتي لم يعرف حتى الآن ماهية المواد الكيماوية المستعملة في قصفها وإبادة سكانها.

١٠٦) في تموز ٢٠٠٦ شنت قوات العدو الصهيوني حرباً على لبنان بدعم أمريكي مطلق سقط خلالها أكثر من ألف شهيد لبناني وآلاف الجرحى، ومن أبرز المجازر التي سجلها التاريخ في حينها مجزرة قانا الثانية التي سقط فيها عشرات الأطفال والنساء تحت أنقاض المبنى الذي يقطنونه.

١٠٧) في كانون الأول لعام ٢٠٠٨ شنّ العدو الإسرائيلي حرباً على غزة بدعم وغطاء أميركي وغربي وتواطؤ عربي كامل، استعملت فيها الفوسفور الأبيض، وأدّت تلك الحرب إِلَى مقتل أكثر من ١٥٠٠ فلسطيني وسقوط أكثر من ٥٠٠٠ جريح ، ولم يوقف إسرائيل في وقتها وجود المدنيين في مدرسة الفاخورة التابعة للأونروا، فقصفت المدرسة وسقط عشرات المدنيين والأطفال.

١٠٨) في ٢٧ أيار ٢٠٠٨ قصفت الطائرات الأمريكية محافظة جوبا السفلى الصومالية وسقط عشرات المدنيين بين قتيل وجريح.

ولا تزال الجرائم الأمريكية مستمرة في العراق وليبيا واليمن والصومال والسودان، كما وتعمل ليل نهار على إشعال نار القتل الطائفي وتسعير الحقد المذهبي وإيقاظ النعرات العرقية والعنصرية في العالم العربي بين المسلمين أنفسهم وبين المسلمين والمسيحيين وبين القبائل المختلفة عرقياً وقومياً مما يؤدي إِلَى حروب يسقط خلالها الملايين تحت ستار نشر الديمقراطية والحرية...فضلاً عن الجريمة الكبرى في استمرار دعم الكيان الصهيوني بشكل غير متناه وغير

محدود، والتغطية على جرائمه في فلسطين بحق الأطفال والنساء والعجائز.

* * *

قسيمة الاشتراك

رسالة الثقلين
مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠

□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

الاسم : .....
العنوان : .....
.....
المدينة : .....
البلد : .....
المهنة : .....
مدة الاشتراك : .....
ابتداءً من : .....
.....
عدد النسخ : .....

يرافق اشتراكي: □صك □صك بريدي □حوالة بريدية

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص . ب ٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥

.....

الاشتراكات:

▣ **داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدّد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:**

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم ـ بانك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة ـ رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ ـ ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

▣ **خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم ـ بانك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ ـ ٢٧٠١ (بالدولار).**

ثمن النسخة:

▣ **الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.**

▣ **وفي بافي دول العالم 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها**

The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 18, No . 70, Summer 2011